

لمحات من التاريخ

لمحات من التاريخ.
مصطفى نصر زهران - محمد زهران.
رقم الإيداع: 2021/3918
الترقيم الدولي: 978-977-6692-56-5

جميع الحقوق محفوظة © كتوبيا للنشر والتوزيع

يمنع منعاً باتاً الاقتباس أو إعادة النشر سواء بالطباعة أو النشر الإلكتروني أو التصوير
الضوئي للمحتوى أو أي جزء منه إلا بإذن كتابي من الناشر

+201005432405

f kotopia

info@kotopia.org



العنوان: ١٤ شارع أبو نواس - ميامي - الإسكندرية - جمهورية مصر العربية

يمكنكم طلب إصداراتنا عبر متجر كتوبيا الإلكتروني

<https://kotopia.store>

مصطفى نرهيران
محمد نرهيران

لمحات من التاريخ



المحتويات

مقدمة ١١

لمحات من حياة الصحابة

الرجل العظيم ١٧

الأستاذ المعلم ٢٣

البطل الماجد ٢٩

استشهد لتبقى راية الإسلام مرفوعة ٣٩

مسافر زاده التوكل!! ٤٥

المجاهد الفدائي ٥٥

الأسد في برائه ٦١

إني أهب نفسي لله ٦٧

لا حاجة إلى ذكر اسمي ٧٣

أشرس مقاتل في التاريخ ٧٧

شهيد يدخل الجنة بغير حساب ٨٣

صاحب القيود الحديدية ٨٩

الشجاع المقدام ٩٧

أسد الله الغالب ١٠٧

لمحات من حياة الصحابيات

الفدائية الصغيرة ١١٧

١٢٣	الفتاة المجاهدة
١٣١	الأخت العاقلة
١٣٧	والله لا أتبعه اليوم حنثًا
١٤١	مثل للمؤمنات المجاهدات
١٤٧	زوج الشهيد
١٥٣	الريحانة الوفية
١٦١	الصبور الراضية
١٦٧	صاحبة الشاة المباركة
١٧٥	المرأة الملهمة
١٧٩	الرضية الصابرة
١٨٥	أم شيخ الصحابة
١٩١	مربية الأبطال
١٩٩	أم شهيد قضى نحبه

لمحات من حياة العظماء

٢٠٧	الأمير الحليم
٢١١	غضبك يهون أمام غضب الله
٢١٧	نمر ميسور التأثير
٢٢٧	البطل العظيم
٢٣٣	المنصور والجاسوس
٢٣٩	الشيخ المعلم
٢٤٥	بندقية مقابل حياة مجاهد!!
٢٤٩	الرجل الكريم

ريحانة بلاد الشام	٢٥٣
الشيخ الأسد	٢٥٧
الرجل الذي أدى الأمانة بعد موته!!	٢٦٣
رجل المهام الصعبة	٢٦٧
دفاعاً حتى الموت	٢٧٣
العالم المؤمن	٢٧٩
الشيخ المجاهد	٢٨٥
السلطان والمسرحية	٢٩٣
الخليفة واليهودي	٢٩٩
وفد نصراني يطلب حكم المسلمين	٣٠٥
أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني	٣٠٩
الإمام العظيم	٣١٩
المجاهد الصلب	٣٢٧
رامبو التاريخ الإسلامي	٣٣١

لمحات من حياة الصالحات

المؤمنة عفيفة	٣٤١
الفارسة الفدائية	٣٤٧
العابدة الكريمة	٣٥٣
العجوز الباسلة	٣٥٧
يا بني اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي	٣٦٣
قاهرة الروس	٣٦٩
المؤمنة الملهمة	٣٧٣

- الأم المثالية ٣٨١
امرأة أيقظت أمة ٣٨٩

لمحات من حياة القضاء

- أنت تتكبر على الله ٣٩٧
وضعت هذا السيف لأقتلك ٤٠١
القاضي العظيم ٤٠٥
يجب قطع يدك أيها السلطان ٤١١
شهادتك لا يمكن قبولها أيها السلطان ٤١٧
عطسة تنصف مظلومًا ٤٢١
قضاتي تردني إلى الحق ٤٢٥
اذكر مظلمتك ٤٢٩
سأدفع لك التعويض ٤٣٣
العدل الذي يمشي على الأرض ٤٣٧



إهداء

إلى الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان، وعلي.

إلى: أفضل البشر بعد الأنبياء، مصابيح الدجى، ونور الهدى، الصحابة رضوان الله عليهم.

إلى: القادة الفاتحين الذين لولاهم ما عرف الناس عدل الإسلام.

إلى: العلماء الأعلام الذين كانوا دائماً مصابيح الهدى.

إلى المسلمات: اللاتي يتخذن من الصحابيات مثلاً لهنَّ في التضحية، والإيمان، والتقوى، والورع، والفداء.

إلى الأخوات الكريمات: اللواتي يتخذنَّ من الصالحات مثلاً يقتدى بهن في الإيثار، والصمود، وحسن التربية، والصبر على البلاء.

إلى: كل مسلم حريص على إعزاز دين الله تعالى ونصرته.

إلى: أبي وأختي رحمهما الله، وأمي حفظها الله، وإخوتي.

أقدم إليهم جميعاً كتاب لمحات من التاريخ.

مقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعين به، ونستهديه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمد عبده ونبيه ورسوله، اللهم إنا نعوذ بك من أن نقول زورًا، أو أن نخشى فجورًا، أو أن نكون بك ربي من المغرورين، وما قل وكفى خير مما كثر وألهى.

أما بعد:

بسم الله القوى، العزيز، وفي سبيله، وعلى بركته، أضع هذا الكتاب الذي أرجوه أن يكون خالصًا لوجه الله تعالى، بين يدي شباب الإسلام ورجاله وفتياته، الذين اتضحت في عيونهم الرؤية الواعية لتاريخنا العظيم، فأدركوا أن ابتعاد الأمة عن دينها العظيم، عقيدة، ومنهاج حياة، وهو السبب في كل ما يصيبها من هوان، وتشتت، وتخبط في متاهات العقائد الأرضية المستوردة من هنا ومن هناك، ثم أدركوا من بعد ذلك، أن في العودة إلى الإسلام

العظيم، والالتزام الصادق به، والاستقامة الواعية على دربه، هو طوق النجاة الوحيد لهذه الأمة.

وبعد:

إن تاريخنا أعظم تاريخ لأعظم أمة، ولكن للأسف نحن أمة تجهل تاريخها، وتنسى رجالها، هذا التاريخ الذي ليس لأي أمة مثله، ولا رجال مثل رجالنا، هذا التاريخ الرائع الذي يفيض بالحب، والنبيل، والتضحية، والبطولة، والإيمان، والبذل، والوفاء.

ولست أعني هنا التاريخ السياسي أو العسكري وحده، بل التاريخ العلمي أولاً وقبل أي شيء، تاريخ القوم الذين باعوا نفوسهم مجاهدين في ميادين الحضارة، بأسنة الأقلام، وقرائح العقول، وهجروا لذلك لذائذهم، ونسوا حاجات بطونهم، وطرحوا عن كاهلهم رغبات الغنى والجاه، وكل ما يتزاحم عليه الناس؛ استهانوا بذلك بكل صعب، حتى تحققت على أيديهم دعائم أعظم حضارة في تاريخ الإنسانية.

أما تاريخنا السياسي والعسكري فهو أسمى وأنصح تاريخ من كل تواريخ الأمم الأخرى، تاريخ قائم على العدل والرحمة والأخوة والتراحم، تاريخ ينصف فيه المظلوم، وترد فيه الحقوق إلى أهلها، تاريخ كان بها أقل شخص من الرعية يستطيع أن يشتكي رأس الدولة، ولا يخاف على نفسه من بطش جبار، أو سطوة محتال.

ومع ذلك هو تاريخ لمجموعة من البشر، ولم يكن للملائكة فيه مكان، كان يوجد بعض نوازع الشر من طغيان وظلم ودسائس، ولكنه مع كل الكوارث التي حدثت في تاريخنا، إلا إنه يظل أظهر وأجمل ما سطره السمو البشري من أخلاق في صحائف التاريخ.

ولقد ظهر الآلاف من الرجال العظماء الذين كان لهم أثر ضخم في أحداث التاريخ، وقد بذلوا وقدموا، وعملوا وأعطوا، وهوجموا وابتلوا وصبروا فلم تلن لهم يوماً قناة، ولم يؤثر عنهم ضعف ولا ذل ولا هوان، ورغم كل ما سطوروا في صفحات التاريخ، ظلت أسماء معظم هؤلاء العظماء من رجال ونساء مجهولة عند أكثر المسلمين، وإن عُرفت الأسماء فقد جُهلَت الأعمال، وصار أولئك العظماء الذين كانوا مشاغل هدى في زمانهم معدودين في جملة المجاهيل في عصرنا.

فلم تعد الأجيال تسمع عن أفعالهم، بينما كان المأمول أن يُتخذوا قدوات يُقتدى بها الناس، ولذلك لقد تخيرت بعض أولئك العظماء الذين أسدل ستار الإهمال والنسيان عليهم - ولقد ذكرنا كذلك نخبة من المشاهير - لكي أقدم جزء من حياتهم في هذا الكتاب ليتعلم شباب وبنات الأمة كيف تكون القدوة الصالحة.

ولقد اجتهدنا في هذه الدراسة في عرض لمحات من حياة عظماء الإسلام من الرجال والنساء على حد سواء، وعرضنا نبذة من سلوكياتهم وأفعالهم، وهدفنا في من هذا كله أن يتشرب أبناء

الإسلام الوعي التاريخي، لأن الأمة التي تجهل تاريخها، وتستغني عن معرفة ماضيها، هي أمة تنحدر إلى الهاوية المحققة، وإننا نهدف من خلال هذه سلسلة إلى مدّ جسر من الودّ للأجداد، وتنشئة أجيال جديرة بأن تكون أحفاداً لهم.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

﴿فَسَتَذْكُرُونَ مَا أَقُولُ لَكُمْ وَأُفَوِّضُ أَمْرِي إِلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بَصِيرٌ
بِالْعِبَادِ﴾

مصطفى نصر زهران

لمحات من حياة الصحابة

الرجل العظيم (١)

إن الإطلالة على سير العمالقة العظماء، تمدُّ المرء بتجارب جليلة، يتعلَّم منها مرضاة الله ورسوله، وما يصلح أحواله من زاده لمعاده، فهم كالنجوم يهتدي بها الإنسان في طريق سيره إلى ربه جل وعلا، فيعيش الإنسان حياته لله، ويخوض غمار التجارب لربه، فهو يعمل لله، ويعيش مع الله، ويحيا بحب ربه.

ضيفنا في هذه السطور، رجلٌ عظيم القدر، رفيع المنزلة، ظل متأسياً برسول الله حتى آخر لحظة في حياته، جاهد في الله حق الجهاد، أنفق ماله كله في سبيل الله، عملاق لو وُزن إيمانه بإيمان الأمة لرجح إيمانه، إنه الورع الحيي، الحازم الرحيم، التاجر الكريم، صاحب الفطرة السليمة من أدران الظلام والجاهلية.

نحن على موعد مع، عملاق عظيم عاش حياته كحاكم، لم تفلت منه مزية، ولم تغب عنه فضيلة، هو الذي أنقذ الإسلام من خطر محقق، وردَّ إليه حياته وثباته، رجل بدأت أبراج كسرى

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ** الكامل في التاريخ ** طبقات ابن سعد ** سير أعلام النبلاء ** الإصابة في تمييز الصحابة ** تاريخ الإسلام.

وقيصّر تتساقط تحت قدميه، والعالم كله يتداعى بين يديه، ورغم ذلك عاش وحدًا من الناس، لم يتغير لحظة، من كان يراه في شوارع المدينة، وهو لا يعرفه يظن أنه واحد من الفقراء المساكين.

نحن نلتقي بالإنسان الذي اجتمعت فيه أوصاف الإنسانية المهدبة، ومؤمن جمع في أقواله وأفعاله وأحواله كلها شعب الإيمان مجتمعة، فهو أعظم رجل عرفته الإنسانية بعد الأنبياء عليهم السلام، رفيق درب الرسول الأعظم في السلم والحرب، ورفيقه في رحلة الحياة، إنه ثاني اثنين الصديق الأعظم، سيد كهول أهل الجنة أبو بكر الصديق رضي الله عنه.

كان خليفة رسول الله أبو بكر الصديق رضي الله عنه يأخذ من بيت المال، وهو خليفة المسلمين، وحاكم دولة واسعة الأطراف تشمل الجزيرة العربية، وتتوغل في بلاد الشام والعراق غزوًا وفتحًا ما يكفي لقوته وقوت أسرته الكبيرة، وكان تاجرًا قبل أن يتولى أمر الدولة الإسلامية، وشغلته الخلافة عن التجارة، فاضطر إلى أن يأخذ من بيت المال ما يعوله وأهله، لأنه لا يجد وقتًا للتكسب والارتزاق، وذلك في صالح المسلمين، والانشغال بمهمات الخلافة، وإدارة أمور البلاد والعباد.

وكان الذي يأخذه من بيت المال يكفي لإقامة صُلبه وصُلب عياله من طعام، من خُبز وإدام، لا تجد أم عياله سبيلًا إلى التفنن فيه، والتوسع في المطاعم كما يفعله من بسط الله له في الرزق من

أغنياء الأسرة، وأهل البلد، وكانت الأسرة أحسن حالاً وأنعم بالاً حين كان سيد الأسرة -الصدّيق- يرتزق بالتجارة.

وكان لأبي بكر أولاد صغار يعتمدون على ما يقيم صُلبهم، ويسد رمقهم من طعام متشابه، لا يجدون ما يشبع رغبتهم من حلوى وفاكهة كمن كان في سنّهم من أبناء أسر المدينة الذين أغناهم الله ووسع لهم في الرزق، فقد كانت لآبائهم حدائق، وتجارات ومزارع.

شعرت بذلك الأم الحنون وأرادت أن تحلي يوماً أفواه الأبناء، وتتسلى بالحلوى، وهي بشر من البشر، فقالت لزوجها العظيم: أن يسمح لها بذلك يوماً من الأيام، ويزيد في راتبها من بيت المال، فقال: إن بيت مال المسلمين - وفيهم فقراء، وأهل خصاصة - لا يتسع لإشباع الرغبات، والتنوع في المطاعم والمشارب.

فقالت: لو استفضلت من نفقتنا عدة أيام، وبقيت لنا بقية، هل هنالك مانع من أن نشترى بها حلوى؟

قال: لا بأس بذلك، هذا يرجع إلى قدرتك وجهدك.

فاستفضلت زوج الصدّيق من نفقتها من عدة أيام ما يصلح لأن تشتري به حلوى، وقدمت الدرهمات إلى أبي بكر، وقالت هاك دريهمات، تستطيع أن تشتري بها لنا حلوى.

ولم يكن من شأن الصديق إلا أنه ردّ الدريهمات إلى بيت المال، وقال: لمن يلي أمره.

قد تحقق لدينا أن أسرتنا تستطيع أن تعيش وتقوت أعضائها بأقل مما تتقاضى من بيت المال من الدريهمات، فأسقط من نفقتنا كل يوم بقدر هذه الدريهمات، فإنها كانت زائدة على حاجتنا، وليس بيت مال المسلمين لتتفره به أسرة الخليفة، وتتوسع به في المطاعم.

وهكذا كان، فنقص من راتب كل يوم بقدر هذه الدريهمات، وكان من حظ الأسرة السعيدة الصالحة - كان يحكم سيدها بلاذًا واسعة، وتأتيه الغنائم والثروات من أطراف كثيرة - الغرم بدل الغنم، ولم تستطع أن تحقق رغبتها فيما اشتتهه من حلوى، بل اضطرت إلى أن تقتنع براتب أقل مما كانت تناله كل يوم من بيت المال، ورضيت السيدة زوج الصديق بما فعله زوجها العظيم ولم تعتبره غرمًا وخسارة، وصدق الله العظيم: ﴿وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ﴾ (النور: ٢٦).

لقد ضرب الصديق ﷺ مثلاً لمن يلي أمر المسلمين، ويفضل الزهد والقناعة على التوسع في المطاعم والمشارب، وقضاء حاجات النفس، ويرجح الآخرة على الدنيا، وما عند الله خير وأبقى.

عبرة:

يا سادة، لم يدخل منصب الخلافة على نفس الصديق الكبيرة أي زهو، ولم يحرك لها رغبة - أي رغبة - في تغيير أسلوب الحياة، فلقد عاش الصديق وأسرته الكبيرة، حتى بعد أن فتح للمسلمين أبواب الرزق والرغد، وبدأت خيرات الشام والعراق تغد إلى المدينة، ولم يكن الصديق يلتزم القناعة لمجرد الزهد، بل كانت قناعته جزءاً من فلسفته في الحياة، ولقد كان ﷺ يؤثر أن يشد على بطنه حجرين من المسغبة كما فعل حبيبه ومعلمه رسول الله ﷺ على أن يدخل أمعاءه لقمة فيها شبهة.

لقد كان إصراره عظيمًا على ألا ينال من بيت المال إلا ما يكفيه وأهله بالمعروف، وما نال من المال وهو أعظم حاكم في العالم في ذلك الوقت، ولا نال من مناعم الحياة إلا ما كان يأكل وأهله من جريش الطعام، وإلا ما كانوا يلبسون من خشن الثياب، وبرغم كل هذا، فحين أدركه الموت دعا إليه ابنته أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وقال لها: انظري ما زاد في مال أبو بكر منذ ولي هذا الأمر فرديه على المسلمين، وكانت روحه الطاهرة تتحرك صاعدة إلى بارئها وهو يردد هذه الكلمات.

ترى ماذا كان هناك حتى يشغل بال الصديق إلى هذا المدى؟
ماذا ادخر هذا الرجل العظيم في أيام خلافته من ثراء يخاف أن يلقي به ربه فيحاسبه عليه؟!

إن عائشة حملت تركة الصديق فور وفاته، وفور مبايعة الفاروق، حملتها إليه تنفيذًا لوصية أبيها، فما كاد عمر يرى ثروة الصديق حتى انفجر باكياً، وقال: يرحم الله أبا بكر، لقد أتعب كل الذين يجيئون بعده!!

لقد سن الصديق بسلوكه وورعه نهجاً تنهى في العظمة، بحيث يضني بلوغه ومضاهاته كل خليفة يأتي على أثره، أما لماذا انفجر الفاروق باكياً حين نثرت أمامه ثروة الصديق؟ لقد كان أمراً غير معقول، هذه التركة التي خلفها الرجل الذي افتدى الإسلام بماله، والخليفة الذي بدأت تنثال في أيامه خيرات الشام والعراق، ها هو ذا، الميراث الذي خلفه الصديق، والذي خاف أن يحاسبه الله عليه، وأصر على أن يرده إلى بيت المال، بعير، كان يستقي عليه الماء، ومحلب، كان يحلب فيه اللبن، وعباءة، كان يستقبل فيها الوفود.



الأستاذ المعلم^(١)

لله عباد دانوا له بالخضوع والطاعة، وأخلصوا له في القول والعمل وروضوا أنفسهم على أنواع من العبادات والمجاهدات، ليلغوا بها عند الله تعالى أعظم الدرجات، وقد وصفهم رب العزة سبحانه في أواخر سورة الفرقان بأوصاف ما أجملها، وما أعظمها فقد قال: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا * وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا﴾ (الفرقان: ٦٣، ٦٤).

ضيفنا في هذه السطور، الرجل الذي أعطى دنيا الناس كافة قدوة لا تبلى، قدوة تتمثل في حاكم بركت الدنيا على عتبة داره مُثقلة بالغنائم والطيبات، فسرحتها سراحاً جميلاً، وساقها إلى الناس سوقاً كريماً، يقدم إليهم طبيباتها، ويدراً عنهم مضلاتها، حتى إذا نفّض يديه من علائق هذا المتاع الزائل، استأنف سيره، ومسراه مهرولاً في فترة الظهيرة الحارقة وراء بعير من أموال الصدقة يخشى

(١) طبقات ابن سعد ** تاريخ الإسلام ** أسد الغابة في معرفة الصحابة ** الإصابة في تمييز

الصحابة ** فتوح الشام ** الكامل في التاريخ

عليه الضياع، أو منحنيًا فوق قدر ليطبخ فيه طعمًا طيبًا لامرأة غريبة أدركها كرب المخاض، أو لأطفال يتضورون جوعًا في ظلام الليل الدامس.

نحن على موعد مع، رجل عظيم من أولئك الذين أعزهم الله بالإسلام، وأعز الإسلام بهم، فكان رجلًا قد اكتملت فيه أوصاف الرجولة كلها، وبطلًا قد تمت له سمات البطولة في أسمى معانيها، فصنع لنفسه تاريخًا عامرًا بالماثر العظيمة، زاهيًا بالأمجاد الخالدة، زاخرًا بالبطولات النادرة، والمواقف الإنسانية السامية، إنه عبقرى لم يصنع صنيعه أحد في الإسلام، وهذه ليست شهادتي له، بل شهادة الذي لا ينطق عن الهوى الرسول الأعظم ﷺ.

نحن نلتقي بالرجل الذي تنزل القرآن أكثر من مرة موافقًا لرأيه، إنه الأستاذ المعلم الذي صحح كثيرًا من مفاهيم الحياة، وكساها عظمة وروعة من خلقه وسلوكه، وكان للمتقين إمامًا، إنه أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ونحن في هذه السطور نروي لكم مشهدًا من أعظم مشاهد التواضع على مر العصور، فتعالوا بنا لنعش سويًا مع هذا المشهد لهذا العملاق الأسطوري.

استمرّ الفتح الإسلامي في بلاد الشام في خلافة الفاروق عمر بن الخطاب رضي الله عنه، حتى وصل إلى القدس، هنالك طالب نصارى القدس، أن يأتي إليهم خليفة المسلمين، ويكتب بنود الصلح بيده فيسلموا إليه مفاتيح المدينة والمسجد الأقصى المبارك - فك الله

أسره- لأن الأمر ليس بهين، وليس القدس كسائر المدن والبلاد المفتوحة، بل لها شأن ليس لبلد آخر، فهو الذي بناه نبي الله سليمان عليه السلام، وصلى فيه الأنبياء بعده، فلا بد أن يسلم، إن كان لا بد من التسليم إلى ولي الأمر، وخليفة المسلمين رأسًا.

كتب قائد الجيوش الإسلامية على جبهة الشام أبو عبيدة بن الجراح ؓ بذلك إلى أمير المؤمنين، وقال: إن فتح بيت المقدس متوقف على قدومك، هنا استشار الفاروق عمر الصحابة ؓ في هذا الأمر- شأنه في كل القضايا الكبرى- وتوقف بعض الصحابة في أمر رحلته، وأشاروا عليه بالامتناع إرغامًا لأنوف الروم والنصارى.

ولكن على بن أبي طالب ؓ أشار عليه بالتوجه إلى القدس لما له من شرف وسعادة، وتخفيف على المسلمين من أمر الحصار.

وقبل أمير المؤمنين عمر رأى على بن أبي طالب ؓ، واستعدَّ للرحلة، واستخلف عليًا ؓ على المدينة وتوجه هو نحو بيت المقدس.

ولنظر كيف سافر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ؓ، وهو الذي يهابه إمبراطور الروم، وملك بلاد فارس، واسمه يملأ القلوب والآذان هيبةً ورعبًا، وكان من هو أقل منه منزلةً وأصغر منه نفوذًا وحكمًا، إذا سافر إلى أي مدينة في إمارته وحكمه، فضلًا عن بلاد بعيدة ودولة كانت في حكم الآخرين زمانًا طويلًا، تشخص فيه الأبصار إلى رؤية الحاكم الفاتح، والاطلاع على موكبه، ومظاهر

عظمته، ولا تزال أخبار هذه الرحلات الملوكية تشغل مكاناً كبيراً في كتب التاريخ والسير، ويتحدث بها الناس فتملاً القلوب إكباراً وإجلالاً، ولكن الأمر كان هنا على خلاف القياس والتجارب التاريخية المتكررة.

لقد تقدّم الفاروق ﷺ إلى بلاد الشام على جمل لونه لون الرماد، تلوح صلعته للشمس، رجلاه بين شعبي رحله بلا ركاب، وطاؤه كسا ذو صوف، وهو ركابه إذا ركب، وفراشه إذا نزل، حقيبته نمرة أو شملة محشوة ليفاً، هي حقيبته إذا ركب، ووسادته إذا نزل، عليه قميص من كرابيس - أي الثياب الخشنة - قد رسم وتخرق جنبه، وليس عنده قميص آخر.

فلما وصل إلى القدس، قال: ادعوا لي رأس القوم - يقصد زعيم نصارى العرب في القدس - فدعوه له، فقال: اغسلوا قميصي وخيطوه، وأعيروني ثوباً أو قميصاً، فأتي بقميص كتان، فقال: ما هذا؟ قالوا: هذا كتان؟ قال: ما الكتان؟ فأخبروه، فنزع قميصه فغسل ورقع وأتي به، فنزع القميص الكتان ولبس قميصه.

ولما جاء زعيم نصارى العرب، ورأى الفاروق، قال له: أنت ملك العرب، وهذه بلاد لا تصلح بها الإبل، فلو لبست شيئاً غير هذا وركبت برذوناً - التركي من الخيل - لكان ذلك أعظم في أعين الروم، فقال الفاروق: نحن قوم أعزنا الله بالإسلام فلا نطلبُ بغير الله بديلاً.

هكذا كان شأن الفاروق عمر رضي الله عنه في كل أمر، هذا الرجل الذي كان اسمه يُطير نوم الملوك الكبار، ودوي فتوحه يملأ الآفاق، وهكذا كانت رحلته من المدينة إلى القدس، يمرُّ فيها بمدن كثيرة بلغت أوج المدنية والرُّقي، وترنو إليه العيون وتشخص إليه الأبصار، وقد صدق رب العزة سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٧، ٨).

عبرة:

يا سادة، هذا الرجل العظيم لم تكن البساطة والتواضع هواية له، بل كانت ديناً وفطرة وأمانة، لا ريب أن أمير المؤمنين لو خير بين هذه البساطة الصادقة، وكل ما في الدنيا من زينة وزخرف، لما آثر على نعمة التواضع والبساطة شيئاً، وإن الرجل الذي عاش حياته متفوقاً، وكانت أيامه فوق الأرض موكباً مستمراً من الانتصارات والسعادة منذ كان فتى يصارع الفتیان في سوق عكاظ، فيظفر بهم وينتصر عليهم، إلى أن أسلم فكان إسلامه فتحاً، ثم هاجر، فكانت هجرته نصراً، إلى أن صار أميراً للمؤمنين تتهاولى تحت ضرباته أركان العالم القديم كله!!

سبحانه رب عمر.. لقد ألهمه رشده، ووقاه شر نفسه، ومنحه من استقامة الشخصية وجلالها ما جعله نسيج وحده، لا في بلده وحده، ولا في عصره وحده، بل ملء كل مكان، وعبر الزمان، جميع الزمان، حيثما نلقاه، نلقى بطولة روحه، نلقى بساطه وإخلاصه

وصدقه، حتى لتركنا في حيرة، كيف توافر لهذا الرجل، كل هذا
القدر من الدعة والأمانة والبساطة.



البطل الماجد^(١)

البطولة في معناها العام هي القوة في الجسم والنفس، والشجاعة في مواطن البأس، والثبات على الإيمان بالمبدأ، وفي تاريخ أمتنا كثير من الأمثلة للأبطال الذين تبدت فيهم البطولة وهم في طور الصبا وبدء الشباب، ثم تجلت هذه البطولة فيهم على مر الأيام، فازدادت تألقاً وإشراقاً، ومن هؤلاء الأبطال الذين كانت بطولتهم مبكرة، واستمرت ثمرة حتى لقي ربه شهيداً سعيداً يوم أحد.

إنه واحد من أعظم وأشرس المقاتلين عبر التاريخ، بطل كان يصول ويجول في ساحات الوغى، يضع ريش النعام على صدره ليعرفه العدو بها، وفي أثناء العراك يتبخر في مشيته بين الصفوف يتحدى قوى الباطل، فمن يكون هذا الأسد الكاسر، وما قصة بطولته الأسطورية يوم أحد، ولماذا بكى عليه الرسول القائد كما لا يبكي على أحد من قبل، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، واحد من العظماء الذين تحيا القلوب

(١) دلائل النبوة للبيهقي ** الإصابة في تمييز الصحابة ** المغازي للذهبي ** المغازي للواقدي

** سيرة ابن هشام ** عيون الأثر ** البداية والنهاية ** طبقات ابن سعد

بذكرهم، الرجل الذي كان الجسر الذي عبر عليه المسلمون إلى ساحة النصر يوم بدر، وكان هو الدرع الذي وقى الكثير منهم في ساعة الضرب والطعان يوم أحد، لقد كان هذا البطل لا يبحث أبدًا عن النصر، إنما يبحث فقط عن الشهادة، ويستعجل مجيئها، إنه طراز فريد من الأبطال، قلما يوجد الزمان بمثله، عظيم الأثر، كبير البلاء، كالأعاصير يدمر الأعداء.

نحن على موعد مع، الرجل الذي أعز الإسلام بعد أن أعزه الإسلام، صاحب راية الرسول القائد في بدر وأحد، كان سيدًا جوادًا وجيهاً في المهاجرين، ذا رياسة وكرم، مشهورًا بالسخاء، عظيم البذل، نحن نلتقي بالبطل الماجد، والأسد الضرغام، أسد الله ورسوله حمزة بن عبد المطلب ﷺ وأرضاه.

لما انهزمت قريش يوم بدر، ما كانت لتتجرع هذه الهزيمة المنكرة في سلام، فراحت تُعدُّ عدتها، وتحشد بأسها ويأسها، لتثار لنفسها، ولشرفها، ولقتلاها، وصممت على الحرب للاستئصال شأفة المسلمين، وتدمير المدينة عاصمة الإسلام، فجاءت بخيلها ورجالها وحالفها وعسكروا بالقرب من جبل أحد، والتقى الجيشان: جيش ينادي الأوثان، ويستغيث بها، وجيش يقاتل، لتكون كلمة الله هي العليا، ويستنصر بمن بيده النصر وحده.

كان زعماء قريش قد أجمعوا أمرهم، ونصبوا تدبيرهم وخطتهم أن تظفر باثنين من رجال الإسلام، وليكن بعد ذلك ما يكون،

أما الاثنان فهما: الرسول القائد ﷺ، وعمه حمزة أسد الله ﷺ، ولما كان احتمال الظفر بالرسول مستحيل، فهم يعرفون مدى حب أصحابه له، وافدائهم إياه، جعلهم يركزون بتخطيطهم وتدبيرهم على الظفر بحمزة ﷺ.

ولقد رسموا كل الخطة التي تمكنهم من رأسه وهم في مكة قبل أن يغادروها، واصطنعوا لذلك واحداً من أمهر الرماة في مكة، بل لعله يومذاك كان أبرع من يضرب بالحربة في الجزيرة العربية، ذلكم هو وحشي بن حرب غلام جبير بن مطعم.

وكان جبير بن مطعم هذا قد قتل عمه بيد حمزة يوم بدر، فقال لخادمه وحشي: إن أنت قتلت حمزة فأنت حر، وكلمه في ذلك جمع من رؤساء قريش وساداتهم، وأغروه بالمال، وأحالوا إلى امرأة هي أقدر منهم على الإغراء بالمال، وهي هند بنت عتبة امرأة أبي سفيان زعيم قريش آنذاك، وكانت قد فقدت أباه وعمها وأخاها وابنها في بدر، وقد قتل معظمهم على يد حمزة، ومن أجل هذا كانت أكثر القرشيات تحريضاً على الخروج للحرب، لا لشيء إلا لتظفر برأس حمزة مهما يكن الثمن الذي تتطلبه المغامرة.

بدأ القتال واحتدم أوارؤه، ودارت الدائرة على الوثنيين ولاذت جموعهم بالفرار، وراح المسلمون يجمعون الغنائم التي تركها أعداؤهم، ونسي الرماة أمر الرسول القائد ﷺ ألا يبارحوا موقعهم مهما تكن نتيجة القتال، فهبطوا الوادي يشاركون إخوانهم بهجة النصر وجمع الغنائم والأسلاب.

وفجأة لوى قائد فرسان قريش خالد بن الوليد عنان فرسه وتبعه مائتا فارس، فنفذوا كالسهام من الفتحة التي بالجبل والتي كان الرماة يحرسون مدخلها، باغت الفرسان من ورائهم، وأعملوا فيهم الطعن والضرب، ورأى المشاة الذين كانوا قد غادروا المعركة هارين رأوا ما أحدثه فرسانهم، فعاد بهم قائدهم أبو سفيان وهكذا وقع المسلمون بين حصار رهيب، ودارت المعركة من جديد، ولكنها كانت في جولتها هذه لحساب قريش التي استغلت هذا التفوق الميداني أبشع استغلال.

فأين كان أسد الله حمزة في هذا الوقت العصيب ال رهيب؟

لقد كان هناك وسط أصحابه ورفاقه، يقاتل ويقاتلون في استبسال مروع وعجيب، لقد قاتل المؤمنين جميعاً يوم أُحد، كما لم يقاتلوا من قبل، ومن بعد، فهذا أبو دجانة، ومصعب، وحنظلة، وعاصم بن ثابت، وعلي، وأبو بكر، وسعد، وأم عمار، وآل سكن، وطلحة، وجميع الذين وقفوا فوق أرض المعركة من أصحاب القرآن قاتلوا قتالاً، نكاد ونحن نقرأ أخباره، نبصرهم ونبصر عنفوانهم ونسمع صياحهم وهتافهم!!

وكان حمزة مع هؤلاء الذين باعوا أرواحهم لله، فقد كان يصول ويقاتل لا تخطئه العين أبداً، فهو معروف بسيماءه، وريش النعام يزين به صدره كعادته كلما خاض العراك والقتال.

فقد كان يغيظه مشهد لواء قريش وهو يخفق في سماء أحد ومن

ثم ركز على حملته، فكان ينفذ إليهم كالصقر، ويرديهم قتيلاً إثر قتل، ولقد رأى عثمان بن أبي طلحة يحمل ذلك اللواء، وينشد شعر المباهاة والخيلاء، فيشق الصفوف إليه، وضربه بسيفه فأرداه، وسقط لواء قريش تحت الأقدام.

ومرق حمزة كالسهم وسط الملحمة، لا تنبو لسيفه ضربة ولا تتخلف المنايا عن عزمه، ومرة أخرى يبصر لواء قريش يرتفع، فيشق الصفوف إلى حامله أرطاة بن عبد شرحبيل، فيرده قتيلاً، ويتمرغ اللواء من جديد في التراب اللزج بدماء المشركين.

ويعود إلى قلب المعركة ليصب المنايا بسيفه المطيع على أعداء الله ورسوله، ويبصر خلال لفطة سريعة، مشرّكاً ينحني فوق راية قريش يريد أن يرفعها من الأرض لتخفق في يده من جديد، فيكون أسرع إليه من أنفاسه المترددة في صدره، وقبل أن يرفع الراية فوق ساريتها يكون سيف حمزة قد كومه بجوارها على الأرض الموحلة بالدماء، حقاً إنه لكما وصفه الرسول القائد: أسد الله وأسد رسوله.

إنه لييلي أصدق البلاء وأروع، ويواجه بأس قريش بفؤاد ملؤه اليقين، وإرادة يشحذها العزم، وسيف لا يعرف الكلال.

خرج وحشي بن حرب كما ذكرنا إلى الحرب، وكان لا يعنيه القتال أو أي شيء بل كان هدفه قتل حمزة لينال بذلك حريته، ويعيش كما يعيش الأحرار في جو بعيد من ذل العبودية التي أثقلت كاهله.

وفي المعركة وعلي أرض القتال كان حمزة كما شهدنا من قبل
يصول ويقاتل ويجندل بالمنايا الماحقات أعداء الله وأعداء رسوله،
وتتكسر قبل أن تبلغه سيوف المشركين الذين كانوا يحاولون
مستميتين أن يصيبوه ولو بجرح يوقفُ نهمه أو كسر يثلم سيفه.

ولكن كان هناك رجل فارع الطول يقبض على حربته المتحفزة،
ويتجنب مهاوي السيوف التي يضرب بها المسلمون، وعيناه على
حمزة تغوصان وراء ووسط الطوفان المتلاحم وتطفوان ولكما
أفلت منهما مرآة توقل الرجل مكاناً عالياً ليتابع بعينه المتلصصتين
فريسته وصيده، يقول واصفاً لحظات من ذلك المشهد:

ووالله إني لأنظر إلى حمزة، ينطلق في عرض الناس، مثل الجمل
الأورق، يهْدُ الناس هدأً، ما يبقي على شيء، فتقدم إليه سباع بن
عبد العزى، فصاح به حمزة هلم إلي يا بن مُقْطَعة البُظور، وضربه
ضربة، فما أخطأ رأسه.

وعندئذ هزرت حربتي حتى إذا رضيتُ منها دفعتها عليه، ف وقعت
في ثُنته - ما تحت صُرتَه - حتى خرجت من بين رجله فأقبل نحوى
فغلب على أمره ووقع وأمهله حتى مات، وأتيتُه فأخذت حربتي،
ثم رجعتُ إلى المعسكر فقعدتُ فيه، إذ لم يكن لي في حاجة، فقد
قتله لاأعتق.

ومضت المعركة إلى نهايتها المقدورة سيوف تهوي، ورماح
تقذف، وصرعى يتساقطون، لا يعرف من سقط ومن بقي، حتى

استنفذ اليوم الرهيب جولتين، الجولة الأولى التي شهدت انتصار المسلمين، والجولة الثانية التي غشيتهم فيها محنة تتحدى كل احتمال، أجل لقد كانت محنة قاسية بكل المقاييس.

لقد انتهت المعركة في جولتها الثانية وقد ابتلي فيها المؤمنين وأصابهم القرح، وامتنى المشركون إبلهم وساقوا خيلهم قافلين إلى مكة، ونزل الرسول القائد ﷺ أرض المعركة وقف بين أصحابه يتهيأ لمعرفة الضحايا والمستشهدين، وكانت متاعب اليوم وأهواله قد أصابت الرسول بإعياء شديد، وكان قد أصيب ﷺ فكسرت ربايعيته، وشج وجهه، وكلمت شفاته.

لكن ذلك كله كان هينا ومحتماً، قبل أن تبدأ قوائم الشهداء تتلى عليه، ثم قبل أن يأخذ طريقه إلى حيث صرع عمه حمزة ليرى أبشع جريمة ترسم على جسده الكريم وحشيتها، وكان الرسول قد أرسل بعض أصحابه ليحصوا له الشهداء، وجاءه الصحابة بالأنباء، وراح كلما سمع اسماً من أصحابه يحتسب عند الله أجرهم.

ثم يذهب الرسول القائد إلى عمه حمزة فرآه وقد مزقوا جسده، وبقروا بطنه، ولقد انتزع المجرم معاوية بن المغيرة بن أبي العاص بن أمية كبده، وانتزع أمعاءه، ولقد مثل هذا المجرم بجميع الصحابة، ولقد قتله الرسول القائد بعد منصرفه من أحد.

وقف الرسول القائد يُغالب في نفسه وقع المشهد وأساها، ثم قال وعيناه على جثمان عمه الحبيب: لن أصاب بمثلك أبداً، وما

وقفتُ موقفًا قط أغيظ إليَّ من موقفي هذا، ثم توالى على خاطره الذكريات، فحمزة لم يكن عم الرسول فحسب، بل هو كذلك تربُّه قضيًا معًا طفولتهما وشبابهما، ثم هو كذلك أخوه في الرضاعة.

توالى الذكريات كلها على خاطر الرسول، ومرت أمام مخيلته في موكب طويل لم تغب ذكرى واحدة لكأنما جاءت تودع صاحبها، وتقدم للرسول العزاء، وكأنما سائل نفسه، أو سائلته الذكريات أحزمة من يصنع به هذا؟

وقال الرسول وعيناه تلفان جسد عمه بأسهما العميق، والكلمات تخرج من تحت أضراسه مغيظة مُنذرة: لولا أن تحزن صفية -أخت حمزة، وعمة الرسول- ولولا أن يكون سنة من بعدى، لتركته حتى يكون في بطون السباع، وحواصل الطير.

ثم تابع الرسول قوله فقال: ولئن أظهرني الله على قريش، في موطن من المواطن لأمثلن بثلاثين رجلًا منهم، ثم صاح بأصحابه: والله، لئن أظفرن الله بهم من الدهر، لنُمثلن بهم مثلة لم يمثلها أحد من العرب.

ولكن الله الذي أكرم حمزة بالشهادة، يكرمه مرة أخرى بأن يجعل من مصرعه فرصة لدرس عظيم يحمي العدالة إلى الأبد، ويجعل الرحمة حتى في العقوبة والقصاص واجبًا وفرضًا.

وهكذا لم يكد الرسول ﷺ يفرغ من إلقاء وعيده السالف

حتى جاء الوحي، وهو في مكانه لم يبرحه بهذه الآيات الكريمة:
﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ
أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنْ ضَلَّ عَنْ سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ
(١٢٥) وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُمْ بِهِ وَلَئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ
لِّلصَّابِرِينَ (١٢٦) وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِاللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا
تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ
مُحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٥ - ١٢٨).

وكان نزول هذه الآيات في هذا الموطن خير تكريم لحمزة
الذي وقع أجره على الله.

عبرة:

يا شباب، هذه صفحة مشرقة من حياة سيد الشهداء حمزة بن
عبد المطلب عليه السلام، يتمثل فيها الطهر والوفاء، والشجاعة والإخاء،
وبذل النفس في سبيل العقيدة، والثبات في مواطن الموت،
والصدق عند لقاء الأعداء، والاستشهاد حيث تطيب الشهادة، فلا
عجب أن لقبه رسول الله ﷺ بأسد الله وأسد رسوله، وقد كان بحق
سيد الشهداء، وعسى أن يتخذ الشباب من هذه السيرة العطرة،
أسوة حسنة يتأسون بها في حياتهما، وأن يستفيئوا بها في شق طريق
إلى ربهما عز وجل ليفوز بالرضا والرضوان، ولكي يكتبوا في سجل
الخالدين.

وفي هذا الموقف أيضًا، حب النبي ﷺ لعمه حمزة، لقد أحبه الحب كله، وأفاض عليه من حنانه ما يسع أصحابه جميعًا لو قُسم عليهم، لا لأنه عمه وكفى، ولا لأنه أخوه في الرضاعة، ولا لأنه صديق عمره، ولكن لأنه كان هو الجسر الذي عبر عليه المسلمون إلى ساحة النصر، وكان هو الدرع الذي وقى الكثير منهم في ساعة الضرب والطعان، وكان هو الذي أعز الإسلام بعد أن أعزه الإسلام، ولهذا صلى عليه الرسول ﷺ سبعين مرة قبل أن يواريه الثرى، فكان يصلي عليه مع كل شهيد يُقدم للصلاة عليه.

يا شباب، ما أعظم ما يصنعه الإيمان بالنفوس المؤهلة، فإنه يخلقها خلقًا جديدًا، ويصوغها صوغًا مجيدًا، ويرفعها عن الدنيا إلى مواطن النبل والشرف ويخلق بها في سماء الروح بعد أن يخلصها من طينتها الأرضية، فالإيمان عزمة من عزمات الرجال الذين توفرت فيهم دواعي العزة في أرقى معانيها فطلبوها ممن لا يملكها سواه فنالوها بجدارة واستحقاق لأنهم سعوا إليها بحق فكانوا بها أحق، وخلد التاريخ ذكرهم وأشاد بسيرهم ومآثرهم وفضلهم العظيم.



استشهد لتبقى راية الإسلام مرفوعة^(١)

لا شك أن أعلى وجوه الفداء وأكثرها خيرًا وأثرًا، هو أن يكون قائد المجاهدين أحرصهم على روح البذل والفداء، حتى يعطي القدوة من نفسه فإن الذين من ورائه يسارعون إلى مواطن التضحية بلا تردد ولا إبطاء، وتاريخ الإسلام العظيم يعرض علينا الكثير من نماذج القادة الذين كانوا أسوة حسنة لجنودهم في الحرص على صدق الجهاد، وروعة الاستشهاد، منهما هذا العملاق العظيم الذي فداء بنفسه، وعائلته المسلمين يوم الجسر لتظل راية الإسلام مرفوعة، فمن يكون هذا المجاهد الفذ، وما هي قصة رؤية زوجته استشهاده وجميع أهل بيته في المنام، وما هو تفسير هذه الرؤية، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، قائد عبقرى ملهم لا يمل الإنسان من ذكر سيرته، فقد كانت حياته كلها كفاحًا ونضالًا، ما كاد يدخل إلى الدوحة الإيمانية، إلا وأعلن الحرب على الشرك وأهله، كان

(١) تاريخ الطبري ** البداية والنهاية ** الكامل في تاريخ ** تاريخ الإسلام ** طبقات ابن سعد ** التاريخ الإسلامي مواقف وعبر .

في حروبه نعم القائد، ونعم الأمير الذي وعد فوفى بعهده مع الله عز وجل، ومع رسوله القائد ﷺ، ومع أمير المؤمنين، وقام بواجبه نحو الإسلام والمسلمين خير قيام، عاش حياته جاهداً في سبيل نصرة الحق، ولقي ربه وهو يدافع عن المسلمين.

نحن على موعد مع العملاق العظيم، والبطل المجاهد الباسل، الذي كان من أكبر أبطال المسلمين وحماتهم، كان لا يحب الابتعاد عن الميدان والجهاد، ناضل نضالاً كريماً طوال حياته حتى لقي ربه شهيداً يوم الجسر، نحن نلتقي بالأمير الشهيد أبو عبيد بن مسعود الثقفي رحمه الله.

لما انتصر الجيش الإسلامي في موقعة النمارق على الجيش الساساني الفارسي، بلغت أنباء الهزيمة المنكرة التي حلت بالفرس مسامع الوزير الأول للدولة الساسانية، والقائد المعروف رستم فاستشاط غضباً، وكبر عليه أن تهزم جيوش الفرس المظفرة أمام هذا القلة القليلة من العرب الحفاة العراة، فاستدعى رستم أشرس قائد ساساني ويدعى بهمن جاذويه ذو الحاجب وعقد له اللواء على ثمانين ألفاً من أشداء المقاتلين، وجعل في جيشه عشرين فيلاً لم تر العين أضخم منها ولا أقوى، سار بهمن بالجيش الساساني العملاق حتى نزل على شاطئ الفرات الشرقي بالقرب من موقع الكوفة.

أما القائد العام للجيش الإسلامية على جبهة العراق أبو عبيد

بن مسعود رضي الله عنه، فقد توجه بجنده وعسكر على ضفة النهر المقابلة لمعسكر الفرس، فكتب بهمن إلى أبي عبيد يقول: إما أن تعبروا إلينا ولا نمد لكم يداً بسوء عند عبوركم، وإما أن نعبر إليكم كذلك، فقال أبو عبيد لمن حوله: لا يكون الفرس أجراً منا على الموت، وعزم على العبور، على الرغم من معارضة كثير من قادة الجيش لما عزم عليه.

وفي الليلة التي سبقت العبور، أفاقت دومة امرأة أبي عبيد من نومها، وقد رأت فيما يراه النائم: أن رجلاً هبط من السماء ومعه إبريق فيه شراب من شراب الجنة، فسقى منه زوجها أبا عبيد ثم أخاه الحكم ثم ابنها جبر، ولقد رأت سبعة من أهل بيته يشربون من هذا الإبريق، فلما قصت رؤياها على أبي عبيد، قال لها: بشراك يا أم جبر، فقد كتبت لي الشهادة أنا وأخي وأولادي الثلاثة، وأربعة من أهل بيتي.

وقف أبي عبيد في الجند، وقال: أيها الناس، إن قتلتم فأمرؤا عليكم أخي الحكم، فإن قتل، فأمرؤا ولدي جبراً، فإن قتل فأمرؤا ولدي وهباً، فإن قتل فأمرؤا أخاه مالكا، فإن قتل، فأمرؤا المثنى بن حارثة.

وفي يوم ٢٣ شعبان ١٣ هجرية التقى الجيشان على أرض المعركة، فوجئ المسلمون في أول القتال بالفيلة التي تتقدم جيش الفرس، وقد ثبت على ظهورها ورقابها أغصان كثيفة من سعف

النخل، وعلقت عليها أجراسٌ كبيرة مجلجلة، فبدا كل فيل منها كأنه جبلٌ مشجّرٌ يمشي على الأرض، فكانت الفيلة لا تقترب من جمع المسلمين حتى يتفرقوا مذعورين فلم يكن لهم عهد بها من قبل، وجفلت خيل المسلمين، وقذفت بفرسانها أرضاً، وولّت الأدبار.

هنالك أيقن أبو عبيد في هذا الظرف العصيب بأنه لا بد له من أن يقضي على الفيلة وفرسانها حتى يحقق لجيشه النصر، ثم صرخ بجنود الإسلام: أن أقبلوا على الفيلة واقطعوا أحزمتها، واقلبوا الرجال من فوقها، واطعنوها في مقاتلها، وها أنا ذا ماض أمامكم.

ترجّل أبي عبيد عن جواده، وترجّل الجند عن جيادهم وتراصوا صفّاً واحداً، واندفعوا يواجهون فيلة الفرس بسيوفهم، فيقطعون أحزمتها، فيسقط من على ظهرها من جنود الفرس أرضاً، فتتلففهم سيوف المسلمين وقوداً لنار جنهم.

ثم تقدم أبو عبيد ﷺ في بطولة نادرة نحو أضخم الفيلة يريد قتله، فقال له بعض أصحابه: إنا نخاف عليك أيها الأمير، فقال: يا معشر المسلمين دعوني، فإنني حامل على هذا المخلوق - يقصد الفيل - لعل الله أن يرزقني الشهادة في سبيله.

اندفع أبو عبيد ﷺ كالإعصار نحو الفيل الأكبر، فقطع حزامه وأردى الفارس الذي على ظهره، لكن الفيل تلقاه بخرطومه فألقاه أرضاً ثم داس فوق جسده، هنا أسرع الحكم يرفع راية المسلمين

أميرًا على الجيش، ثم حمل على الفيل حملة صادقة فأزاحه من فوق جسد أخيه أبي عبيد، فإذا به قد تركه أشلاء ممزقة، فحمله المسلمون.

ثم هجم الحكم على الفيل أكثر يريد قتله، فضربه الفيل بخرطومه فصرعه، فانبرى جبر بن أبي عبيد يرفع راية المسلمين أميرًا على الجيش، وهجم على الفيل، فاستشهد على النحو الذي استشهد عليه أبوه وعمه.

وانتقلت الراية إلى وهب بن أبي عبيد، ولم يلبث أن لحق بأبيه وعمه وأخيه شهيدًا، ثم حمل مالك بن أبي عبيد فآل إلى ما آل إليه أبوه وأخواه وعمه، وهكذا تتابع الشهداء من ثقيف الذين اختارهم أبو عبيد، ثم تقدم المثنى فحمل الراية، وانحاز بالمسلمين منسحبًا بهم إلى الطرف الآخر من الفرات بعد قتال مرير خسر فيها المسلمون ستة آلاف من الشهداء قتلاً وغرقاً في مياه الفرات.

فتحققت فيهم رؤيا الزوجة الصالحة التقية دومة الجندل، وصح تأويله لها، حيث كتبت الشهادة لهم جميعًا.

عبرة:

يا شباب، إن إقدام أبي عبيد عليه السلام وهو القائد على هذه المغامرة الخطيرة دليل على زهده في الدنيا، وحرصه على نيل الشهادة، وهو مطلب عزيز يبعث في روح الجند الحيوية والإقدام، ولكنه

في الحقيقة ليس المطلوب الأول من القائد، بل هو مكلف بالدرجة الأولى بإدارة المعركة حتى يحصل على أكبر النتائج بأقل التضحيات، ولذلك أحجم عدد من جلة الصحابة ﷺ عن قبول القيادة لأنهم عزموا على التعرض للشهادة، فرفضوا قيادة الجيوش حتى يتفرغوا لطلب الشهادة لعدم أهلك الجيش بموت قائده.

يا شباب، إن إصابة المسلمين إنما تتم بقدر الله تعالى ليتبين المؤمنين على درجاتهم في الإيمان قوة وضعفاً بناء على مقدار صبرهم وثباتهم، ولتقدم المسلمون شهداء في سبيل الله جل وعلا، حتى يظهر للعالم عظمة هذا الدين الذي من أجله يُقدم المسلمون هؤلاء الشهداء وهم لا يدافعون فقط عن أرضهم وأموالهم، وإنما يقاتلون من أجل نشر دعوة الإسلام والدفاع عنه.

فالمعارك الإسلامية إذاً لا خسارة فيها مطلقاً، سواء كان النصر والفتح للمسلمين، أو كانت الهزيمة والإصابة، لأنه في حال النصر يتم التمكين للمسلمين في الأرض، وتقوى دولتهم مع ما يحصل عليه المجاهدون من الثواب الأخروي، وفي حال الإصابة فإن ما يقدمه المسلمون من تضحيات وشهداء يعطي الدعوة الإسلامية دفعات إلى الإمام مع ما يحصل عليه المجاهدون من الأجر الأخروي، سواء استشهدوا أو بقوا على قيد الحياة.



مسافر زاده التوكل!!^(١)

التوكل معناه اعتماد القلب على الله عز وجل، واستناده إليه وسكونه إليه بحيث لا يبقى فيه اضطراب من تشويش الأسباب، ولا سكون إليها، بل يخلع السكون إليها من قلبه ويُلْبِسُه السكون إلى مسببها سبحانه وتعالى، والله تعالى يقول بأحلى بيان: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ (الطلاق: ٣).

ضيفنا في هذه السطور، ضيفاً كريماً يضرب لنا المثل والقُدوة في حسن التوكل على الله تعالى، والرضا به سبحانه، مع إخلاص النية، وحسن القصد، وقصته عظة وعبرة لمن أساءوا الظن بربهم، فقلّ توكلهم، وضعف تعلقهم بمسبب الأسباب سبحانه وتعالى، إن قصته لتنادي عليهم، إن الله لا ينسى من توكل عليه، وهل ينسى ربك من ركن إليه واعتمد عليه؟!

نحن على موعد مع، صحابي من صحابة رسول الله ﷺ لا نعرف إلا اسمه، لكن لا نعرف نسبه، ولا أي شيء من سيرته إلا هذا

(١) ذكرها ابن الجوزي في صفة الصفوة بدون سند ** حلية الأولياء ** عيون الحكايات **

الموقف، لكن بهذا الموقف العظيم نعرف صدق إيمانه، ونعرف صديق يقينه، ونعرف عظيم توكله على الله عز وجل، وكيفه أن الله عرفه بذلك، وخلد ذكره في سنة الرسول ﷺ يقتدي به الأجيال، ويتأسى أفراد هذه الأمة به ومدى الحياة، نحن نلتقي بالصحابي الجليل حُدير رضي الله عنه، ونحن هنا نتجول بين صفحات كتب السير والتراجم لنتعاشق بقلوبنا وأرواحنا مع هذا المشهد العظيم، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد الإيماني الرائع كما جاء في كتب السير والتراجم:

بعث النبي ﷺ أحد السرايا -والأرجح هي سرية مؤتة- وكان في هذا الجيش رجل يقال له حُدير، وكانت تلك السنة قد أصابهم سنة من قلة الطعام، فزودهم رسول الله ونسي أن يزود حُديرًا.

فخرج حُديرًا في الجيش صابرًا محتسبًا، وهو في آخر الجيش، يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، نعم الزاد هو يا رب.

نزل جبريل عليه السلام إلى النبي ﷺ، وقال له: إن ربي أرسلني إليك يخبرك أنك زودت أصحابك، ونسيت أن تزود حُديرًا، وهو في آخر الركب يردد: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ويقول: نعم الزاد هو يا رب.

قال: فكلامه من ذلك له نورٌ يوم القيامة ما بين السماء والأرض، فابعث إليه بزاد.

فدعا النبي ﷺ رجلاً، فدفع إليه زاد حدير، وأمره إذا انتهى إليه، ودفع إليه الزاد وحفظ عليه ما يقول، وقل له: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام ورحمة الله، ويخبرك أنه كان نسي أن يزودك، وإن ربي تبارك وتعالى أرسل إلى جبريل يذكرني بك، فذكره جبريل، وأعلمه مكانك.

فانتهى إليه وهو مازال يقول: لا إله إلا الله، والله أكبر، والحمد لله، وسبحان الله، ولا حول ولا قوة إلا بالله، نعم الزاد هو يا رب.

ثم دنا منه وقال له: إن رسول الله ﷺ يقرئك السلام، وقد أرسلني إليك بزاد معي، ويقول: إني إنما نسيتك، فأرسل الله إلى جبريل من السماء يذكرني بك. فقال حدير: فحمد لله وأثنى عليه، وصلى على النبي ﷺ، ثم قال: الحمد لله رب العالمين، ذكرني ربي من فوق سبع سموات، ومن فوق عرشه، ورحم جوعي وضعفي، يا رب كما لم تنس حديرًا، فاجعل حديرًا لا ينساك.

فحفظ الرجل ما قاله حدير، ورجع إلى النبي ﷺ فأخبره بما سمع منه حين أتاه وبما قال حين أخبره، فقال رسول الله ﷺ: أما إنك لو رفعت رأسك إلى السماء لرأيت لكلامه ذلك نورًا ساطعًا ما بين السماء والأرض.

عبرة:

يا شباب، هناك لطف خفي يكتشف المؤمنين من أمامه، ومن

خلفه، وعن يمينه وعن شماله، ومن فوقه ومن تحت قدمه، صاحب اللطف الخفي هو الله رب العالمين، فلقد سلم محمداً ﷺ في الغار، ورحم أهل الكف من القوم الظالمين، وفرج عن الثلاثة الذين انطبقت عليهم الصخرة في الغار، وأنجى إبراهيم من النار، وأنجى موسى من الغرق، ونوحاً من الطوفان، ويوسف من الجُبِّ، وأيوب من المرض.

وحين يتأمل المؤمن اتصاف الله تعالى باللطف فإنه يوقن بدقة علمه سبحانه، وإحاطته بكل شيء صغيراً كان أم كبيراً، فيدعوه ذلك لمراقبته عز وجل، ومحاسبة نفسه على كل قول وفعل.

ولطف الله تعالى بالعبد يحيط به في كل شؤونه وأحيانه، ويسعفه في كل مخاطرة، ويؤمنه من كل مخاوفه، ولولا لطف اللطيف الخبير لامتلات القلوب وحشة وخوفاً ورعباً، ولما طابت بالحياة عيشاً.



أول شهيد في الإسلام^(١)

أرسل الله رسوله بالهدى ودين الحق، وأمره أن ينذر الناس قريبيهم وبعيدهم، فنهض رسول الله ﷺ بأمر ربه يدعو الناس، فاستجاب له عددٌ من عليّة قريش، وغيرهم من حلفائهم من أصحاب القلوب الصافية النقية، وهجروا آلهة أسلافهم، وآمنوا بالله بارئهم وخالقهم، ولكن صناديد قريش أعلنوا الحرب على كل من دخل هذا الدين الجديد.

فمنذ أن بزغ نور الإسلام في غياهب التيه في صحراء مكة، وأخذ يبدد ظلمات الكفر، ويمحو آثار الضلال، انفجرت مشاعر الغضب، وثارت ثائرة الكيد من تلك القلوب الفاجرة الكافرة الجائرة، وتأججت في نفوسهم حمية الجاهلية، وصبوا ألوان العذاب، وصنوف الأذى على أولئك المستضعفين الذين آمنوا بالله ودخلوا في هذا الدين القيم، لقد أبرقت مكة وأرعدت، وزلزلت قريش الأرض من تحت أقدام الصحابة، واستباححت في الحرم الآمن دماءهم وأعراضهم وأموالهم.

(١) مختصر تاريخ دمشق ** أنساب الأشراف ** طبقات ابن سعد ** فتح الباري ** تاج العروس ** الدر المنثور للسيوطي

ثلاثة عشر عامًا زلزلت قريش هؤلاء الأبرار، وأذاقت هؤلاء المؤمنين الأطهار جميع أنواع العذاب، لا شيء إلا أنهم قالوا ربنا الله، ومن هؤلاء الذين تعرضوا للتكيل والبطش عائلة مؤمنة صابرة محتسبة، قدمت هذه العائلة المباركة أول شهيد وشهيدة في الإسلام، فمن يكون أفراد هذه العائلة المباركة، وما هي قصتهم التي سارت تروى لهم في مكارم الأخلاق، هذا ما سنعرفه الآن .

ضيفنا في هذه السطور، رجل من آباء الصحابة الذين حافل تاريخهم بآثار الحسان التي تركوها، إلا أن هذا الأب لم يذكر المؤرخين سيرته بأكثر من بضعة أسطر، غير أن امرأته من أشهر نساء الإسلام، بل من أشهر نساء الدنيا، كما أن ابنها فتى من أعظم فتیان المدرسة النبوية وفرسانها، وله شأنٌ عظيم مسطور في أنصع صفحات التاريخ.

نحن على موعد مع، عملاق مثلاً شروداً في صدق الإيمان، فقد كان ثابت اليقين، راسخ الإيمان، لا يتزعزع ولا يتحول، قطعه المشركين عضواً عضواً، فمات شهيداً، وصعدت روحه إلى بارئها وهو قرير العين، رضي القلب، هانئ النفس بهذه الشهادة، وهذه الرجولة المباركة، رجل سطع كالنجم في كبد السماء، وكان نموذج للمؤمنين الأبرار.

نحن نلتقي برجل ممن سلك سبل الهدى والرشاد، وممن بلغوا ذروة في العطاء والتضحية، فهو أول شهداء الإسلام من الرجال،

وزوجته هي أول شهيدة في الإسلام سمية بنت خياط ﷺ، وابنه الصحابي الباسل العظيم عمار بن ياسر رضي الله عنهما، نحن على موعد مع عميد الأسرة الياسرية المباركة ياسر بن عامر بن مالك رضي الله عنه.

لقد كان ياسر بن عامر ﷺ من قبيلة عنس من اليمن، قدم إلى مكة وأقام فيها، وتزوج سمية بنت خياط ﷺ جارية أبي حذيفة بن المغيرة المخزومي، وكان قد تحالف في الجاهلية مع بني مخزوم.

وحينما أشرقت أم القرى بنور الإسلام، وأضاء نور الإسلام الكون كله، أسلم ياسر وسمية وعمار وأخوه عبد الله بن ياسر، ولما أسلم ياسر أخذته بنو مخزوم فجعلوا يعذبونه ليرجع عن دينه.

لقد قامت كل قبيلة من قبائل قريش تعدو على من أسلم من حلفائها، وتعذبهم، وتذيقهم ألوان الاضطهاد، فثبت هؤلاء الصحابة ثبوت الجبال الراسيات، وصبروا صبراً جميلاً نادراً، فسادوا وأصبحوا قدوة الأمم، وأعيان الأوائل في المكرمات.

نعم يا سادة، كيف للقلوب التي عرفت ربها، وآمنت به أن تعود إلى رجس الكفر؟ أنى للنفوس التي سرت في عروقها ودمائها الزاكية محبة هذا الدين أن تصرف عنه؟ وما زادتهم المحن إلا تمسكاً بالحق واستيقاناً به، وما زادهم البلاء إلا حباً للدين وانتماء إليه، وتسليماً لحكم الملك العلي جل في علاه.

لقد بلغت الأسرة الياسرية يا سادة الجوزاء في مضمار الصبر والتسليم لأمر الله، إذ انبرى بنو مخزوم يتفننون في عذابهم، فكانوا يخرجون بهم إذا حميت الظهيرة، ويلبسونهم دروع الحديد المَحَمَاة بالنار، ليردوهم عن طريق ربهم، فما وهنوا ولا استكانوا، وازدادوا ثباتًا وصبرًا على البلاء والعذاب الذي لا يتحملة بشر، وكان الصادق المصدوق عليه السلام يمرُّ بهم وهم يُعذِّبون، فيأمرهم بالصبر والمصابرة، ويدعو الله عز وجل لهم.

فهذا عثمان بن عفان رضي الله عنه يروى لنا جانبًا من المحنة التي تعرضت له الأسرة الياسرية، ونقل هذه الصورة، فقال: أقبلتُ أنا ورسول الله ﷺ آخذُ بيدي نتماشى في البطحاء، حتى أتينا على أبي عمار وعمار وأمه وهم يعذبون فقال ياسر: الدَّهْرُ هكذا، فقال له رسول الله: اصبر، اللهم اغفر لآل ياسر، وقد فعلت.

وفي رواية أخرى أن النبي ﷺ مر بعمار وأبي عمار وأمه وهم يعذبون بالبطحاء، فقال: اصبروا يا آل ياسر، فإن موعدكم الجنة.

لقد هبت رياح الجنة على قلوبهم، فأطفأت نار العذاب في غمضة عُين، وهنا بدأت نفوسهم تشعر بالراحة والطمأنينة، وبدلاً من المعاناة التي كانوا يجدونها من أثر التعذيب، أصبحوا يستعذبون العذاب في سبيل الله، ويحلمون بالجنة ليلاً ونهاراً.

وجعل المشركون يضاعفون وجبات العذاب لمن آمن بالرسالة المحمدية حتى مات ياسر من شدة التعذيب، ومات زوجته سمية

فكان بذلك أول قتيلين مسلمين نالا وسام الشهادة في الإسلام،
بينما أغرق المشركون في إيذاء ابنهما عمار وتعذيبه حتى نجاه الله
والمؤمنين المستضعفين بالهجرة إلى الحبشة ثم إلى المدينة .

هنا تتحول المحنة الياسرية إلى منحة ربانية، ألم يقل لهم الذي
لا ينطق عن الهوى اصبروا آل ياسر فإن موعدكم الجنة، نعم يا
سادة لقد تحولت هذه المحنة العظيمة في دقائق إلى منحة ربانية
فريدة لقد عرفوا أنهم من أهل الجنة، وهم في حياتنا الدنيا، أفلا
يطيب نفساً من لم يكن بينه وبين الجنة إلا زفرات تخرج من رثتيه
ثم لا تعود، فهناك عطاء بغير حساب، ورزق بلا نفاد، وحياة
بلا موت، هناك الرضا والرضوان، هناك ما لا عين رأت، ولا أذن
سمعت، ولا خطر على قلب بشر.

لقد كان لياسر بن عامر يا سادة وأسرته شأنٌ عظيمٌ في تاريخ
الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، أجل صبر ياسر من أجل
دينه حتى استشهد في سبيل ربه، فكان من مشاهير الدنيا، وكان
ﷺ من الذين تناقل سيرهم الأجيالُ تلو الأجيال، والذكر للإنسان
عمر ثانٍ.

عبرة:

يا شباب، لقد مرت الدعوة الإسلامية في طورها الأول بتجربة
قاسية، فقد امُتحن الصحابة، وابتلوا بلاءً شديداً، كما وقع لبلال
وعمار وياسر وخباب وغيرهم ﷺ أجمعين، وهذا الابتلاء لا بد منه

في الدعوات، حتى تصقل ويقوى عودها، ويزداد رجالها ونساؤها خبرة وتمرسًا في الحياة، فإذا مكن الله لهم في الأرض كانوا على قدر المهمة المناطة بهم، وحتى لا تكون المحنة أقسى مما يتحملها بشر، فعندئذ قد يتسرب اليأس والقنوط إلى النفوس، كان رسول الله ﷺ يخفف من الآم أصحابه، ويدعوهم إلى الصبر، ويذكرهم بما وقع للمؤمنين من قبلهم، ويبشرهم بأن سيكون بعد الضيق فرج بإذن الله، فكانت كلماته بردًا وسلامًا على قلوبهم.

وكان الصالحون يقرؤون قول رب العزة سبحانه: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ (آل عمران ١٦٩). فيشتاقون للقاء إخوانهم في الجنات، فيخوضون الطريق إليها غير مبالين بقلّة العدد، وضعف العدة، وندرة المناصر، فلقد كان لهم مع ربهم أخبار وأسرار، فلم يكتفوا بقيام الليل، وصيام النهار، والعفة عن النظر إلى المحرمات، والاشتغال بالطاعات، بل نظروا إلى أعز ما يملكون إلى أنفسهم التي بهم قوم حياتهم، ثم قدموا في سبيل أن يرضى عنهم العزيز الحكيم، كل ذلك نجد أنهم قدموا في سبيل الله عز وجل.



المجاهد الفدائي^(١)

الأنصار هؤلاء الصحابة الأخيار الذين تذوقوا حلاوة الإيمان، فسرت في نفوسهم محبة الله ورسوله، وتغذوا بلبان الإسلام فعاشوا سعداء في حياتهم، وسينالون بإذن الله حسن الثواب في الدار الآخرة فهم من السابقين الأولين إلى الإسلام، وهم الفائزون بأعلى درجات الإيمان، لقد أسهموا رجالاً ونساء في مجالات الخير جميعها من جهاد، وعلم، وإيثار، وكرم وغير ذلك، وجعلوا نصب أعينهم الفوز بمرضاة الله عز وجل، ومرضاة رسول الله ﷺ.

وها هو تاريخنا الإسلامي المناضل يقدم إلينا نموذجاً فريداً من نماذج المجاهدين الأبرار الأوفياء من أصحاب الإقدام والتضحية والفداء، فدائي جعل نفسه حاجز دون موت الرسول القائد، فمن هو هذا المجاهد البطل، وما قصة تضحيته العجيبة في أحد، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، فدائي جسور، وبطل معلم، وجندي

(١) صحيح البخاري ** صحيح مسلم ** سيرة ابن هشام ** السيرة الحلبية ** عيون الأثر ** تاريخ الإسلام.

ملهم، أحسن من يركب الخيل، أعظم الرماة لا تخطئ له رمية،
جهوري الصوت، يرب العدو حين يصيح، قال عنه النبي ﷺ إن
صوته في المعارك بألف رجل، رجل عاش حياته في جهاد متصل
حتى إنه بلغ الثمانين، وظل يجاهد حتى لقي ربه شهيداً سعيداً في
حصار القسطنطينية.

نحن على موعد مع، رجل كامل الأوصاف، جليل الخصال،
عظيم الشمائل، فاضل كريم، حليماً شهماً، يألف الناس ويألفونه،
عظيم الروح، قليل الكلام، عاقل قد ملأ الإيمان قلبه، كان يصبر
على البلاء، ويشكر على النعماء، فاق عظماء الرجال في الشجاع
والبطولة والصبر والفداء والكرم، نحن نلتقي برجل من أعظم
رجال الأنصار، بل هو من أعظم رجال التاريخ، البطل الذي فداء
الرسول القائد بنفسه في كل المشاهد، إنه الأنصاري زيد بن سهل
الخزرجي المكنى أبو طلحة رضي الله عنه.

لقد شهد أبو طلحة الأنصاري ﷺ مع الرسول القائد ﷺ المعارك
كلها، وأبلى فيها أشرف البلاء وأعزه، لكن أعظم أيام أبي طلحة مع
الرسول القائد صلوات الله وسلامه عليه يوم أحد، فقد كان لأبي
طلحة موقف مشرق في هذا اليوم لا ينساه له التاريخ ما بقي الدهر،
فلقد فر الجيش الإسلامي، ولم يبق في ميدان المعركة إلا رسول
القائد في ثلاثين من أبطال المسلمين منهم أبو طلحة الأنصاري
رضي الله عنه، وإليك خبره في هذا اليوم.

أحب أبو طلحة رسول الله ﷺ حُبًا خالط شغاف قلبه، وجرى مجرى الدم من عُروقه فكان لا يشبع من النظر إليه، ولا يرتوي من الاستماع إلى عذب حديثه، وكان إذا بقي معه جثا بين يديه، وقال له: نفسي لنفسك الفداء، ووجهي لوجهك الوقاء.

فلما كان يوم أحد انهزم المسلمون بعد أن انتصروا على العدو نصرًا ساحقًا، وذلك بسبب مخالفة الرماة أمر النبي ﷺ، واشتغالهم بجمع الغنائم إذ كرّ عليهم خالد بن الوليد من قبل ظهورهم، وكان يومئذ على دين قومه، فأعمل السيف في أعناقهم ففر أكثرهم وبقي جمع قليل يدافعون عن الرسول القائد ﷺ.

ولما انكشف المسلمين عن رسول الله ﷺ، نفذ إليه المشركون من كل جانب، فكسروا رباعيته، وشجوا جبينه، وجرحوا شفته، وأسالوا الدم على وجهه الشريف، حتى إن المرجفين أرجفوا بأن الرسول القائد قد قتل، فازداد المسلمون وهنا على وهن، وأعطوا ظهورهم لأعداء الله.

هنا انتصب أبو طلحة أمام رسول الله ﷺ كالطود الراسخ، وجعل صدره أمام صدر النبي ﷺ يتلقى عنه السهام ويرمي العدو بما معه منها، وهو يقول: فداك نفسي يا رسول الله.

وقد شد أبو طلحة قوسه، وركب عليها سهامه التي لا تخطئ الهدف، وجعل يزود بها عن رسول الله ﷺ، ويرمي جنود المشركين واحدًا إثر واحد، وكان النبي ﷺ يجمع له السهام ويعطيها له ليرمي

العدو بها، وكان ﷺ لا تخطئ له رمية، فهو بطل معلم، وجندي ملهم.

وكان الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه يتناول من خلف أبي طلحة ليرى مواقع سهامه، فكان يردّه خوفًا عليه، ويقول له: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، لا تشرف عليهم فيصيبوك، نحري دون نحرك، وصدري دون صدرك، جعلت فداك.

وكان بعض الرجال من جند المسلمين يمر برسول القائد ﷺ هاربًا ومعه الجعبة من السهام، فينادي عليه النبي ﷺ يا فلان: انثر سهامك بين يدي أبي طلحة، ولا تمض بها هاربًا، وما زال أبو طلحة ينافح عن رسول الله ﷺ طول اليوم حتى كسر ثلاث أقواس، وقتل ما شاء الله أن يقتل من صناديد قريش.

عبرة:

يا شباب، في هذا الخبر بيان من مواقف أبي طلحة في غزوة أحد، وقد تبين لنا مظاهر خبرته الحربية ومهارته في الرمي، وجهود الكبيرة في الدفاع عن النبي ﷺ والإثخان في الكفار بسلاح الرماية، هذا إضافة إلى ما قام به من وقاية النبي ﷺ بنفسه حيث جعل جسده ترسًا له دون سلاح الأعداء، لقد كان أبو طلحة من الذين ثبتوا مع النبي ﷺ وبايعوه على الموت في حال إصابة المسلمين وتفرقهم، وقد كان من الرماة المشهورين، فبذل طاقة كبيرة في الرماية حماية لرسول ﷺ ودفاعًا عنه.

في هذا الخبر وأمثاله نستشف مثلاً من أمثلة العظمة حيث تذوب
الأجسام في مراد العقول السليمة يتمثل بالطموح العالي نحو بلوغ
رضوان الله تعالى والجنة، فيتعرض أولو الألباب لمواطن الشهادة
التي فيها رجاء الوصول السريع لتحقيق ذلك الهدف الغالي.



الأسد في برائه^(١)

لا يعرف أقدار الرجال إلا الرجال، ولا يعرف سمات البطولة وخصائصها إلا الأبطال، وخير من يعرف الرجال ويسبر أغوارهم ويتحقق من سمات الأبطال وأقدارهم في الحرب والسلم: هو رسول الله ﷺ، فقد التف حوله العظماء على اختلاف مراتبهم فأحبوه وأحبهم، وأعطى كل واحد حقه في التبجيل، وأنزله منزلته في الجندية، وأحاطه بعنايته في التربية الخلقية، والتدريب على فنون الحرب ومسالكها، فحاضوا معه جنبًا إلى جنب معارك البطولة والشرف في غزواته ضد الشرك وأهله حتى جاء نصر الله والفتح، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، ومن هؤلاء العظماء، بطل أحد الذي افتداه الرسول الأعظم بنفسه، فمن يكون هذا الرجل العملاق، وما قصته الفريدة يوم أُحد، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، جندي من جنود الرحمن، قائد ملهم، وبطل معلم، يعرف كيف تكون الحرب، وكيف يكون السلام،

(١) تاريخ الإسلام ** الرياض النضرة ** صفة الصفوة ** الطبقات الكبرى ** البداية والنهاية

** طبقات ابن سعد ** سيرة ابن هشام ** تهذيب ابن عساکر.

رجل حازم في أمره كله، إذا رأى الرأي صوابًا أخذ به وعمل بمقتضاه، وإذا اقتنع بأمر لم يتزحزح عنه حتى يقضي الله أمرًا، كان سليم الصدر لا يحمل حقدًا ولا حسدًا لأحد، بلغ منزلة كبرى في قلوب المؤمنين جميعًا.

نحن على موعد مع، عملاق العمالقة، وأسد الأسود، محطم جبروت الطواغيت، البطل الباسل قاهر الفرس، نحن نلتقي بفارس الإسلام، وبطل الأبطال، الأسد في برائه، محطم الإمبراطورية الساسانية العتيدة، فارس الفرسان، وخال النبي ﷺ سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

لسعد ﷺ أمجاد كثيرة يستطيع أن يباهي بها ويفخر، بيد أنه لم يتغنَّ من مزاياه تلك، إلا بشيئين عظيمين، أولهما: أنه أول من رمى بسهم في سبيل الله، وثانيهما: أنه الوحيد الذي افتداه الرسول القائد ﷺ بأبويه، فقال له يوم أُخذ: ارم سعد فذاك أبي وأمي.

ففي يوم بدر خرج المسلمون لقتال المشركين وليس معهم إلا فرسان وسبعون بعيرًا فكان الثلاثة والأربعة يتعاقبون على البعير الواحد وكان سعد وقتها في التاسعة والعشرين من عمره، يقول سعد: فكنت أعظم أصحابي غناء وأرجلهم رجلًا وأرماهم سهامًا فلم أركب خطوة ذاهبًا ولا راجعًا.

وفي يوم بدر كان لسعد وأخيه عُمير موقف مشهود، فقد كان عُمير يومئذ حدثًا لم يجاوز الحُلُم إلا قليلًا، فلما أخذ الرسول ﷺ

يعرض جند المسلمين قبل المعركة كان عُمر أخو سعد يتوارى خوفاً أن يراه الرسول القائد فيرده لصغر سنه، لكن الرسول أبصره ورده، فجعل عُمر يبكي حتى رق له قلب النبي وأجازه، عند ذلك أقبل عليه سعد فرحاً وعقد عليه حمالة سيفه عقدًا لصغره، وانطلق الأخوان يجاهدان في سبيل الله حق الجهاد، فلما انتهت المعركة عاد سعد إلى المدينة وحده أما عُمر فقد خلفه شهيداً على أرض بدر، واحتسبه عند الله.

ولقد أبلى سعد في بدر أحسن البلاء وأصدقه، فكان يقذف بنفسه إلى صفوف الأعداء معرضاً نفسه للموت، لأنه يرى في استشهاد راحة له في الدنيا، قبل أن يكون له في الآخرة نعيم مقيم، لقد كان همه أن يكتب في صحائف الشهداء، ولكن شاء الله أن يكتب له الحياة.

وفي يوم أُحد نادى منادي الرسول القائد: يا خيل الله اركبي، فكان سعد في طليعة المجاهدين، وفي الطريق التقى سعد بأخيه عبد الله بن جحش رضي الله عنهما، فقال لسعد: ألا تأتي نخلو في ناحية ندعو الله بدعاء خيراً، فقال: نعم أخي.

فدعا سعد ربه فقال: يا رب إذا لقينا العدو فلقني رجلاً شديداً حرده فأقاتله ويقاتلني، ثم ارزقني الظفر به حتى أقتله، فأمن عبد الله، ثم دعا عبد الله ربه فقال: اللهم ارزقني رجلاً شديداً بأسه شديداً حرده فأقاتله ويقاتلني ثم يأخذني فيجدع أنفي وأذني فإذا

لقيتك غداً قلت لي: يا عبد الله فيم جدع أنفك وأذنك؟ فأقول: فيك وفي رسولك يا رب فتقول: صدقت، قال سعد: كانت دعوته خيراً من دعوتي فلقد رأيته آخر النهار وإن أنفه وأذنه معلّقان معاً في خيط.

وعند بدأ العراك في أحد أبلى سعد أعظم البلاء فأخذ يفتك في الأعداء ولم يقف أمامه أحد، وحينما عصا الرّماة أمر الرسول القائد ﷺ وتركوا الجبل، استطاع المشركين أن ينقضوا على المسلمين وأن يُحدثوا فيهم مقتلة عظيمة، وأرادوا بعد ذلك قتل الحبيب ﷺ، بعد تطويق المجاهدين.

عند ذلك زلزلت الأقدام وتفرق المسلمون عن الرسول القائد حتى لم يبق إلا في نفر قليل لا يتمون العشرة، وقف سعد موقفاً بطولياً رائعاً هز قلوب الأعداء من الأعماق، فقد ظل يرمي العدو بسهامه فلا تخطئ من رماه بها وهو يدافع عن الرسول القائد ﷺ ويفتديه بروحه، والرسول معجب ببطولته مقدر لتضحيته وفدائه فيدعو له ويقول: ارم فداك أبي وأمي، ارم أيها الغلام الحذور -أي الفتى الشديد القوي-.

ولقد كسرت قوس سعد يومئذ من كثرة ما رمى بها فأعطاه الرسول القائد قوساً أخرى ودعا له فقال: اللهم سدد رميته، وأجب دعوته، فكان لا يخطئ الرمي، وكان مجاب الدعوة.

عبرة:

يا شباب، إن هذا الموقف العظيم لحب سعد لرسول الله ﷺ حيث زال عنه كل ما يجد من الغم والحزن لما رأى النبي ﷺ سالمًا، وتجددت له طاقة عالية وحماس قوي نحو الجهاد، ولقد أسهم ﷺ في رماية الأعداء، بسلاح الرماية الذي كان أمضى في العدو من سلاح المواجهة خصوصًا إذا كان الرمي من رام ماهر كسعد بن أبي وقاص رضي الله عنه.

وإنه لجهد كبير أن يرمي فرد واحد بألف سهم في بعض يوم، ولقد حاز سعد على شرف دعاء النبي ﷺ له بتسديد رميته وإجابة دعوته، فكان بعد ذلك مشهورًا بدقة الإصابة في الرمي وإجابة الدعاء، كما حاز شرف فداء النبي ﷺ إياه بأبيه وأمه ولم ينل أي صحابي آخر هذا الشرف العظيم.



إني أهب نفسي لله^(١)

لقد كان أصحاب الرسول الكريم ﷺ هم الإسلام واقعًا حيًا متحرّكًا يتألّأ في دنيا البشر، وتلك هي أروع صورة للإسلام في تاريخ الزمان، وعلي مدار الليالي والأيام، ومن أراد أن يرى صورة العبودية الحقيقية لله، ويرى الشجاعة والبطولة التي ليس لها مثيل، فليُنظر في حياة هؤلاء الصحابة الكرام، الذين اصطفاهم ربهم وأعز بهم الإسلام، أولئك الذين صابروا وصبروا حتى تمّ أمر الله تعالى واستقام بين البشر، ومن هؤلاء الصفوة المختار رجل مغوار استطاع بشجاعته أن يفتح حصنًا من الحصون الهامة في مصر، فمن يكون هذا العملاق، وما هي قصة هذا الفتح العظيم، هذا ما سنعرّفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، الفارس الذي شق بسيفه صفوف المشركين في مكة حمية لرسول الله ﷺ في صحراء مكة، فكان أول من امتشق حسامًا في الإسلام، إنه الفارس الكميت الذي بعثه

(١) النجوم الزاهرة ** فتوح مصر ** البداية والنهاية ** صور من حياة الصحابة ** قادة فتح الشام ومصر ** تاريخ الطبري.

الفاروق مددًا للمسلمين في مصر، عدّه عليهم بألف فارس، فكان خيراً لهم من آلاف من الأسود، هذا الفدائي الذي ما عرف تاريخ الفداء فتي أشجع منه شجاعة، ولا أجلّ تضحية، ولا أنبل غاية، ولا أكثر بركة على الإسلام منه.

نحن على موعد مع، رجل كان سيفاً مسلولاً على أئمة الكفر والضلال، كان خير من رمى بسهم، وطعن برمح، وخير رجل وهب نفسه وماله في سبيل ربه عز وجل، أو حبسه لصالح المسلمين يوم كريهة، أو في سد خلة أو في مؤنة قتال، ظل ثابتاً على إيمانه وبقينه وجهاده وإحسانه، حتى مات شهيداً مظلوماً يوم موقعة الجمل، نحن نلتقي بالفارس المغوار حواري رسول الله الزبير بن العوام رضي الله عنه.

ظلّ الزبير بن العوام رضي الله عنه سيفاً مسلولاً طوال حياة رسول الله ﷺ، فلم يتخلف عن غزوة غزاها الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه قط، وقد تحمل في سبيل ذلك ما شاء الله أن يتحمل، حتى إنه لم يبق عضو من أعضائه الظاهرة أو المستورة، إلا وقد جرح مع رسول الله ﷺ في المعارك.

ولو رحنا نستقصي صور بطولة الزبير بن العوام بعد وفاة النبي ﷺ لوجدناها لا تقل تألقاً وروعة عما كانت عليه في عهد الرسول القائد ﷺ، وحسبنا من هذه الصور المشرقة الوضاعة، ما كان منه يوم فتح مصر.

لقد قصد الأمير المجاهد عمرو بن العاص رضي الله عنه مصر لفتحها في ثلاثة آلاف وخمسمائة بطل من أبطال الإسلام، فما إن أوغل هناك في قلب مصر حتى وصل أمام حصن بابليون المنيع الذي تحصن فيه الروم لمدة سبعة أشهر، وقد عجز جيش عمرو بن العاص من إحداث أي اختراق للحصن، وكان هذا الحصن الفاتحة الحقيقية لمصر، فلما أبطأ الفتح بعث عمرو بكتاب إلى الفاروق يعلمه بالأمر، ويستمدده بما يفيض عن حاجته من الجند.

عندها قرر الفاروق أن يحل هذه المشكلة، فتلفت الفاروق عمر حوله فلم يجد خيرًا من الزبير بن العوام يبعث به مددًا لجيش المسلمين في مصر، وكان الزبير يومئذ قد عزم على غزو أنطاكية في أرض الشام، فقال له عمر: يا أبا عبد الله، هل لك في ولاية مصر؟ فقال: لا حاجة لي فيها، ولكن أخرج مجاهدًا لله، معاونًا للمسلمين، فإن وجدت عمرًا قد فتحها، لم أعرض لعمله، وقصدت إلى بعض السواحل فرابطت فيها، وإن وجدته في جهاد كنت معه.

فجهز الخليفة الجيش، وكتب إلى عمرو بن العاص، يقول: أما بعد فقد عجبت لإبطائكم عن فتح مصر، وأنتم تقاتلونهم منذ سنين، وما ذاك إلا لما أحدثتم وأحببتم من الدنيا، ما أحب عدوكم وإن الله تعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم، وقد أمددتك بأربعة آلاف رجل، على كل ألف، رجل مقام ألف رجل، وكان هؤلاء الأسود الأربع هم: الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، ومسلمة بن مخلد رضي الله عنهم.

ومن الشام إلى مصر تحرك الجيش الذي بين صفوفه رجل
المهمات الصعبة الزبير بن العوام رضي الله عنه، ولما قدم الزبير
على عمرو، وجدّه ما زال يحاصر حصن بابلين، فركب جواده
وطاف حول أسوار الحصن، ثم حدد لرجاله أماكنهم، وطال حصار
حصن بابلين، وجعل الناس يقولون: إن في الحصن طاعوناً، فقال
الزبير: إنما جئنا للطعن والطاعون، ومع ذلك لم يستطع المسلمون
فتح هذا الحصن الهامة، فقال الزبير رضي الله عنه: إني أهب نفسي
لله، وأرجو أن يفتح الله بذلك على المسلمين.

أعدّ الزبير سلماً وثيقاً متيناً، وأسنده إلى جدار من جدران الحصن
من ناحية سوق الحمام، وأمر رجاله إذا سمعوا تكبيره أن يجيبوه
جميعاً بصوت واحد وأن يلحقوا به، وما هو إلا قليل حتى امتشق
الزبير سيفه، وصعد درجات السلم في طرفة عين، حتى تفاجأ الروم
بفارس عظيم البنيان مفتول العضلات، يتسلق الحصن كأنه مارِدٌ
يشق الأسوار شقاً بيديه، وما هي إلا ثوان معدودة حتى أصبح ذلك
العملاق الإسلامي فوق أعلى نقطة في الحصن، وعند هذه اللحظة
رفع هذا الأسد المغوار سيفه في عنان السماء وصاح بصوت زلزل
الأرض كهزيم الرعد: الله أكبر، الله أكبر.

فانطلقت وراءه آلاف الحناجر تردد الله أكبر، الله أكبر، فزلزل
دويها قلوب الروم، وهرع الجنود من ثكناتهم من هول ذلك المنظر
العجيب، فألقى الزبير بنفسه داخل الحصن، وتتابع جنود المسلمين

على إلقاء أنفسهم وراءه، وأعملوا سيوفهم في رقاب الروم الذين أذهلتهم المفاجأة، وعمد الزبير وأصحابه إلى باب الحصن، ففتحوه، فاقتحمته جموع المسلمين، وانقضوا على عدوهم انقضاض الصاعقة، فهزموه شر هزيمة، وكتب الله النصر لجنده.

عبرة:

يا أيها الأخوة الكرام، بهذه المغامرة الجريئة للزبير بن العوام رضي الله عنه تم الفتح الذي طال انتظاره على يد ليث من ليوث الإسلام، وبطل من أبطاله العظماء، فلقد باع الزبير نفسه رخيصة لله تعالى، وفدى بها إخوانه، فصعد إلى أعلى السور بمفرده، وفي ذلك من الأخطار ما لا يتصور قدره، فإن الاحتمال المتبادر في ذلك أن يكون عرضاً للسهام الأعداء حتى يُردوه قتيلاً، ولكن الله تعالى أراد أن يكون الفتح على يديه فأعمى بصائرهم عنه، وذهلوا بسماع التكبير الذي هو أقوى على الأعداء، وأنكى بهم من القذائف الفتاكة.

ولعلمهم رأوا أنه من المستحيل أن يفادي رجل بنفسه فيصعد وحده فوق السور، فإنهم لم يروا في حياتهم من يُرخص نفسه بهذه الصورة المذهلة، فتوقعوا أن المسلمين استطاعوا أن يصعدوا السور، وأن هذا الذي بدا لهم ما هو إلا طليعة المتسلقين، خصوصاً أن الأرض قد ارتجت من تكبير المسلمين، ففضلوا السلامة، ولاذوا بالفرار.

أيها الإخوة الكرام، ما دام الإنسان مخلوقاً للدار الآخرة

وللسعادة الأبدية، فأثمن شيء في هذه الدنيا أن يرضى الله عنه، وهو الذي سوف تكون في رحابه إلى أبد الأبد، حيث كان الأمر مع الصحابة رضي الله عنهم بنص القرآن الكريم، قال تعالى: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح: ١٨).

يا شباب، نحن إذا درسنا أفعال الصحابة ومواقفهم وصفاتهم وسجاياهم وتضحياتهم لا نقصد من هذه الدراسة مجرد الاطلاع، ولكن نقصد أن نتأسى بهم، وأن نقتدي بهم، وأن نجعلهم مثلاً علينا، فلذلك حينما ندرس تاريخ الصحابة ينبغي أن تبقى هذه الفكرة ماثلة في أذهاننا.



لا حاجة إلى ذكر اسمي^(١)

إن كلاً منا إذا أتى بمأثرة أو قام بعمل يسترعي الانتباه، ويثير في النفوس الإعجاب والإكبار يحب أن يعرف ويمدح ويذكر اسمه ويحفظ، وهذه طبيعة بشرية لا يلام أحدٌ عليها.

ولكن شأن المسلمين الذين تخرجوا في المدرسة النبوية، ونشئوا في أحضان التعاليم الإسلامية وظلالها، كان شأنهم غير هذا، لذلك نشأت وصدرت منهم عجائب من الإخلاص، والابتعاد عن الأنانية، وحب الشهرة والمدح، لا تزال موضع دهشة المؤرخين والمطلعين على تاريخنا المجيد، ومنهم صاحبنا هذا، رجل شديد الأمانة، كبير الورع والزهد، جاءت إليه الدنيا فركلها بقدمه، فمن هذا العملاق العظيم، وما قصة الثروة العظيمة التي جاءت إليه فتركها، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، عملاق كبير، عظيم النفس، كثير الجود، شديد الورع، عظيم الشأن، كانت عظمة نفسه تخطف القلوب والأبصار، زاهد يركل الدنيا وما فيها بقدمه ولا يبالي، كتب لنفسه

(١) تاريخ الطبري ** البداية والنهاية ** الكامل في التاريخ ** سير أعلام النبلاء.

اسمًا في صفحات الخالدين يكتب بماء الذهب، وحروف من نور، رغم أنه لم يكن في ذروة والمكانة من الجيل الرباني، لكنه تلميذ تربى في أعظم مدرسة عرفتها البشرية، مدرسة الرسول الأعظم ﷺ.

نحن على موعد مع، رجل من عظماء الأنصار عُرف بالزهد، والتقوى، والورع، تميز بالشجاعة العظيمة، والبطولة النادرة، له في ساحات الوغى بصمات كبرى خصوصًا في فتوح العراق وفارس، نحن نلتقي بفارس الميدان، الأنصاري المقدام، التقي الورع عامر بن قيس الأنصاري رضي الله عنه.

لما هبط المسلمون المدائن -وهي عاصمة المملكة الساسانية الفارسية- وفتحوا البلد وغنموا غنائم كانت أعظم ثروة في ذلك الزمان، وكان العربُ قوم رعاة الإبل، وسكان بيوت الوبر، أقبل رجلٌ بحق معه إلى قائد الجيش الإسلامي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه فدفعه إليه.

وكان عنده رجال، فاستغربوا من ما كان يحمله هذا العربي الفقير من ثروة وطرف، فقالوا: ما رأينا مثل هذا قط، ما يعدله ما عندنا، ولا يقاربه، فقالوا: هل أخذت منه شيئاً؟

فقال: أما والله لولا الله ما أتيتكم به!

فعرفوا أن للرجل شأنًا، فقالوا: من أنت؟

فقال: لا والله لا أخبركم لتحمدوني، ولا غيركم ليقرظوني،
ولكني أحمد الله، وأرضى بثوابه.

فأتبعوه رجلاً حتى انتهى إلى أصحابه، فسأل عنه، فقالوا هذا
صحاب رسول الله عامر بن قيس الأنصاري رضي الله عنه.

وصدق رب العزة سبحانه: ﴿قُلْ إِنْ تُحِبُّوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ
تُبْذُوهُ يَعْلَمَهُ اللَّهُ﴾ (آل عمران: ٢٩).

عبرة:

يا شباب، لقد رأينا في هذا المشهد العظيم ما كان عليه الصحابة
عليهم السلام من الزهد الصادق في الدنيا، والورع في ما حرام الله من المال،
لقد وقعت هذه الثروة العظيمة في يد عامر عليه السلام فرفض أن يأخذ منها
لنفسه شيئاً، وجاء بها إلى القائد كما هي، وعندما قال له بعض
الرجال: هل أخذت منها شيئاً، قال في منتهى الوضوح والعفة: لولا
الله ما أتيتكم به، وهكذا يا شباب يكون الخوف من الله.

وعندما قالوا من أنت يا رجل، قال: لا أخبركم بذلك لتحمدوني،
ولكن أحمد ربي على ما أعطى لي من ثواب وتقوى وروع ويقين،
والله يا سادة، لقد كان هذا الجيل الرباني هو أعظم نماذج البشر
في الأخلاق، بل والله سموا بهذه الأخلاق وارتفعوا بها إلى صف
الملائكة الأبرار.



أشرس مقاتل في التاريخ^(١)

من خلال الزيارات المتكررة لحدائق التاريخ، رحْتُ أداعِبُ أغصانها، لتجود علينا بأزاهر المعلومات عن هذا البطل المغوار، فعلمت أنه لا بد لي من مصافحة أوراق الورد لأشعر بوخز شوكة، لأحصل على الرائحة الزكية، فلكل بطل من أبطال المسلمين موقف عرف به، وكان مهبط الشرف من حياته، ومعقد الفخر من سيرته التي تصاحبه في حياته، وتروى عنه بعد مماته، وليس هناك أملك للقلب، وأملك للنفس، وآثر في التاريخ من موقف هذا العملاق في فتح مدينة تستر، فمن يكون هذا المجاهد الخارق، وما قصة مبارزاته للأبطال فارس، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، المجاهد العظيم، والفدائي الجليل الذي ضحى بحياته في سبيل الله تعالى، نال الشهادة وهو يجاهد تحت سور مدينة تستر لكي يفتحها، قتل مائة من صناديد فارس في المبارزة المباشرة، أبلى في فتوح فارس أعظم البلاء، كان يبذل

(١) مصنف ابن أبي شيبة ** أسد الغابة في معرفة الصحابة ** الأعلام للزركلي ** تاريخ الإسلام ** البداية والنهاية ** صور من حياة الصحابة *** حياة الصحابة.

غاية جهده في سبيل ربه، لم يعرف في تاريخ الحروب رجل كان أشد على الأعداء منه.

نحن على موعد مع، أشرس مقاتل عرفه التاريخ الإنساني، نعم هو كذلك بدون مبالغة إنه أشرس وأشجع مقاتل في تاريخ، إنه الصحابي الجليل مجزأة بن ثور السدوسي رضي الله عنه، ونحن نعيش سويًا من خلال تلك السطور مع بطولة هذا العملاق العظيم في حصار تستر، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد البطولي الرائع.

ها هم أولاء الأبطال الأمجاد من جند الله ينفضون عنهم غبار القادسية فرحين بما آتاهم الله من نصر، مغتربين بما كتب لإخوانهم الشهداء من أجر، مُتَشَوِّقِينَ إلى معركة أخرى تكون صنو للقادسية في روعتها وجلالها، متربصين أن يأتيهم أمر أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه بموصلة الجهاد في سبيل الله، لاجتثاث العرش الكسروي من جذوره، ولم يطل تشوق الغر الميامين، وتطلعهم وانتظارهم كثيرًا.

فقد جاء أمر أمير المؤمنين الفاروق عمر بن الخطاب إلى والي الكوفة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه بالمضي بعسكره، والالتقاء مع جند المسلمين القادمين من البصرة، وتحرك معًا لمواجهة القائد الفارسي الهرمزان والقضاء على قواته، وفتح مدينة تستر درة التاج الفارسي، ولؤلؤة الإمبراطورية الساسانية، وقد طلب الفاروق من أبي موسى الأشعري أن يصحب معه الفارس الباسل والبطل المغوار مجزأة بن ثور السدوسي رضي الله عنه سيد بني بكر، وأميرهم الأسد الهصور.

صدع أبو موسى الأشعري بأمر أمير المؤمنين، فعبأ جيشه، وجعل على ميسرته مجزأة رضي الله عنه، والبراء بن مالك على ميمنة القوات الإسلامية، فما زالوا يحررون المدن، ويطهرون معاقل الفرس، والهرمزان يفر أمامهم من مكان إلى آخر حتى بلغ مدينة تستر، واحتفى بها، كانت تستر التي انحاز لها الهرمزان أقوى مدن الفرس تحصيناً، بل كانت من أحصن مدن الأرض في ذلك الوقت، وقد كان حول تستر سور كبير عال يحيط بها إحاطة السوار بالمعصم.

يقول المؤرخون عنه: إنه أول وأعظم سور بني على ظهر الأرض، وقد حفر الهرمزان حول السور خندقاً عظيماً يتعذر اجتيازه، وحشد وراءه خيرة جنود فارس.

اجتمعت القوات الإسلامية حول خندق تستر، وظلت القوات الإسلامية ثمانية عشر شهراً لا تستطيع اجتيازه، وخاضت مع جيوش الفرس خلال تلك المدة الطويلة أكثر من ثمانين معركة، وكانت كل معركة من هذه المعارك، تبدأ بالمبارزة بين الأبطال من الفريقين ثم تتحول إلى حرب طاحنة، وقد أبلى مجزأة بن ثور السدوسي في هذه المبارزات بلاء أذهل العقول، وأدهش الفرس والمسلمين على حد سواء.

فقد تمكن من قتل مائة من صناديد الفرس في المبارزة، فأصبح مجرد ذكر اسم مجزأة يثير الرعب في صفوف الفرس، ويبعث

النخوة والعزة في قلوب المسلمين، وقد عرف عند ذلك الذين لم يكونوا قد عرفوه من قبل لم حرص الفاروق على أن يكون هذا البطل المغوار مع القوات الإسلامية، وفي آخر معركة من تلك المعارك الثمانين حمل المسلمون على عدوهم حملة باسلة صادقة فأخلى الفرس لهم الجسور المنصوبة فوق الخندق ولاذوا بالمدينة، وأغلقوا عليهم أبواب حصنها المنيع.

عبرة:

يا شباب، لقد ظهرت بطولة مجزأة رضي الله بالمبارزة واشتهر بين الجميع بشجاعته الفائق، فقد قتل أكثر من مائة من أبطال فارس وهذا دليل على شجاعته التي ليس لها مثيل، ولم يكن مجزأة عليه السلام واحده الذي اشتهر في المبارزة بل كان معه نخبة من أبطال الإسلام مثل البراء بن مالك، وحبيب بن قرة، وربيع بن عامر وغيرهم.

إن إقدام الأعداء على الدفع بهذا العدد الكبير من المبارزين دليل واضح على استماتتهم في تلك المعارك واعتبارها مُقررة لمصير دولتهم، ولكنهم قابلوا رجالاً بحماسهم وتفانيهم جبلاً راسيات تحطم أمامها جميع التيارات الجارفة، وإنه لشرف عظيم ينصر به هؤلاء الأبطال دينهم، ويتوجون به أمتهم، ويرهبون به أعداءهم.

لقد حاول الأعداء بهذه السلسلة من المبارزات أن يستعيدوا شيئاً

من معنويتهم المحطمة وكرامتهم التي مُرغت في التراب، ولكن محاولاتهم باءت بالفشل أمام قوة المسلمين العظيمة ومعنويتهم العالية.

إن استمرار هؤلاء الأبطال في المبارزة مع انتصاراتهم المتكررة دليل على أنهم لم يكونوا يقاتلون ولا يغامرون من أجل الدنيا، فإن شرف الدنيا يكفي في نيّله قليل من هذه التضحيات، ثم يُبقي طالب ذلك على نفسه ليتمتع بذلك الشرف، أما أن يستمر في المغامرات والتضحيات فإنه إنما يريد شرف الآخرة، لأنه كلما ازداد إقدامًا وبدلاً تضاعف حصوله على ذلك الشرف.



شهيد يدخل الجنة بغير حساب^(١)

من المؤمنين رجال أعدمهم الله إعدادًا خاصًا لنصرة دينه والجهاد في سبيله، وجعلهم أهلاً لمغفرته ورحمته، ووعدهم وعدًا حسنًا على لسان نبيه ﷺ، ونحن هنا نقرب في غبطة مع واحد من عمالقة الجيل الرباني الذين حملوا أمانة الدين العظيم فوق أعناقهم، إنه الرجل الذي لا يدخل الجنة فحسب!! بل إنه يدخلها بغير حساب ولا سابقة عذاب، فمن يكون هذا الشهيد الباسل، وما هي قصة دخوله الجنة بغير حساب، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، عملاق له شأنٌ عظيمٌ في تاريخ الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، كان من أشهر مشاهير الدنيا، وبطل من الذين تتناقل سيرهم الأجيال، والذكر للإنسان عمر ثانٍ، ولم لا فقد قال عنه الرسول الأعظم ذات يوم: إنه خير فارس في العرب.

نحن على موعد مع، رجل ممن يدخلون الجنة بغير حساب ولا

(١) البداية والنهاية ** الروض الأنف ** أسد الغابة في معرفة الصحابة ** فتح الباري ** دلائل النبوة للبيهقي ** سير أعلام النبلاء ** بطولات الصحابة.

عذاب، لقد كان من أعلم الناس بحقيقة التوكل فعاش به، وجاهد به حتى لقي ربه شهيداً سعيداً في حروب الردة، نحن نلتقي الآن بالصحابي العملاق عكاشة بن محصن الأسدي رضي الله عنه، فتعالوا بنا لنطوف بين أروقة التاريخ لتعايش بقلوبنا مع ومضة من حياة هذا الجبل الشامخ.

كان عكاشة من السابقين الأولين، وقد أعلنت قريش على جميع من دخل الإسلام حرباً مستعرة، وقد تلقى الأذى من قريش مع من تلقى من المؤمنين، لكنه لم يزد إلا إيماناً وتسليماً، وإصراراً على التمسك بدينه، ولم تفتقر قريش في الحملة على الإسلام، ورجاله لحظة واحدة، فلقد ضيقوا عليهم سبل العيش، وحاولوا أن يفتنهم عن دينهم.

ولما رأى الحبيب المصطفى ﷺ ما ينزل بأصحابه من العذاب والأذى والبلاء أشار عليهم بالهجرة إلى المدينة، فكان عكاشة من بين من هاجر إلى المدينة وما إن وصل إلى هناك حتى استنشق نسيم الانس والراحة والأمان لأول مرة منذ أن أسلم، وعاش في المدينة أجمل وأبهى أيام عمره في رحاب إخوانه من الأنصار الذين بذلوا لإخوانهم المهاجرين المال والنفس والنفيس ابتغاء وجه الله تعالى وطمعاً فيما عنده من الرحمة والرضوان والجنة.

ولقد شهد مع النبي ﷺ غزواته كلها، وأبلى في غزوة بدر بلاءً حسناً وجاهد العدو جهاداً مستميتاً حتى تكسر سيفه، فأعطاه

الرسول ﷺ عودًا من حطب وقال له: قاتل بهذا يا عكاشة، فتناوله بيده ولم يشك لحظة أن فيه سرًا إلهيًا، وبركة نبوية، فهزه بيده وقاتل به أشرس ما يكون القتال فقتل به من المشركين ما شاء الله أن يقتل.

وكانت هذه الروح البطولية الفدائية الفذة من الأسباب التي جعلت الرسول القائد ﷺ يعتز اعتزازًا ملحوظًا بعكاشة، فلقد أخذت بطولة عكاشة بن محصن تتجلى في السرايا التي ندبه لها الرسول القائد، وكانت هذه الروح البطولية محل إعجاب وتقدير من الرسول القائد فأولاه عناية خاصة ودعا له بخير وبشره بالجنة - كما جاء في صحيح البخاري ومسلم - وأنه يدخلها بغير حساب.

وكان ذلك حينما أخبر الرسول ﷺ أصحابه عن ربه عز وجل أن سبعين ألفًا من أمته يدخلون الجنة بغير حساب، وكان عكاشة حاضرًا يسمع، فقال: يا رسول الله، ادعُ الله أن يجعلني منهم، فقال: أنت منهم.

ومضت الأيام وعكاشة في سعادة غامرة لمرافقة النبي ﷺ، وما كان يخطر على باله أنه سيأتي اليوم ولا يرى فيه الحبيب المصطفى ﷺ، ففي الثاني عشر من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة، يلحق الرسول الأعظم ﷺ بالرفيق الأعلى، وبويع الصديق أبو بكر بالخلافة، وشبّت نار فتنة الردة، وكانت فتنة عمياء مدمرة، وارتدت الكثير من القبائل العربية، فأعد الصديق

العدة لقتالهم، وكان عكاشة بن محصن من خيرة المقاتلين يومئذ، فقد خرج مع خالد بن الوليد في الجيش الإسلامي المتوجه إلى قتال طليحة بن خويلد الأسدي، الذي ادعى النبوة ثم أسلم بعد ذلك وحسن إسلامه.

واحتاج الجيش إلى طليحة فدائية تمهد أمامه الطريق، وتجد منفذاً إلى مواقع الأعداء، فتقدم لهذه المهمة الكبيرة الخطيرة بطلان عظيمان، هما عكاشة بن محصن، وثابت بن أرقم رضي الله عنهما، وخاطرا بنفسيهما، إثاراً لما عند الله تعالى على ما عند الناس.

والتقى البطلان بطليحة وأخيه سلمة بن خويلد في معركة قاسية، فلقى كل منهما مصرعه شهيداً في سبيل الله عز وجل، بعد أن أدى كل منهما واجبه على الوجه الأكمل، وقد انتصر جيش المسلمين على الأعداء انتصاراً باهراً بعد أن قدم عكاشة بن محصن، وثابت بن أرقم وأمثالهما ثمن هذا النصر من طاهر الدماء، وصدق الفداء.

عبرة:

يا شباب، من يقرأ سيرة هذا العملاق الهمام يعلم علم اليقين مدى شجاعته وبطولته وزهده في الدنيا، وكان رضي الله لا يشغل باله بشيء من متع هذه الدنيا الفانية، بل كان كل ما يشغله الجنة، فعندما قال الرسول ﷺ لأصحابه: أن سبعين ألفاً من أمتي يدخلون الجنة بغير حساب، كان رد عكاشة سريع يا رسول الله، ادع الله

أن يجعلني منهم، وهكذا يا شباب تكن المسارعة دائماً إلى الخير، ومع إنه ﷺ كان على يقين أنه من أهل الجنة، وأنه يدخلها بغير حساب أو عذاب، ومع ذلك تراه يقدم نفسه رخيصة في سبيل ربها في حروب الردة فداءً لعقيدته، وهكذا يكن سمو الروح.

وهكذا يا شباب يتحفنا تاريخ أبطال المسلمين بالروائع الجهادية في المشرق والمغرب، حيث يرى أولئك الفدائيون العظماء أن سعادتهم الروحية ليست في القلب في نعيم الدنيا، وإنما هي في إغاثة الملهوفين، وإنقاذ المكروبين، وإعزاز الإسلام والمسلمين، وإذلال الأعداء، والتضحية في سبيل رب العالمين.

يا سادة، هذا اللون من البطولة المدفون تحت جدران التاريخ الإسلامي القائم إلى اليوم، وما يقوم للإسلام صرح، ولا ينكشف عنه طغيان، إلا بهذه القوى المذخورة المضغوطة في أفئدة الصديقين والشهداء.

من سر هذا الإلهام؟ ومن مشرق هذا الضياء؟ ومن مبعث هذا الاقتدار؟ إنه محمد ﷺ، إنه هو الذي ربي ذلكم الجيل الفذ، ومن قلبه الكبير أترعت هذه القلوب تفانياً في الله، وإيثاراً لما عنده.



صاحب القيود الحديدية^(١)

إن الله سبحانه وتعالى اقتضت حكمته أنه لا بد أن يمتحن النفوس ويبتليها، فيظهر بالامتحان طبيها من خبيثها، ومن يصلح لموالاته وكرامته ومن لا يصلح، وليمحص النفوس التي تصلح له، ويخلصها بكير الامتحان، كالذهب الذي لا يخلص ولا يصفو من غشه إلا بالامتحان، إذ النفس في الأصل جاهلة ظالمة، وقد حصل لها بالجهل والظلم من الخبث ما يحتاج إلى السبك والتصفية، فإن خرج في هذه الدار وإلا ففي كير جهنم، فإذا هُذِبَ العبد ونُقي أذن له في دخول الجنة.

وكذلك مضت سنة الله من قبل ومن بعد ما صدع أحد بالحق وجهر به ودعا الناس إليه إلا أودى، والعاقبة للمتقين، والنصر للصابرين، ولقد قرأت في صحائف التاريخ فلمحت في ثناياه المشرقة سيرة صحابي بطل بذل الغالي والنفيس من أجل أن يظفر بنعمة الإسلام، فمن يكون، هذا المغوار الباسل، وما هي قصته الرائع، هذا ما سنعرفه الآن.

(١) صحيح البخاري ** سنن أبو داود ** سيرة ابن كثير ** سير أعلام النبلاء ** الطبقات الكبرى ** سيرة ابن هشام ** عيون الأثر .

ضيفنا في هذه السطور، من أصحاب النبي ﷺ الذين أيقنوا بأن الغاية الكبرى التي يجب أن يبذلوا من أجلها النفس والنفس هي مرضاة الله عز وجل فسلكوا الطريق واستعذبوا العذاب في سبيل الله، واسترخصوا المال والوالد وقدموا كل شيء وهم في قمة الرضا والاستبشار بما عند الله.

نحن على موعد مع، رجل من العمالة الصناديد الذين تألقوا في العصر النبوي، ومن الذين عرفوا بالمكانة، والرزانة، والحصافة، والاحترام، نحن نلتقي بالصحابي الجليل أبو جندل العامري العاص بن سُهَيْل بن عمرو رضي الله عنهما، ونحن من خلال تلك السطور نعيش مع قصة صلح الحديبية التي ظهر فيها من آيات النُصرة ما يجعل المؤمنين يعلمون أن النصر مع الصبر، وأن المؤمن عليه أن يثبت على إيمانه ودينه ولو دفع نفسه ثمنًا لذلك، فإن نعمة الإسلام لا توازيها الدنيا بمتاعها وزينتها.

لما كان صلح الحديبية، وقد صالح الرسول القائد ﷺ المشركين على هدنة بين الطرفين، وكان أصعب بند في هذا الاتفاق، أن من أتاه ﷺ من المشركين مسلمًا رده إليهم، ومن أتاهم من المسلمين لم يردوه.

وقد تكلم مبعوث قريش سهيل بن عمرو في هذا بند بالذات، وقال: يا محمد ألا يأتينك منا رجل - وإن كان على دينك - إلا رددته إلينا، وإلا أصبح هذا الصلح باطلاً، فقال المسلمون: يا سبحان الله، كيف يُرد إلى المشركين من جاء مؤمنًا؟!

فبينما هم كذلك إذا أقبل أبو جندل بن سهيل بن عمرو، وكان قد شرح الله صدره للإسلام وهو في مكة بعد الهجرة، فغضب عليه أبوه، وقيده وحبسه في داره لسنوات، ولكن أبا جندل استطاع الهرب، وجاء وكان يرسف في قيوده.

فلما رآه أبوه سهيل بن عمرو ثارت فيه حمية الجاهلية، فقال: يا محمد، هذا أول من أقاضيك عليه أن ترده إلي؟ فقال الرسول القائد: إنا لم نقض الكتاب بعد، فقال سهيل: فوالله إذا لن أصالحك على شيء أبدًا، فقال النبي ﷺ: فأجزه لي، قال: ما أنا بمجيزه لك، قال: بلى، افعل، قال: ما أنا بفاعل، فلم يسع النبي ﷺ إلا أن ينزل على الشرط، وعلى حكم الاتفاق.

هنا صرخ أبو جندل صرخة الصدق والصبر والثبات على الإيمان واليقين، بأعلى صوته قائلاً: يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين ليفتنوني عن ديني، وقد جئت مسلماً، ألا ترون ما قد لقيت؟! وكان قد عذب عذاباً شديداً في الله.

ويشتد الأمر على المسلمين، ولكن الرسول ﷺ يخفف عليهم ويفتح أمامهم أبواب الأمل والرجاء، فيقول: يا أبا جندل، اصبر واحتسب، فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً، إنا قد عقدنا بيننا وبين القوم عهداً، وإنا لا نغدر بهم.

واشتد أمر أبي جندل على الفاروق عمر بن الخطاب أكثر وأكثر، وهو الشديد الصارم فيدنو من أبي جندل بحذر ويمشي

إلى جانبه، ويقول له وكأنه يهمس إليه: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دُمُّ أحدهم كدم كلب، ثم يقرب عمر سيفه من أبي جندل، ويظهره له في حذر، راجياً أن يمد أبو جندل يده، ويأخذ السيف، ويدافع عن نفسه، ولكن أبا جندل لم يفعل، ولعله رأى أن ذلك مخالف لما نصحه به رسول الله ﷺ.

مضى أبو جندل ﷺ مع أبيه، وفي نفسه من الهم ما الله به عليم، ورجع أبو جندل مع أبيه وهو يفكر في أمره ويتأمل، راجياً أن يجعل الله غده القريب خيراً من حاضره، وتطن في أذنه على الدوام كلمة رسول الله ﷺ: سيجعل الله لك فرجاً ومخرجاً.

وبعد قليل استطاع أبو جندل أن ينفلت من أسره، وأن يخرج من مكة مناضلاً في سبيل عقيدته وإيمانه، واستطاع أن يجمع حوله ثلاثمائة مناضل مؤمن فدائي، ممن أسلموا لله ولرسوله ﷺ، وأراد الطغيان الكافر الفاجر أن يحول بينهم وبين إرادتهم وحریتهم.

وخاف هؤلاء أيضاً أن يتجهوا إلى المسلمين في المدينة فلا يقدروا على حمايتهم، ويردوهم نزولاً على شرط العهد، فاتفقوا على أن يقوموا بمحاولات فدائية ضد المصالح الاستراتيجية لقريش. بأن يقطعوا عليهم طرقهم وخطوطهم، وأن يستولوا على ما يستطيعون الاستيلاء عليه من أموالهم وتجارتهم، وأن يفسدوا لهم ما يستطيعون إفساده من محاولاتهم الباغية، ومؤامراتهم الخسيسة ضد الإسلام والمسلمين.

وقد نجح هؤلاء الفدائيون الأبطال فيما أرادوا نجاحًا بعيدًا، حتى افتخر بذلك زعيمهم أبو جندل، فنظم شعرًا يهدد فيه المشركين، وينوه فيه برفاقه الأبطال المناضلين، ويقرر أنه سيبقى مع زملائه، وبأيديهم سيوفهم ورماحهم، يقاومون ويضحون، حتى يكونوا أوفياء لإيمانهم، وحتى يكتب الله لهم مخرجًا يؤيدون به الحق، ويدلون الباطل، لأن المؤمن يطلب واحدة من اثنتين: النصر أو الشهادة، فيكون له عند ربه ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من ألوان النعيم والتكريم، فقال أبو جندل:

أبلغ قریشًا عن أبي جندل

أنا بذی المروة فالساحل

في معشر تخفق إيمانهم

بالبيض فيها والقنا الذابل

يأبون أن نبقي لهم رفقة

من بعد إسلامهم الواصل

أو يجعل الله لهم مخرجًا

والحق لا يغلب بالباطل

فيسلم المرء بإسلامه

أو يقتل المرء ولم يأتل

ثم علم أبو جندل ومن معه أن أبا بصير عتبة بن أسيد رضي الله عنه الفدائي

المجاهد قد سبقهم إلى تنظيم مقاومة مثمرة، وأنه يقيم بالقرب من الساحل، فسارعوا بالذهاب إليه، واشتركوا معه في جميع المجاهدين المناضلين، واتفقوا على تنسيق خططهم، وترتيب أعمالهم، حتى تزيد قوتهم، وكان أبو بصير يؤم القوم في الصلاة من قبل، فلما جاء أبو جندل تأخر أبو بصير عن مكان الإمامة، وقدم إليه أبا جندل، إذ رآه أحق بذلك وأجدر، وتزايد عدد هؤلاء الفدائيين حتى بلغوا أكثر من سبعين وثلاثمائة مجاهد.

شق أمر هؤلاء الفدائيين على قريش فأرسلوا إلى النبي ﷺ يقولون: من خرج منا إليك فأمسكه غير حرج أنت فيه، فإن هؤلاء الركب قد فتحو علينا بابًا لا يصلح إقراره.

أرسل النبي ﷺ كتابه إلى أبي بصير أن لا يعترضوا لأحد، فقدم الكتاب على أبي جندل وأبي بصير، وكان أبو بصير يجود بنفسه، فمات وكتاب رسول الله ﷺ في يده يقرؤه، فدفنه أبو جندل وصلى عليه، وبعد موت أبي بصير عاد أبو جندل ومن معه إلى المدينة ليواصلوا الجهاد مع المؤمنين.

عبرة:

تدبر معي أيها القارئ الكريم، كيف ثبت أبو جندل ومن معه على هذا الدين رغم العوائق والنوازل والمتاعب التي كابدوها من أجل أن يظفروا بنعمة الإسلام التي لا توازيها نعمة في الوجود،

وكان السر في هذا الثبات أن الطريق واضح والغاية جلية، فإن من أسباب الثبات على دين الله: وضوح الغاية والطريق وجعل الهموم همًا واحدًا وهو هم الآخرة.

فالإنسان عدو ما يجهل، أما إذا اتضح الطريق أمامه فمن السهل اليسير أن يسلكه وما إن يخطو فيه خطوات يسيرة حتى يشعر بقيمة السير فيه، لأن فيه النجاة كل النجاة، وهذا يكون حاديًا لثباته على الطريق، وهنا يبدأ المؤمن في توحيد الهموم فيجعل همه همًا واحدًا، ألا وهو هم الآخرة فلا شيء أمامه سوى أن يكمل هذا الطريق بجدارة واقتدار، لأنه الطريق الوحيد الموصل إلى الله عز وجل.

إنه الإيمان بهذا الدين العظيم إذا قر في القلب لا تزيده المحن إلا رسوخًا وتمحيصًا، إن الإيمان الصلب لا تؤثر عليه العواصف العاتية، بل تزيده صلابة وقوة، وتفجر في نفس صاحبه الطاقات الكامنة فينطلق بقوة نحو تعمير الحق، وتدمير الباطل.



الشجاع المقدام^(١)

تاريخ الإسلام تاريخ مجيد حافل بالذكريات العظيمة، والعبر المؤثرة، ومواقف البطولة النادرة، وصحائف الشرف والمروءة التي طمرت في زوايا الإهمال والنسيان، وفي هذا التاريخ من الصحائف المشرقة الوضاعة، التي تستحق الخلود ما ليس في غيره، فهو كبستان ناضر زكي، حافل بالثمار الشهية، والأزاهير الشذية، يجد فيه الناظر ما يغذي الروح، ويشبع النفس، ويملؤ العين والقلب.

هذا التاريخ لا يحتاج إلا إلى عناية الباحثين في الكشف عنه، وحينئذ يؤمن العالم بعظمة الإسلام، وعظمة أبنائه، وبذلك نكون قد أدينا للإسلام ورجاله حقاً لازماً علينا، وهأنذا أكشف عن ناحية من هذه النواحي المشرقة من صحائف البطولة في تاريخنا العظيم، لشاب مجاهد من مجاهدي الأنصار، ضحى في سبيل عقيدته بكل ما يملك، فمن يكون هذا الشاب المجاهد، وما هي قصة المهمة الخطيرة التي كلف بها يوم أحد، هذا ما سنعرفه الآن.

(١) المغازي للواقدي ** السيرة للذهبي ** التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ** الطبقات الكبرى ** تاريخ الطبري.

ضيفنا في هذه السطور، عملاق من عمالقة الجيل الرباني، وبطل من أبطال الأنصار المغاوير، كان مثلاً شروداً في صدق إيمانه، فقد بعثه الرسول الأعظم في مهمة رصد تحرك الجيش الوثني يوم أحد، فقام بمهمة على أحسن ما يكون، بعد أن قاهر فيلقاً من صناديد قريش ببسالة نادرة، وبطولة فائقة.

نحن على موعد مع، فدائي عظيم، وبطل ثابت اليقين، راسخ الإيمان، لا يتزعزع ولا يتحول عن هدفه، ميمون النقية، ألبسه الله حُلل الكمال، وحسن الخصال، فكان من الأماجد الأبطال، ممن عُرفوا بالإقدام في ساحات النزال، إنه البطل الكميت، والباسل المقدم سلمة بن سلامة بن وقش الأنصاري رضي الله عنه.

لقد عاش سلمة عليه السلام حياته في سبيله ربه وعقيدته، ولو رحت أستقصي لكم أخبار بطولات هذا العملاق العظيم، لطال الكلام، وضاق المقام، لذا رأيت أن أعرض لكم قصة واحدة من قصص بطولاته، وهي تخبركم عما عداها، فتعالوا بنا لنعيش سوياً في رحاب هذا المشهد الأسطوري من حياة هذا الأسد المغوار.

أرسل الرسول القائد عليه السلام سلمة بن سلامة عليه السلام ليرصد له تحرك الجيش الوثني حتى يعرف إلى أين يتجه الجيش، وكان ذلك يوم الجمعة السادس من شوال -أي قبل يوم واحد من بدء المعركة-.

أخذ سلمة عليه السلام القوس وخرج لتنفيذ هذه المهمة الخطيرة، حتى إذا كان بأدنى العُرض -وهو مكان يزرع فيه أهل المدينة قريب

من أحد- إذ بطليعة خيل من المشركين فيها عشرة فرسان، فما أن شاهدوا سلمة حتى ركضوا في أثره، فوقف ﷺ لهم على نشز من الحرّة، فراشقهم بالنبل مرة، وبالحجارة مرة حتى انكشفوا عنه.

فلما ولّوا جاء إلى مزرعته بأدنى العرض، فاستخرج سيفاً كان له ودرع حديد كانا دُفنا في ناحية من المزرعة، فخرج بهما يعدو حتى أتى إليهم فأصاب عدة رجال منهم، وفر الباقي حيث معسكر قريش، وعاد سلمة إلى قومه بني عبد الأشهل فخبّر قومه ما لقي منهم، ولما بدأت أحداث المعركة أنقض سلمة على جموع قريش يضرب بهم السيف حيث شاء، وخرج من هذه المعركة بأكثر من سبعين ضربة بسيف، وطعنة برمح، ورمية بسهم.

بهذه الجندية المجهولة الخالصة المخلصة استطاع أولئك الرجال أن يحققوا لأنفسهم العزة في الحياة، ورفيع الدرجات عند الله تعالى، وكما تجردوا في نضالهم عن الشهوات والسيئات، وتطهروا في جهادهم من الأغراض والأمراض، تقبلهم ربهم بقبول حسن، وأثابهم جنة عرضها السموات والأرض.

عبرة:

يا شباب، هذا الموقف يدل على شجاعة الصحابي الجليل سلمة بن سلامة بن وقش رضي الله عنه، وقوة احتماله حيث ثبت أمام عشرة من الفرسان مدججين بالسلاح، ولقد أعطى المشركين بذلك درساً بليغاً في الصبر والثبات، وهذا شاهد على أن الكفار لا

يبدلون في الحرب إلا جزءًا يسيرًا من طاقتهم، لأنهم يهتمون قبل كل شيء بالدفاع عن أنفسهم والاستبقاء على حياتهم، وأن المؤمن الحق يبذل طاقة كبيرة تعادل طاقة عشرة من الأعداء أو أكثر، لم لا وهو يبحث عن الفوز بالرضوان الله، والاستشهاد في سبيله.

يا سادة، من أسباب تفوق جيل الصحابة على من بعدهم وسبقهم إلى الدرجات العالية والمراتب السامية صدق حبهم واتباعهم لرسول الله صل الله عليه وسلم ذلكم الحب الذي لم تعرف الدنيا له نظيرًا ولا مثيلًا، ذلكم الحب الذي تجسد في مواقف رائعة لا يسطرها إلا الصدق ولا يوجد لها في الواقع إلا الإيمان حتى ارتاع العالم وتعجبوا من روعة هذا الحب حب الصحابة للنبي ﷺ حيث رأوا شيئًا لم يعهدوه، ووجدوا حقائق لم يألوها في دين محبة البشر للبشر.

يا سادة، إذا أراد الله سبحانه نصرته دينه على يد أوليائه المؤمنين هياً لهم أسباب النصر وأعمى أعداءهم عن سبل الحذر والوقاية، فلا يفزع عن المسلمين ما يملكه أعداؤهم من وسائل الهجوم والقوة وأسباب الوقاية فهي لا ترد شيئاً من قضاء الله وقدره، ولولا أن هذا الصحابي الجليل نظر إلى قوة أعدائه وقرابهم لمعسكر الجيش الوثني لما أقدم على محاولة القضاء عليهم والثبات أمامهم.



اليهودي الشهيد^(١)

تتفاوت أقدار الرجال بحسب ما يؤدونه من عمل صالح ينفعهم في الدنيا والآخرة ويعم نفعه على أمتهم، وتمتد آثاره إلى عصور غير عصورهم، ويسجل التاريخ لهم هذه الآثار في أنصع صفحاته، فالعمل الصالح هو الفخار لأهله في الدنيا، وهو النجاة لهم في الآخرة: ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه، كما قال الرسول ﷺ .

وقد تتفاوت الأعمال الصالحة بحسب نفعها والإخلاص فيها، فرأس الأمر الإسلام، وعموده الصلاة، وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله، وقد فرض الجهاد على الأنبياء والمرسلين وأتباعهم فجاهدوا في الله قدر طاقتهم، وكان من أتباعهم ربيون يقاتلون في سبيل الله عدو الله لا يبتغون إلا أن تكون كلمة الله هي العليا دائماً على مر الزمان.

وخير هؤلاء المجاهدين أصحاب الرسول القائد ﷺ لأنهم هم خير هذه الأمة، فقد قال فيهم رب العزة سبحانه: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ

(١) المغازي للواقدي ** سيرة ابن هشام بدون سند ** الروض الأنف ** التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ** السيرة لابن كثير.

أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَتُؤْمِنُونَ
بِاللَّهِ ﴿آل عمران: ١١٠﴾. إنهم بحق أمة عقيدة وجهاد، أيد
الله بهم هذا الدين ونصرهم على عدوهم في مواطن كثيرة بنصره
المؤزر، وسجل لهم عنده كتباً في أعلى عليين وأشاد بذكرهم في
العالمين.

والسيرة النبوية المشرفة مليئة بالأحداث والمواقف التي تدل
على صدق الرجال وطلبهم للحق مهما كان، ومن تلك المواقف
موقف لحبر يهودي من علماء اليهود، كان رجلاً غنياً، كثير الأموال
من النخل، كان يعرف رسول الله ﷺ بصفته التي هي عندهم في
التوراة، وبما يجد في علمه، فمن يكن هذا اليهودي الفدائي، وما
هي قصة استشهاد يوم أحد، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، مجاهد بذل روحه لله ربه، رجل عظيم
عاش في الإسلام عدة ساعات فقط، لكنه فاز بالرضوان والشهادة،
رجل عرف الحق فهانت عليه نفسه، وقدمها رخيصة في سبيل
بارئها، رجل رمز إلى كل الباحثين عن الحق التائهم في ظلمات
الجهل والجاهلية، نحن على موعد مع عملاق يهودي قدم نفسه
لدين لربه، ولم يتفلسف إلى عناد قومه عن الحق، فالإسلام لله راغباً،
ولقي ربه شهيداً سعيداً، ولم يكتف بنفسه فقط بل بذل كل ما
يملك من مال، إنه حبر اليهود مخيريق النضري رضي الله عنه.

لقد كان مخيريق رضي الله عنه من الجنود الأخيار، والأئمة الأبرار، لقد

أسلم ﷺ لربه يوم أحد وترك ماله وكل ما يملك في سبيل الله والفوز بالجنة، ومضى إلى ساحة أحد يكفر عن كل سنوات التي صد فيها عن سبيل الله حتى لقي ربه شهيداً سعيداً عند جبل أحد، فتعالوا بنا لنصول ونجول بين أحداث موقعة أحد، لنرى هذا المشهد الختامي الرائع لحياة هذه الحبر الصادق، كما جاء خبره في كتب في السيرة والتراجم.

يقول ابن إسحاق رحمه الله: كان مُخِيرِيق حَبْرًا عَالِمًا، وَرَجُلًا غَنِيًّا كَثِيرَ الْأَمْوَالِ مِنَ النَّخْلِ، وَكَانَ يَعْرِفُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ بِصِفَتِهِ، وَمَا يَجِدُ فِي عِلْمِهِ، وَغَلَبَ عَلَيْهِ إِلْفُ دِينِهِ فَلَمْ يَزَلْ عَلَى ذَلِكَ، حَتَّى إِذَا كَانَ يَوْمٌ أَحَدٌ - وَكَانَ يَوْمٌ أَحَدٌ يَوْمَ السَّبْتِ - فَقَالَ مُخِيرِيقُ:

يَا مَعْشَرَ يَهُودَ، وَاللَّهِ إِنَّكُمْ لَتَعْلَمُونَ أَنَّ نَصْرَ مُحَمَّدٍ عَلَيْكُمْ لِحَقٍّ، قَالُوا: إِنَّ الْيَوْمَ يَوْمُ السَّبْتِ، فَقَالَ لَهُمْ: لَا سَبْتَ لَكُمْ، ثُمَّ أَخَذَ سِلَاحَهُ، فَخَرَجَ حَتَّى أَتَى رَسُولَ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابَهُ بِأَحَدٍ، وَعَهْدَ إِلَى مَنْ وَرَاءَهُ مِنْ قَوْمِهِ وَقَالَ:

أَشْهَدُ إِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدَ رَسُولَ اللَّهِ، ثُمَّ قَالَ: إِنَّ أَنَا قَتَلْتُ هَذَا الْيَوْمَ فَأَمْوَالِي لِمُحَمَّدٍ ﷺ يَصْنَعُ فِيهَا مَا أَرَاهُ اللَّهُ، فَلَمَّا اقْتَتَلَ النَّاسَ، انْقَضَ مُخِيرِيقُ عَلَى الْجَيْشِ الْوُثْنِي، فَتَكَاثَرَ عَلَيْهِ وَحَوْلَهُ مَقَاتِلُ قُرَيْشٍ، وَنَزَلَ مِنْ عَلَى فَرَسِهِ وَرَاحَ يَصُوبُ سَيْفَهُ وَيَسُدُّهُ إِلَى نَحْوِ أَعْدَاءِ اللَّهِ كَنَقْمَةِ الْقَدَرِ، حَتَّى تَنَاوَشَتِ الرَّمَاحُ جَسَدَهُ الطَّاهِرَ حَتَّى خَرَّ صَرِيغًا عَلَى أَرْضِ الْعِزَّةِ وَالْفِدَاءِ.

وقبض رسول الله ﷺ أمواله التي أوصى بها، فكان عامة صدقات رسول الله ﷺ في المدينة منه، وهي سبع حوائط: الميثب والصائفة والدلال وحسنى وبرقة والأعواف ومشربة أم إبراهيم فجعلها النبي ﷺ صدقة.

عبرة:

يا شباب، في هذا الخبر بيان إسلام مخيريق أحد علماء اليهود، وإنفاقه جميع ماله في سبيل الله تعالى، وجهاده مع المسلمين واستشهاده، إنها مواقف عالية من هذا العالم الحبر تتابعت كلها في يوم واحد، فقد كان يعلم أن رسول الله ﷺ هو الرسول الذي بشر به أنبيأؤهم وأمروهم بالإيمان به ونصره إذا ظهر، وقد تيقظ ضميره يوم أحد وتذكر وجوب نصر النبي ﷺ الذي تكالب عليه أهل الباطل، فكان ذلك دافعاً له إلى إعلان إسلامه.

ومثل هذا العالم يكون عادة متردداً بين قناعاته بصدق دعوة الحبيب ﷺ ووجوب اتباعه وبين مداراة قومه الذين كفروا به وناصبوه العدا، ويكون الفكر المهيمن على هذا وأمثاله هو تأجيل البت في الأمر رجاء أن يقتنع علماء قومه بالإسلام، فيدخل معهم ويجمع بين إرضاء ضميره وإرضاء قومه، ولكن نزول ذلك البلاء بالمسلمين، واحتياجهم الشديد للنصرة عجل بموضوع البت في القضية فأعلن مخيريق إسلامه أمام قومه وأمرهم بذلك.

ولقد كان إسلام هذا الرجل إسلام العالم الموقن، فلم يكتف

بمجرد الإسلام وإنما قام بإنفاق جميع أمواله في سبيل الله تعالى،
والمال من أعز المحبوبات لدى الإنسان فالخروج من المال دليل
على قوة الإيمان بهذا الدين الذي خرج من أمواله في سبيله.

ثم لم يكتف بذلك وإنما خرج بنفسه للجهاد في سبيل الله
تعالى، وهذا دليل على ارتفاع مستوى الإيمان عنده حيث حمّله
على بذل نفسه بعد ماله في سبيل الله جل وعلا، ولقد أكرمه الله
تعالى بالشهادة في ذلك اليوم فنال أجرًا عظيمًا في وقت قصير
جدًا.



أسد الله الغالب^(١)

الجهاد في سبيل الله لإعلاء كلمة الله تعالى هو وظيفة الأبطال من خيرة الرجال، لا تفارقهم ولا يفارقونها، يبذلون فيها مَهْجهم خالصة لوجه الله تعالى، لتكون كلمة الذي كفروا السفلى، وكلمة الله هي العليا، وقد علمنا من كتب التاريخ أن هذا البطل المقدم هو الفارس الباسل في ميادين القتال دون منازع، بوازع من دينه، وبحافز من رجولته الكاملة، وبطولته النادرة.

ففي كل مجال من مجالات العظمة كان له فيها أوفر نصيب، وفي كل ميدان من ميادين الشرف والنضال كان له فيها المركز المهيّب، فلو سرحنا بخواطرننا في سيرته العطرة وبطولاته النادرة ما وسعتنا في ذكرها مجلدات، لكن نحن هنا نكتفي بذكر موقف بطولي واحد فقط لهذا العملاق، فمن هو أسد الله الغالب، وما هي قصة بطولته الخالدة، التي ما زالت تذكر حتى اليوم، هذا ما سنعرفه الآن.

(١) مسند أبي يعلى إسناده حسن ** صحيح مسلم شرح النووي ** البداية والنهاية ** السيرة الحلبية ** فقيه الأمة ومرجع الأمة ** المغازي للذهبي.

ضيفنا في هذه السطور، عملاق من أعظم عمالقة تاريخنا العظيم، بطل لا يهاب الموت، مقدم لا يخشى العدو، فارس عظيم اشتهر عنه أنه لم يصارع أحدًا إلا صرعه، ولم يبارز أحدًا إلا قتله، يزحزح الحجر الضخم الذي لا يزحزحه إلا عدة رجال، يحمل الباب الكبير الذي يغيا بقلبه الأشداء، يصيح الصيحة فتتخلع لها قلوب الشجعان، بطل لا يتخلف عن ساحات القتال إذا ما دعا الداعي: حيّ على الجهاد، ما كان يحجم عن بطل من أقرأه يطلب مبارزته في أي وقت من الأوقات.

نحن على موعد مع، بطل حياته تتفجّر عظمة وجلالًا وإعجازًا، فمن عظمة نفسه وعلو همته، تنداح رحابٌ ليس لها أبعاد، تلاًّأ عليها بطولاتٌ وتضحيات، عظامٌ وأمجاد، تكاد تحسبها -لولا صدق التاريخ- أحلامًا وأساطير، بطل عاش حياته في بطولة متواصلة من أجل هذا الدين، لم تنل الدنيا من عظمة نفسه شيئًا، كانت سيرته أرقى من نسيم السحر عذوبة وجمالًا ودلالًا.

نحن نلتقي بطلاً فدايًّا كان جهاده وبلاؤه كفيلاً بأن يبوّئه مكانه العالي بين الأخيار الصادقين، رجل أخذ نفسه بعزائم الأمور، وناط قدرته، وطاقته بالمستحيل، ونذر للإسلام حياة استقلالها، فراح يُحملها أعباء مائة حياة، إنه حيدر بني هاشم المغوار، أسطورة الشجاعة والحب والفداء والتضحية والبذل علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

في السنة الثالثة من الهجرة حشدت قريش جنودها تبغي الأخذ بثأرها من هزيمة بدر، وخرج المسلمون للقائهم عند جبل أحد، والتقى الجمعان على أمر قد قدر، وفي بداية القتال برز من صفوف الجيش الوثني حامل لواء المشركين طلحة بن أبي طلحة العبدري، وصاح في المسلمين: من يبارز؟ فبرز له أسد الله الغالب عليه السلام فالتقيا بين الصفيين فبدره علي فضربه على رأسه حتى فلق هامته فوقع، وهو كبش الكتيبة، فسَرَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك وأظهر التكبير، وكبر المسلمون وشدوا على كتائب المشركين يضربونهم حتى تفرقت صفوفهم.

ولقد انبرى أسد الله الغالب علي بن أبي طالب يقاتل ميمنة وميسرة صناديد قريش حتى هزمهم وفرق جمعهم، وقتل منهم وحده عددًا كبيرًا، وشرّد من خلفهم.

ولكن المسلمين قد هُزموا في نهاية المعركة بسبب ترك الرماة أماكنهم فوق الجبل، وكان عددهم خمسين رامياً أمرهم الرسول القائد صلى الله عليه وسلم بلزوم أماكنهم، وقال لهم:

احموا لنا ظهورنا، فإن نخاف أن نؤتى من ورائنا، والزموا مكانكم لا تبرحوا منه، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلا تفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نُقتل فلا تعينونا، ولا تدفعوا عنا، وارشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل، اللهم إني أشهدك عليهم.

هكذا يا سادة، كان أمر الرسول القائد ﷺ للرماة واضحاً وقاطعاً ألا يتركوا الجبال حتى لو تم إبادة الجيش الإسلامي، ولكن بسبب طمع بعض الرماة، كانت مخالفة أمر الرسول القائد سبباً في مأساة يوم أحد.

في هذا الوقت كان أسد الله الغالب يصول ويجول ويملاً أرض المعركة ببطولته وضحاياه، ويسقط اللواء من يد مصعب بن عمير ﷺ بعد أن أبدى بطولة خارقة في الدفاع عن رسول الله، فيتناوله على بأمر من الرسول القائد، ويضرب بسيفه يمناً ويسرة.

ولا يكاد علي ﷺ يحمل اللواء ويشرب في يده عالياً، عزيزاً خفاً حتى يبصره حامل لواء المشركين الجديد طلحة بن عثمان - وهو أحد فرسان العرب الأبطال - فيصيح: ألا من مبارز؟

ولا يجيبه من المسلمين أحد، فقد كانوا في شغل عنه بالمعركة التي بلغت أقصى عنفوانها، وشدتها، وضراوتها، وتكسر السيوف على السيوف، والنصال على النصال، ويرسل حامل لواء المشركين نعيقه مرة أخرى: أستم تزعمون أن قتلاكم في الجنة، وقتلانا في النار؟ ألا يخرج إلي أحدكم؟

ولم يُطق علي صبراً، فصاح به: أنا قادم إليك يا أبا سعد، فابرز يا عدو الله إلي، فالتقيا بين الصفوف الملتحمة، وتبارزا ساعة من الزمن وجلت فيها القلوب وغارت فيها العيون، فاختلفا بضربتين، ثم ضربه علي ضربة واحدة فسقط على الأرض يعالج مصرعه

ومنيته، وهم علي أن يضربه الثانية ليجهر عليه، فتكشفت عورته أمامه، فاستحيا وغض بصره وانصرف عنه، كما هو شأنه دائماً.

فكبر رسول الله، وقال لعلي بعض أصحابه: أفلا أجهزت عليه؟ فقال: إن ابن عمي ناشدني الرحم حين انكشفت عورته فاستحييت منه.

ولقد كان علي رضي الله عنه بجوار الرسول القائد، يحميه من ضربات العدو، فأحياناً يكون عن يمينه، وأحياناً يكون عن شماله، وأحياناً يكون خلفه حسب مقتضيات الدفاع.

وقد كان الرسول القائد ﷺ يقاتل القوم حتى أدموا وجهه الشريف، وأصابوه بجراح عديدة، ووقع في حفرة فأنقذه علي منها. ولما أشيع أن الرسول القائد ﷺ قتل، وافتقده علي، رأى أن الحياة لا خير فيها بعده، فكسر جفن سيفه، وحمل على القوم حتى أفرجوا له، فإذا برسول الله ﷺ بينهم يقاتلهم، فثبت معه ودافع عنه دفاع الأبطال، وقد أصابته ست عشرة ضربة في ذلك الوقت.

ولنترك هنا الحديث لأسد الغالب يحكي لنا أحد بطولته يوم أحد، يقول علي رضي الله عنه عن نفسه يوم أحد: لقد رأيته يومئذ وإني أذب القوم في ناحية، وإن أبا دجانة لفي ناحية يقاتل طائفة منهم، وإن سعد بن أبي وقاص يذب طائفة منهم، حتى فرج الله ذلك كله، ولقد رأيته وانفردت منهم يومئذ فرقة خشناء فيها عكرمة بن أبي

جهل، فدخلت وسطها بالسيف فضربت به واشتملوا على حتى أفضيت إلى آخرهم، ثم كررت فيهم الثانية حتى رجعت من حيث جئت، ولكن الأجل استأخر ويقضي الله أمراً كان مفعولاً.

وبعد انتهاء القتال تقدمت النساء المسلمات يداوين الجرحى، ورأى رسول الله ﷺ علياً وسط مجموعة منهن تكاد تعييهن جراحه الكثيرة، حتى قلن لرسول الله ﷺ حين رأينه: يا رسول الله، لا نعالج منه جرحاً، إلا انفتق جرح، فاقرب الرسول ﷺ من جسده المشخن بالجراح، وراح يسهم في تضميده ويقول: إن رجلاً لقي هذا كله في سبيل الله، لقد أبلى وأعذر.

وبعد انسحاب الجيش الوثني من أرض القتال أرسل الرسول القائد ﷺ علي بن أبي طالب رضي الله عنه بعد انتهاء الغزوة مباشرة، وذلك لمعرفة اتجاه العدو، فقال: أخرج في آثار القوم وانظر ماذا يصنعون وما يريدون، فإن كانوا قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة، والذي نفسي بيده إن أرادوها لأسيرن إليهم حتى أناجزهم. قال علي: فخرجت في أثرهم أنظر ماذا يصنعون، فرأيتهم قد جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فعرفت أنهم متوجهون إلى مكة، ثم أخبرت رسول الله بذلك، فسر به، وكفى الله المؤمنين القتال.

عبرة:

يا شباب، موقف علي بن أبي طالب رضي الله عنه الذي قتل طلحة بن

أبي طلحة العبدري مبارزة وكان مشهورًا بالشجاعة وهو من أشهر فرسان العرب جرّاءة وقوة وجسارة، وهو كبش الكتيبة الذي جاء في رؤيا النبي ﷺ السابقة للمعركة، وكان قتله فاتحة خير على المسلمين حيث فرحوا بذلك وهجموا على أعدائهم.

في هذه الأخبار تبين لنا الجهد الكبير الذي بذله أسد الله الغالب علي بن أبي طالب في الدفاع البطولي عن الرسول القائد ووقايته من سلاح الأعداء وبذل نفسه من أجل ذلك حتى أثخنه الجراح، ولقد رأينا أيضًا مدى شجاعة أسد الله الغالب عندما تصدى وحده لكتيبة من كتائب المشركين بقيادة عكرمة فلم يستطيعوا إصابة الرسول القائد ﷺ.

يا سادة، لقد أرسل الرسول القائد ﷺ عليًا في استكشاف أمر المشركين، ثقة فيه واعتمادًا عليه في جلية أمرهم وتفقد أحوالهم، ولعمري إنه الشجاع الذي لا يُهزم، الرجل الذي يُقدم ولا يحجم، والخبير المعلم الذي يعرف ظواهر الأمور وبواطنها، هو جيش وحده، لا يفري فريه أحد، ولا يضرب ضربته فارس مغوار.

يا شباب، إن ما فعله أسد الله الغالب يوم أحد يعتبر تضحية غالية، إذ كانت جميع السيوف تهوي إليه، ولكنه ﷺ لم يبال بذلك فحسبه أن يسلم رسول الله نبي الأمة، وقائد الدعوة، لقد كان علي بذلك الفداء وتلك التضحية مع رابطة الجأش يمثل جيشًا يحمي به ظهر الرسول القائد من غدر المشركين حتى بلغ مأمنه.

لمحات من حياة الصحابييات

الفدائية الصغيرة ^(١)

كانت الهجرة، وهي حادث هين في ذاته، رجلاً خرجاً من مكة إلى يثرب، يخرج مثلها كثير كل يوم، من كل بلد، من يوم خلق الله الدنيا حتى يأذن في خرابها، ولكنه عظيم في نتائجه، لأنه لم يكن سفرًا من بلد إلى بلد، بل انتقال الدعوة من طور إلى طور، من طور الأسرار والضعف والاضطهاد، إلى طور الإعلان والقوة والدولة، طور الظفر والعلاء.

وما كان لمحمد ﷺ موكب تخفق فيه على رأسه الرايات، وتقرع أمامه الطبول، وتمشي وراءه الجند، وما كان في موكبه إلا هو وصاحبه والدليل والخادم، ولكن كانت تمشي فيه الملائكة، وتحف به الرحمة، ويهرب من أمامه الماضي الأسود للبشر، ويتبعه المستقبل المنير للبشرية.

موكب ما مشى من مكة إلى يثرب فقط، بل إلى دمشق والبصرة والكوفة، ثم إلى بغداد والقاهرة، ثم إلى قرطبة وسمرقند ودلهي

(١) سنن الترمذي ** زاد المعاد في سيرة خير العباد ** تاريخ الإسلام ** الاستيعاب في معرفة الأصحاب ** علي طريق الهجرة.

والقسطنطينية، ثم إلى الدنيا العريضة التي حمل إليها أتباع محمد رسول الله ﷺ الخير والهدى، حين حملوا إليها الإسلام، ثم مشى في الزمان إلى العصور الآتيات إلى ساحات الخلود.

موكب كان فيه رجلا ن وامرأة، امرأة نابت عن النساء حين مثلتهن في هذا الموقف العظيم، امرأة لم تقطع معهما الطريق كله، ولكن أمدتهما بالطعام والزاد، وكذلك تصنع المرأة، إذا لم تصل مع الرجل إلى كل ميدان وصل إليه، فإن لها الفضل في إمداده وعونه، فلولا المرأة ما استطاع الرجال خوض هذا الغمرات.

ضيفتنا في هذه السطور، فتاة رضعت لبان الصدق من أبيها، وتغذت على مائدة الوحي، إنها زهرة نبتت في شجرة مباركة، رسخت جذورها في الأرض، وارتفعت أغصانها في السماء حتى تعانق الجوزاء، نحن نلتقي الآن بأُم المؤمنين عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما، ونحن في هذه السطور نعيش سوياً في رحاب الهجرة النبوية المباركة، ونعيش هنا مع دور عائشة الرائع يوم الهجرة المبارك، فتعالوا بنا لنعيش بأرواحنا وقلوبنا مع هذا المشهد العظيم لأُم المؤمنين الصديقة بنت الصديق عائشة بنت أبي بكر ﷺ .

ما عملته عائشة بنت أبي بكر ﷺ حين أراد الرسول القائد أن يهاجر إلى مدينة منقبة عظيمة، ستظل تشع بالنور، كلما تحدثت عن أعظم حدث في تاريخ البشرية يوم الهجرة المبارك.

لقد شاركت أسماء دورها الخالد في الهجرة أختها عائشة رضي الله عنهما، وكانت لا تزال طفلة دون العاشرة، فخاضت بذلك تجربة أكبر من سنّها الصغيرة، مما أكسبها نضوجاً فكرياً ونفسياً مبكراً، أتاح لها القيام بأدوار كبرى في مستقبل حياتها.

ولعل هذا ما حدا بأبيها الصديق إلى الإذن لها، وهي غر لم تشب بعد بصحبة أختها في تلك المسيرة المباركة، وليس يعجم عود الإنسان ويهذب طبعه ويجعله أصلاً لعظائم الأمور خير من الجهاد في سبيل الله، ولقد كان اقتحام ابنتي أبي بكر ظلمات البيداء حاملتين لأبيهما وصاحبه الرسول القائد حاجتهما من الماء والطعام غير مباليتين بما قد يصيبهما من أذى أي أذى، وبلاء أي بلاء، وجهاداً أجّل جهاد.

فلا غرابة أن تكون هذه الخبرة عنصراً أصيلاً من مكونات شخصية عائشة، وأن تثمر أسمى القيم والمبادئ، وفي مقدمتها قوة الإيمان والإخلاص والتعاون والشجاعة والتضحية، فترشحها بذلك لتكون من أمهات المؤمنين، ومن روايات حديث رسول الله، ومن أجمع الشخصيات النسائية في تاريخ الإسلام، إنها بنت الصديق العظيم، والنموذج الإنساني الكامل في الوفاء للصديق، والتضحية في سبيل الانتصار لدعوته ونشرها.

لقد كان صاحب النبي ﷺ قبل البعثة، فلما دعاه إلى الإسلام لم يتردد لحظة وكان أول من آمن من خارج بيت النبوة، وظل ﷺ

رفيق رحلة العمر، ورسالة الحق، ومعتزك الجهاد، لأزم الرسول القائد في كل الغزوات، وعاون بهجده وماله، ولما حث النبي ﷺ المسلمين على الصدقة لإعداد الجيش الإسلامي وتمويله في غزوة تبوك إذ كان الجهاد اختياراً وتطوعاً لا إلزاماً كان أبو بكر أول المتصدقين، جاد بماله كله في سبيل الله، فقال له الرسول القائد: ما أبقيت لأهلك يا أبا بكر؟ قال: أبقيت لهم الله ورسوله، وفي فضل الصديق يقول رسول الله ﷺ: ما نفعني مال أحد قط مثل ما نفعني مال أبي بكر.

ولقد غرست أصول شخصية الصديق في عائشة مثلما غرست في سائر أبنائه، قوة عقيدة، وسداد رأي، وثباتاً على الحق، وإخلاصاً للإسلام، وجهاداً في سبيله.

ولقد ارتضاها رسول الله ﷺ زوجة له بعد أن ودّع الطاهرة خديجة بنت خويلد ﷺ إلى الرفيق الأعلى، وأراد أن تزيد الأواصر بينه وبين السابقين إلى الإسلام مكانة وقربى، فخطبها من أبيها، وهكذا كانت مسيرتها ليالي الهجرة مقدمة كمرحلة حياتها مع رسول الله ﷺ ودعوته الكبرى، وكان تعاونها معه في رحلة العمر والجهاد امتداداً لهذا التعاون النبيل الذي قامت به تلك الليالي، مشاركة أبيها وأخويها عبد الله وأسماء ومولاهم عامر بن فهيرة ﷺ أجمعين.

عبرة:

يا أيتها الأخوات المؤمنات، في حياتنا اليوم نرى الضعف والهوان والحاجة بسبب بعدنا عن القرآن الكريم، ولذلك ننادي بضرورة العودة إلى القرآن لنعلوا به كما علا الجيل الرباني، إن موقف المسلمين اليوم مع القرآن يشبه جماعة أحاط بهم الظلام من كل جانب، وهم وسطه يتخبطون، ويبتعدون عن الطريق السليم، فتراهم تارة يقعون في حفرة، وتارة يصطدمون بحجر، وتارة يصطدم بعضهم ببعض.

ولن يتخلصوا من وضعهم إلا بإضاءة المكان، إنهم في أمس الحاجة إلى أنوار شريعة الله التي لن تصل إليهم إلا بالضغط على زر التشغيل المتمثل في طاعة الله تعالى، واتباع منهجه القويم.

لا بد أن نرجع ابتداء إلى النبع الخالص الذي استمد منه سلفنا الأول حياتهم، لا بد أن نرجع إلى النبع المضمون الصافي، نرجع إليه ونستمد منه تصورنا لحقيقة الوجود كله، ومن ثم نستمد تصورنا وأخلاقنا، ومناهجنا للحكم، والسياسية، والاقتصاد، وكل مقومات الحياة، ولا بد أن نرجع -حين نرجع- بشعور التلقي للتنفيذ والعمل، لا بشعور الدراسة والثقافة والمتاع، نرجع إليه لنعرف ماذا يطلب منا أن نكون، لنكون.



الفتاة المجاهدة (١)

قصة حياة الزهراء فاطمة بنت النبي ﷺ فصلٌ مشرقٌ من سيرة الرسول العظيم ﷺ، وصورة رائعة من صور حياة بيت النبوة الكريم، ومثلٌ رائع لما كان عليه الصحابة الكرام، وها هي أجواء مكة قد تعطرت بشذا زهرة فواحة قرشية جديدة، فاح أريجها من بيت محمد بن عبد الله ﷺ وزوجته الطاهرة خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، ورغم إنها بنت الرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه لم يمنعها ذلك من التضحية والجهد في سبيل الله، فتعالوا بنا لنرى موقفها الرائع يوم أحد.

لقد كان وجود فاطمة الزهراء ﷺ في قلب المعركة بين الكفر والإيمان منذ طفولتها، وهو ما جعلها تحيا حياة جادة فلقد نشأت في رحاب الإيمان، وكانت أول مشاركة لها بعد زواجها في الجهاد غزوة أحد، بعدما تأكد لها عزم قريش على الانتقام من النبي ﷺ، واستئصال شأفة المسلمين.

(١) دلائل النبوة للبيهقي ** أسد الغابة في معرفة الصحابة ** طبقات ابن سعد ** السيرة لابن كثير ** السيرة للذهبي.

لقد خرج التحالف الوثني لغزو المدينة المنورة، وفي صدورهم حقد دفين على ما أصابهم في يوم بدر، فلما عرف الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه بتحرك التحالف الوثني خرج بجيشه إلى جبل أُحُد لمواجهة المشركين عنده، وخرج مع الجيش الإسلامي عدد من النساء ليس قليلاً لمشاركة الرجال في الجهاد، وكانت من بينهم فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

وبدأت المعركة بين الحق والباطل بين النور والظلام، وشاركت الابنة البارة رضوان الله عليها بقية النسوة المسلمات في تضييد الجراح، وإعداد الأدوية، ونقل الشهداء إلى الجبهات الخلفية، وتهئية الأطعمة والأشربة للمجاهدين.

ولما سقط الرسول القائد ﷺ في حفرة المشركين وقد أصيب في وجهه وأخذت الدماء تسيل من وجهه الشريف، سارعت إليه فاطمة واعتنقته، وجعلت تمسح الدماء عن وجهه ﷺ، ورسول الله ﷺ يقول: اشتد غضب الله على قوم أدموا وجه رسول الله.

وعن أبي حازم أنه سمع سهل بن سعد يسأل عن جرح رسول الله ﷺ يوم أُحُد فقال: جرح وجه رسول الله ﷺ، وكسرت رباعيته، وهشمت البيضة على رأسه، فكانت فاطمة بنت رسول الله ﷺ تغسل الدم، وكان علي بن أبي طالب يسكب عليه بالمجن فلما رأت فاطمة أن الماء لا يزيده إلا كثرة، أخذت قطعة حصير فأحرقته حتى صار رماداً، ثم ألصقته بالجرح فاستمسك الدم.

وانتهت المعركة بكارثة للمسلمين بقتل سبعين رجلاً من خيرة الصحابة رضي الله عنه، لكن المشركين فشلوا في مخططاتهم بغزو المدينة، وعادوا والحسرة تملأ قلوبهم فهم لم يستطيعوا رغم النصر من أسر رجل واحد من المسلمين.

عبرة:

يا أيتها الأخوات المؤمنات، هكذا نجد الزهراء عليها السلام كانت دائماً في موقع الأحداث مجاهدة في سبيل الإسلام وفي إخماد نار الكفر الآثمة، وظلت تتعايش مع حياة الجهاد التي كان النبي صلى الله عليه وآله وأصحابه يعيشونها في كل لحظة من حياتهم، فقد كانت حياتهم ما بين عبادة وطلب علم، ودعوة إلى الله، وجهاد في سبيله.

يا أيتها الأخت الكريمة، لا شك أن دراسة سيرة النبي صلى الله عليه وآله وسيرة أهله الأخيار عمل صالح تزكو به النفوس المؤمنة، وتشرح به الصدور المستنيرة، وتطمئن به القلوب المفعمة بالإيمان، فهي السيرة العطرة، كلما كررت تحلو لقارئها وسامعها، فيجب عليك أيتها الأخت المؤمنة الإكثار من قراءة سيرتهم مع التدبر في مناحيها المشرقة، والتأمل في أحداثها المتلاحقة، والنظر الدؤوب في أقوالهم وأفعالهم وأحوالهم، وأخذ العبر من كل صغيرة وكبيرة ذكرت عنهم.

يا أيتها الأخت المؤمنة، على المؤمن أن يأخذ على نفسه عهداً

أن يسير على نهجهم، ويستقيم على طريقهم، ويقتدي بهم في
عاداتهم وعباداتهم، فهم أئمة الهدى وينبوع الفضائل، قد شرفهم
الله في الدارين بانتسابهم إلى خير خلقه أجمعين.



الأم المجاهدة^(١)

إن المجاهد في سبيل الله عز وجل يتحصل له بجهاده تزكية كريمة لنفسه، تدخله على ربه، وتدنيه منه، وتقربه إليه، وتصيره محبوباً له، فيمنحه الله عز وجل كملاً بشرياً مشتقاً من مقتضى الكمال الإلهي، فإذا كانت مقومات الإبداع الجهادي القدرة والقوة، والعزة والمال، والحياة والقيام بتكاليف الجهاد، فإن الله بفضله ومنه يسر بل المجاهد بما أراد فيكسبه قدرة من قدرته، فإنه القادر، وقوة من قوته، فإنه القوي، وعزة من عزته، فإنه العزيز، ورزقاً من خزائنه، فإنه الغني، وحياة جليلة، فإنه الحي، وقياماً جريئاً بأمر الله دون خشية لائم، وذلك من قيومته، فإنه القيوم.

ضيفتنا في هذه السطور، امرأة عظيمة ظلت حيناً من الدهر تعيش في ظلمات الشرك، ظلت تتخبط في أحوال الوثنية العمياء، وتسعى في الصد عن نور الهداية، وظلت عشرين عاماً تهيم في أحوال الظلمات إلى أن أكرمها الله عز وجل بالإسلام، وحلت الهداية في قلبها، ودخلت صرح الصحابييات العامر بأنوار الإيمان واليقين والتوحيد.

(١) فتوح الشام للواقدي ** الإصابة في تمييز الصحابة ** تاريخ الطبري ** سير أعلام النبلاء.

لقد صارت ﷺ من أعظم الأمهات في هذا الجيل الرباني الفريد، فهي أم التابعي الجليل والقائد العظيم موسى بن نصير رحمه الله فتح بلاد المغرب والأندلس، نحن على موعد مع الصحابية الجليلة أم موسى اللخمية رضي الله عنها، وإن سكت التاريخ عن ذكر اسمها في شهيرات الجيل الرباني، إلا أنه سطر بكل قوة بطولاتها يوم اليرموك، وسطر كذلك بكل فخار واعتزاز بطولات ابنها القائد الأموي العظيم.

لقد كانت ﷺ شجاعته الأدبية والنفسية أمرها عجب، والحديث عنها مستعذب، ومواقفها في هذا المضمار مواقف مشرفة، ولو لم يكن من أمرها إلا حثها ابنها على الثبات والصبر والموت شريفاً في سبيل العقيدة والحق الذي يدين به لكفى.

لقد شهدت أم موسى اللخمية ﷺ مع زوجها نصير بن عبد الرحمن بن زيد - القائد الأموي المشهور - معركة اليرموك وهي من المعارك الحاسمة مع الروم البيزنطيين على جبهة الشام -، فقتلت حينئذ أحد قادة جيش الروم، وأخذت سلبه.

وكان أمير مصر عبد العزيز بن مروان - وهو والد الخليفة عمر بن عبد العزيز - يستحكيها عن قصتها يوم اليرموك، فتصف له ذلك، وتقول: بينما نحن في جماعة من النساء إذ جال الرجال جولة - أي يفرون من ساحة القتال - فأبصرتُ علجاً يجرجر رجلاً من المسلمين، فأخذت عمود الفسطاط ثم دنوت منه فأصابته به رأسه، وقتلته، وأقبلتُ أسبله، فأعانني الرجل المسلم على أخذه.

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، إنها حقًا شجاعة نادرة في هؤلاء المؤمنات، حركها بلا شك الإيمان العظيم بالله تعالى والشعور العميق بالكرامة، والإحساس الشديد بالعزة، إنها شجاعة نادرة، لأن الذي أبرزها وأخرجها حب الله تعالى والإيثار على النفس، والزهد في الدنيا، والتضحية بكل شيء في هذه الحياة الدنيا مقابل الفوز بالثواب والأجر في الآخرة.

إنها شجاعة نادرة لأن الذي أحيها في تلك النفوس، الغيرة على دين الله عز وجل أن تطاله يد فاجر، أو سيف كافر، فأعظم بها من شجاعة، وأكرم بها من بسالة.

يا أيتها الأخت المؤمنة، إن كل عظيم من عظماء الأمة الإسلامية، كان يقف خلف ظهره امرأة صالحة من خيرة النساء، تسانده في كل الأحوال والظروف، وقد تربين على الهدى النبوي وشربن من المنابع المحمدية الأولى، فعرفن السبيل إلى الله جيدًا، وأيقن أمور دينهم بشكل صحيح، وتمكن من تحقيق المعادلة الصعبة للغاية، وهي الفوز بلذة الدنيا، ونعيمها وخضرتها، والفوز بنعيمة الجنة والرضوان، وحياة النساء في العصر الذهبي مليئة بالعطاءات الروحية والعبر والآخرة وجنانها.



الأخت العاقلة^(١)

بدأت نسماتُ الإسلام تفوح بأريجها العطر سماء أم القرى، وبدأ أصحاب العقول الواعية يتقبلون هذه الدعوة بقلوب صافية متعطشة للتخلص من براثن الجاهلية، وتهيؤوا لرسالة الإسلام الكبرى التي وجدوا فيها الحياة الحقيقية، وهؤلاء السابقون لم يكونوا من الرجال فحسب، بل كانت النساء من السابقات أيضاً إلى الاستجابة لأمر الله عز وجل، ولرسوله ﷺ، وقد قرن الله جل وعلا بين الرجال والنساء في حسن المثوبة، وادخار الأجر، وارتقاء الدرجات العلا في الآخرة.

ومن بين الثلاثة المبكرة صحابية جليلة القدر، أسلمت مع تنفس صبح الإسلام، وقبل دخول النبي ﷺ دار الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه، ضيفتنا في هذه السطور، امرأة جليلة القدر كانت سبب في إسلام أخيها الرجل الثالث في دولة الإسلام عمر بن الخطاب، نحن نلتقي بالصحابية الجليلة فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها.

(١) الرياض النضرة ** تاريخ دمشق ** طبقات ابن سعد ** البداية والنهاية ** الروض الأنف ** صفة الصفوة.

لقد كانت فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها امرأة عاقلة سليمة القلب، زكية النفس، رقيقة المشاعر، طاهرة الروح، استقبلت الإسلام بفطرتها، وفتحت له قلبها، فملك عليها أمرها كله، لذلك كان إيمانها إيماناً لا مثار فيه للريب فقد أشربت الإيمان منذ أول عهدا به، فوجدت الله جل وعلا ملء سمعها وبصرها، ووجدت في تصديق النبي الخاتم صلوات الله عليه الأمل الذي أخرجها من الظلمات إلى النور، وأصبحت بين عشية وضحاها عابدة زاهدة قانتة، تتلو ما نزل من كتاب الله تعالى هي وزجها سعيد بن زيد رضي الله عنهما.

وكان مشركو قريش يذيقون من آمن بالله ألواناً من العذاب تنوء عن حمله الجبال، وكان أخوها عمر بن الخطاب يعذبُ المسلمين عذاباً يفوق الخيال، وطالما لقي الضعفاء الأذية منه، ولكن فاطمة كانت من الأسباب التي غيرت مسار أخيها هذا الشاب الحاقد على الإسلام ورسوله، حتى غدا الرجل الثالث في الإسلام بعد رسول الله والصديق أبو بكر، وهكذا يفعل الإيمان واليقين في القلوب، ونحن مع هذا المشهد الخالد في تاريخ الإسلام ألا هو كيف غيرت هذه الصحابية الجليلة مسار أخيها، وكيف جذبتة إلى الدوحة الإيمانية.

لا يكاد الباحثُ يمرُّ على أخبار فاطمة رضي الله عنها إلا ويعرج على تلك الحادثة العظيمة التي كانت من فواتح الخير على الإسلام والمسلمين، وهي إسلام عمر بن الخطاب رضي الله عنه، يروى

أصحاب السير: أن عمر خرج يوماً متوشحاً سيفه، وقد ضاق ذرعاً بهذا الدين وأهله، يريد رسول الله ﷺ ومن معه ليفتك بهم، فلقيه نعيم بن عبد الله النحام رضي الله عنه، فقال: أين تريد يا عمر؟

فقال: أريد محمداً هذا الصابئ الذي فرق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها فأقتله، فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك من نفسك يا عمر، أترى بني عبد مناف وبني زهرة تاركيك تمشي على الأرض وقد قتلت محمداً؟ فقال له: ما أراك إلا قد صبوت يا نعيم، وتركت دينك الذي أنت عليه؟

فقال نعيم: لا، لكن أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ فقال: وأي أهل بيتي تقصد، قال: أختك وختنك -أي صهرك- قد أسلما وتركنا دينك الذي أنت عليه.

فمشى عمر مغضباً حتى أتاهما، وعندهما خباب بن الارت يقرئهما القرآن، فطرق الباب، فلما سمع خباب صوته توارى منه في البيت، فدخل عليهما، فقال: ما هذه الهيمنة التي سمعتها عنكم؟ فقالا: ما هو إلا حديث تحدثناه بيننا، فقال: والله لقد أخبرت أنكما اتبعتما محمداً، فقال له صهره سعيد بن زيد: أرايت يا عمر، إن كان الحق في غير دينك؟

فلم يتمالك عمر نفسه ووثب على سعيد فوطئه، وبطش به، فقامت فاطمة فدفعته عن زوجها فضربها فشجها، ودمى وجهها، فقالا له: نعم قد أسلمنا، وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بد لك، فلما

رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع، وقال لأخته: أعطيني هذه الصحيفة التي سمعتم تقرأونها آنفاً أنظر ما هذا الذي جاء به محمد - وكان يقرأ ويكتب - فقالت له فاطمة: إنا نخشاك عليها، قال: لا تخافي، وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها، فقالت له وقد طعمت في إسلامه: يا أخي، إنك نجس على شركك، وإنه لا يمسه إلا المطهرون، فقم فاغتسل، فقام فاغتسل، فأعطته الصحيفة، وكان فيها صدر سورة طه، فلما قرأها قال: ما أحسن هذا الكلام وأكرمه، دلوني على محمد.

وفي هذا اللحظات الصافية بزغ خباب بن الارت من مخبئه، وأسرع نحو عمر، وقال: أبشر يا عمر، فإني أرجو أن تكون دعوة الرسول ﷺ سبقت لك، فإني سمعته أمس يقول: اللهم أعز الإسلام بعمر بن الخطاب، أو بأبي الحكم بن هشام، فالله الله يا عمر! فقال: دلني عليه يا خباب حتى آتيه فأسلم، فقال: هو الآن في دار الأرقم في الصفا، فذهب عمر وأسلم بين يد رسول الله.

عبرة:

يا أيتها الأخوات المؤمنات، لقد كانت فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها هي السبب في إسلام هذا الشخص العظيم الفريد في تاريخ، هي أخته المؤمنة، والتي كانت سبباً في هدايته، وتمحيص قلبه من نوازع الشرك والوثنية، وتخليص المسلمين من بطشه وغلظته، وجعلته نجماً في سماء الإسلام، وإن لم يكن لها ولزوجها إلا ذلك لكانت جديرة بأن يسجل التاريخ سيرتها في أنصع صفحاته.

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد كانت فاطمة بنت الخطاب رضي الله عنها مثلاً للمؤمنة التي عرفت ربها بفطرتها فشهدت له بالوحدانية حين دعاها رسول الله ﷺ إليه، وصدقته في كل ما جاء به من ربه، لأنه الصادق الأمين عند الله وعند الناس، فقامت تدعو إلى هذا الدين القويم من لها صلة بها من نساء مكة، وتقرأ عليهن القرآن، فأسلم على يديها الكثير منهن.

ولقد كان زوجها يقوم بهذا الواجب المقدس بين من يعرفهم، ويطمع في إيمانهم من الرجال، وهذا شأن كل مسلم ومسلمة، فالدعوة إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، والحجة الظاهرة، وظيفة العلماء العاملين في كل زمان ومكان.



والله لا أتبعه اليوم حنثاً^(١)

إن الوفاء في حياة الصحابة النجباء الفضلاء هو السمت العام، والصفة المميزة، حيث لا يعرف الوفاء إلا من عرف الإيمان، وعاش عليه، وبقدر ما يكون الإيمان في القلوب يكون الوفاء في النفوس، لذلك كان الصحابييات العظميات هم أكمل الخلق في باب الأخلاق كافة، وفي كل أبواب الخير والبر، ولقد كان الثبات على صدق من أفضل ما تتحلى به النساء، وهذا المشهد الذي نراه في هذه السطور لهو لمحة نيرة، نقدم فيها صورة رائعة ناصعة من وفاء الصحابييات.

ضيفتنا في هذه السطور، امرأة نصعت سيرتها على صفحات التاريخ، فكانت سراجاً وهاجاً على الدرب لكل مسلمة تريد أن تعرف معنى الوفاء، فقد كانت ﷺ رمزاً للوفاء في حياتها، نحن نلتقي بزهرة الفواحة في بستان الوفاء أسماء بنت عميس رضي الله عنها، فتعالوا بنا لنطوف بين صفحات التاريخ لنرى هذا المشهد الرائع.

(١) تاريخ الإسلام ** طبقات ابن سعد ** البداية والنهاية ** الوافي بالوفيات ** الإصابة في تمييز الصحابة ** سير أعلام النبلاء.

بعد الحياة الطيبة التي قضتها أسماء بنت عميس مع زوجها جعفر بن أبي طالب عليه السلام في رحاب الإيمان، جاء اليوم الذي يفترق فيه الزوجان فلقد خرج جعفر على رأس سرية مؤتة قائداً للجيش الإسلامي فقتل شهيداً في سبيل الله، فصبرت أسماء على فقد زوجها، وأخذت ترعى أولادها وتنشئهم تنشئة فاضلة وتأديهم بأدب الإسلام وتعدهم للجهاد في سبيل الله تعالى.

وجاء أبو بكر الصديق لخطبتها فرحبت به وسعدت بالزواج منه ونعمت بالعيش معه، وكان لها خير خلف لخير سلف، وولدت له محمداً حين خرجت للحج مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في السنة العاشرة من الهجرة.

وقد عاشت أسماء عليها السلام مع الصديق في خلافته التي لم تدم طويلاً، فقد بدأت في ربيع الأول من السنة الحادية عشرة، وانتهت في جمادي الآخرة من السنة الثالثة عشرة، وشاهدت الأحداث الكبرى من جمع للقرآن، وحروب المرتدين، ورأت كيف زاد الصديق عن حمى الإسلام، وحرمة المسلمين، وكيف وضع أساس الأمة الإسلامية، وبناء دعائم الدولة، وكيف أرسل البعث لفتح بلاد الشام وبلاد فارس بعد أن قضى على خطر المرتدين في الجزيرة.

وكانت أسماء نعم العون لزوجها الخليفة تشد أزره وتحيطه برعايتها، وتسانده بحبها في أحلك الأزمات، حتى اقترب سن

أبي بكر من سن الرسول ﷺ عند وفاته، وهي الثالثة والستون، فمرض بالحمى لمدة خمسة عشر يوماً، عانى خلالها من الضعف والوهن، وأحس بدنو الأجل، فعهد إلى الفاروق عمر بالخلافة بعد أن استشار خيار المسلمين، وأمره أن يصلي بالناس، قدوة برسول الله ﷺ، فقد أمره أن يصلي بالناس حين اشتد مرضه ﷺ.

وفي يوم الاثنين السابع من جمادي الآخرة في السنة الثالثة عشرة من الهجرة لقي الصديق ربه عز وجل راضياً مرضياً عشية هذا اليوم، وكان ﷺ قد أوصى أسماء بنت عميس أن تغسله بنفسها، فإن عجزت عن ذلك استعانت بابنه عبد الرحمن.

وكانت يوم وفاته صائمة، فعزم عليها أن تفطر لتقوي على ما أوصاها به، فظلت صائمة حتى دنت الشمس من الغروب، فدعت بماء فشربت قبل أن تغيب الشمس، براً بقسم زوجها، وقالت: والله لا أتبعه اليوم حنثاً -أي لا أجعله يحنث في يمينه فيسوؤه ذلك- فما أعظمه من وفاء وبر؟!

عبرة:

يا أيتها الأخت الكريمة، إن أسماء ﷺ لا تريد مخالفة أمر زوجها الصديق، حتى بعد الموت، وهكذا يكون الوفاء، وهكذا تكون الطاعة.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، المرأة بعقلها السليم، وفطرتها

المستقيمة تستطيع أن تزحزح من طريقها كل ما يعترضها من عقبات وعوائق في سبيل إسعاد زوجها، وإدخال السرور عليه إذا نظر إليها، حفظته في ماله وعرضه إذا غاب عنها، ولها في هذه سيدة العظيمة وبناتها قدوة حسنة.

والرجل إذا اتبع منهج الأخيار في معاملاتهم لأزواجهم بوجه خاص، ولسائر الناس بوجه عام: أحبه الله، وأحبه الناس، وكان مثلاً يقتدي به أبناؤه في حياته وبعد مماته.



مثل للمؤمنات المجاهدات^(١)

إذا استحكمت الأزمات، وتعمّدت حبالها، وترادفت الضوائق، وطال ليلها، فالصبر وحده هو الذي يشع للمسلم النور العاصم من التخبط، والهداية الواقية من القنوط، والصبر فضيلة يحتاج إليها المسلم في دينه ودنياه، ولا بد أن يبنى عليها أعماله وآماله، وإلا كان هازلاً، فيجب أن يوطن نفسه على احتمال المكاره دون ضجر، وانتظار النتائج مهما بعدت، ومواجهة الأعباء مهما ثقلت، بقلب لم تعلق به ريبة، وعقل لا تطيش به كربة.

فيجب عليه أن يظل موفور الثقة، بآدى الثبات، لا يرتاع لغيمة تظهر في الأفق ولو تبعتها أخرى وأخرى، بل يبقى موقناً بأن بؤادر الصفو لا بد آتية، وأن من الحكمة ارتقابها في سكون ويقين، ولقد كانت الطاهرة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد عليها السلام من الذين ضربوا المثل في الصبر والمصابرة، عاشت على ذلك وماتت عليه، ونحن في هذه السطور نتجول في رحاب السيرة النبوية لنقتطف هذه

(١) سيرة ابن هشام ** أسد الغابة في معرفة الصحابة ** الإصابة في تمييز الصحابة ** طبقات ابن سعد ** صفة الصفوة.

الثمرة اليانعة الشذية، فتعالوا بنا لنعيش سويًا في رحاب الإيمان والصبر والتضحية والفداء.

أخذت المواجهة بين النبي ﷺ وبين قريش، تشتد يومًا بعد يوم، والرسول الكريم ماضٍ في دعوته، وقلوب المشركين تكاد تتميز من الغيظ، يفكرون ويدبرون ويتشاورون ويتساءلون عما يعلمون، وأخيرًا قرروا القضاء على أتباع محمد ﷺ، ليكونوا عبرة لمن يفكر في دخول هذا الدين، ولا يجد رسول الله ﷺ حوله أنصارًا، ولا من يدعوهم بدعوته، ثم انصرفوا ينفذون.

وتردد في صحراء مكة الصراخ والعيول بالليل والنهار، وشاعت مناظر التعذيب والتكيل بكل أتباع محمد ﷺ، كان منهم من يلقي في الشمس الحارقة، التي تذيب الحديد، ومنهم من يوضع حجرًا كبيرًا ملتهبًا على صدره فلا يتحرك، ولا يستطيع الفرار من تلك الأشعة التي تشويهه، ومنهم من يقذف به في حجرة مظلمة، بلا طعام ولا شراب، حتى يمزق الجوع والعطش أحشاءه.

كانت الطاهرة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها في وسط هذه الحرب الضروس، تعمل بثبات، وعزم وصبر، تؤدي دورها على خير ما ينبغي، فقد كانت يدها تمسح بها على جرح المجروح، وتواسيه، وتشجعه، وتبشره بالنصر، أو الشهادة، وفتحت خزائنها للمسلمين على مصارعها، يأخذون منها ما يشاءون، وبذلت أموالها في سبيل الله، تدفع ديون غير القدرين، وتشري الأرقاء المعذبين، وتعتقهم لوجه الله تعالى.

لا تهتم ﷺ بذلك العبث الذي يصنعونه، فلا تلقي بالاً إلى تلك الحجارة المتساقطة على دارها من سفهاء قريش، والضاربة بابها، ولا إلى ذلك الصياح، الذي يصيح به المشركون وأطفالهم حول دارها ببذء القول، ولا تبالي بمنظر أولئك الأشرار وهم يسرون خلف رسول الله ﷺ وهم يهللون، ويرمونه بأحط الكلام وأقبحه، بل تبتسم، وتنتظر الرسول حتى يدخل الدار، فتقابله بأشدة ضاحكة، وتزيل بابتسامتها وهذوئها ما أهمه ﷺ، وتزيل بيدها ما يكون قد ألقى عليه من أقذار.

فلما رأى رسول الكريم صلوات ربي وسلامه عليه ما يحل بأصحابه من ذلك الأذى الذي لا يطاق أثر أن يبعدهم عن مكة، وأذن لهم بالهجرة إلى الحبشة، حتى يأذن الله بأمره، ويكشف السوء عن عبادته، فطربت السيدة خديجة ﷺ لهذا الإذن، وأسرعت تعاون المهاجرين على التجهز للسفر، وتقدم لهم ما يعينهم على الرحيل، وتشجعهم، وتقوي قلوبهم، وتهون عليهم الفراق، وتؤكد لهم النصر، وقرب التلاقي.

وزاد طربها، حين جاءها عثمان بن عفان زوج ابنتها رقية رضي الله عنهما، يخبرها بعزمه هو ورقية، على الهجرة مع المهاجرين، فقالت في رضا: بارك الله فيك يا عثمان، وبارك في رقية، وكتب لكما السلامة، أما أنا فساظل هنا مع رسول الله ﷺ، حتى يأذن الله بأمره.

وفي ستار الليل، كان هؤلاء المهاجرون يفرون من مكة بدينهم، والسيدة خديجة عليها السلام تدعهم باسمه متجلدة، لم يبد عليها شيء مما يبدو على الأمهات حين يودعن الأولاد الأعزاء.

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، خديجة بنت خويلد عليها السلام مثل المؤمنات، المجاهدات، الصادقات، ومثل للباحثات عن مثل يقتدين به، فهي من حيث السمو لم يدانيها أحد إلا ابنتها فاطمة، ومن سبقها من الصالحات، اللواتي ذكرهن الله تعالى في كتابه مثل مريم بنت عمران، وامرأة فرعون، فقد كانت عليها السلام امرأة عالية الهمة جياشة العواطف، واسعة الأفق، مفطورة على التدين، والنقاء، والطهر حتى لقد عرفت بين أترابها وبين نساء قريش بالطاهرة.

يا أيتها الأخت المؤمنة، إن سنة الله في هذا الكون لا تتبدل ولا تتغير، وإن النصر لا يتنزل كما ينزل المطر، ولا يمكن المؤمنون وهم قاعدون، ومع أن الله قادر على نصر عباده بكن فيكون، إلا أنه جل جلاله، يبتليهم ويجعل طريق النصر صعباً وشائكاً، ليميز الصادق من الكاذب، ويميز الخبيث من الطيب، ذلك لو يشاء الله لانتصر منهم ولكن ليلو بعضكم ببعض، ولتخذ الشهداء الأبرار، والذين قتلوا في سبيل الله فلن يضل أعمالهم، ولأن سعلته غالية، ولا تشتري إلا بثمان غال، بأرواح تزهق، وأموال تنفق،

ودماء تسكب، ألا فليعلم الكسالى، والذين يحبون الراحة والدعة،
أنه لا مكان لهم في صف الأبطال.



زوج الشهيد^(١)

تجلت في الأنصار ﷺ الاستجابة المخلصة لما يأمرهم به ربهما، ويدعوهم إليه رسولهم، ومن شواهد ذلك أن الله تبارك وتعالى أراد أن يعد أمة المؤمنة لحياة العزة والكرامة، فدعاهم إلى الجهاد في سبيله، فبدأ لهم رضوان ربي عليهم أن يضحوا بأنفسهم طلباً لما عند الله سبحانه، وما أعد له عباده من النعيم المقيم: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةُ﴾ (التوبة: ١١١).

فسبحان الكريم الوهاب، النفس من خلقه، والمال من رزقه، استخلفنا عليهما، وهو يشتري منا النفس والمال مقابل الجنة، أفلا تعقلون أيها الناس فهل من بائع لماله، ونفسه في سبيل الله، لكن أفراد الجيل الرباني تسابقوا لهذا الأمر، ومن هؤلاء المتسابقون، امرأة قدمت كل شيء في سبيل ربها المال، والزوج، والأبناء، فمن تكون هذه المرأة المؤمنة، وما قصة استشهاد زوجها يوم أحد، هذا ما سنعرفه الآن.

(١) السيرة الحلبية ** صفة الصفوة ** الاستيعاب في معرفة الأصحاب ** موسوعة الفداء في الإسلام ** نساء في زمن النبوة ** السيرة للذهبي.

ضيفتنا في هذه السطور، صحابية كريمة جمع الله لها من
المكارم والفضائل قدرًا عظيمًا يعجز القلم عن وصفه، فقد فازت
هذه السيدة الرزان بنفحات الندية من النبي ﷺ، فزادتها فضلًا
ومكانة عند الصحابيات، فقد كانت ﷺ من الصّافيات الطاهرات،
والصّادقات المخلصات للإسلام، ولنبي الإسلام، ربّت أولادها
وبناتها على مائدة الإخلاص والوفاء، ولقد كانت صحابية فاضلة،
وقدمت هذه السيدة كل ما تملك في سبيل ربها، وقدمت زوجها
شهيدًا يوم أحد.

نحن على موعد مع، الزوجة الكريمة الصابرة المحتسبة أم
الدحداح الأنصارية وزوجها الكريم بطل أحد الباسل ثابت أبو
الدحداح رضي الله عنهما، إن الكلام عن أم الدحداح وزوجها
ثابت يُعطي المحبين واقعًا مشرقًا عن رسوخ الإيمان في قلوب
هؤلاء الأبرار الأتقياء، فقد صارت الدنيا عندهم لا تساوي شيئًا
إذا ما قيسَت بالآخرة.

وأنا أسألكم بالله: من الذي يستطيع أن يكتب كلمة واحدة يعبر
بها عن تلك المكارم والفضائل التي جمعها الله لهذه الصحابية
الجليلة، فتعالوا بنا لتعايش بقلوبنا مع هذا المشهد الرائع لنرى
آية من آيات البطولة والصبر سطرتها عائلة آل الدحداح يوم أحد.

لما كانت غزوة أحد، ودّع أبو الدحداح زوجه أم الدحداح،
وانطلق مع المجاهدين إلى لقاء المشركين، ولما انكشف المسلمون

ثبت أبو الدحداح مع ثلة من الأنصار المغاوير، ولقد رأى الناس حينئذ، وقد انتشروا وتبعثروا بسبب اشتداد الهول، وشراسة القتال، وهول المفاجأة، وقد أشيع بينهم أن رسول الله ﷺ قد قتل، فلم يفقده ذلك صوابه أو ثباته، بل أقبل نحو الأعداء، وقاتل حتى نال الشهادة، وقد ذكر ابن عبد البر رحمه الله هذا فقال:

أقبل ثابت بن الدحداحة يوم أحد، والمسلمون متفرقون قد سقط في أيديهم، فجعل ثابت يصيحُ فيهم: يا معشر الأنصار، يا أصحاب بيعة العقبة، إلي إلي أنا ثابت بنُ الدحداحة، إن كان محمد ﷺ قد قُتل فإن الله حي لا يموت، فقاتلوا عن دينكم، فإن الله عز وجل مظهركم وناصركم على عدوكم، فنهض إليه نفر من الأنصار، فجعل يحمل بمن معه من المسلمين، وقد وقفت له كتيبة خشناء -أي كثيرة السلاح- فيها رؤسائهم، خالد بن الوليد، وعمر بن العاص، وعكرمة بن أبي جهل، وضرار بن الخطاب - وقد أسلموا جميعًا بعد ذلك- فجعلوا يناوشونهم، وقد حمل عليه خالد بن الوليد بالرمح، فطعنه فأنفذه فوق شهيدياً، وقُتل من كان معه من الأنصار.

هنا ماذا تفعل من أتاها خبر موت زوجها؟!

وصل نبأ استشهاد أبي الدحداح أسماع زوجته أم الدحداح رضي الله عنهما، فلم تلتطم، ولم تشق ثوبها، ولم تعفر رأسها بالتراب، وإنما كبرت واسترجعت واحتسبته عند الله عز وجل، لأنها تعلم

بأنه نال شرفاً عظيماً، وحظي بمرضاة الله عز وجل، وهو حي مع الشهداء الأبرار في جنان الخلد، وغمر أم الدحداح السرور عندما علمت أن النبي ﷺ قد عاد سالمًا من أحد، لأنها تعرف أن كل مصيبة بعد سلامة رسول الله ﷺ هينة.

وبهذا فإن الصحابية الجليلة أم الدحداح رضي الله عنها قد سجلت في ديوان المكارم صحائف كريمة، فكانت ممن احتسب الأزواج في عداد الشهداء، والأبناء في صفوف أهل الجهاد، والأموال في سبيل الله، فأكرم بها!

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد تجلت عظمة أم الدحداح رضي الله عنها في الاستجابة المخلصة لما أمرها به الله عز وجل ورسوله ﷺ من الصبر عند المصيبة، فقد مضت رضي الله عنها في طريق الإسلام، تستجيب لأمر ربها، تعتر بما قدمته من أجل دينها بكل ما تستطيع إلى ذلك سبيل، فقد اختارت رضي الله عنها أرفع الدرجات، وأصدق القربات، وقد بذلت كل ما تملك في سبيل بارئها وخالقها، ولم تكتف بهذا فقط بل فرحت عندما ضحى زوجها أبو الدحداح رضي الله عنه بنفسه يوم أحد.

هذه هي أم الدحداح الأنصارية التي رضيت بالله رباً، وبالإسلام ديناً، وبمحمد ﷺ رسولاً، وهي واحدة من نسوة خرجن أبطالاً، فتحو العالم، ونشروا الفضائل بين البشر، فيا حبذا اقتداء النساء بفعلها في استرخاص الدنيا الزائلة في سبيل مرضاة الله عز وجل،

وتربية أبناء هدفهم التأسى برسول الله صلى الله عليه وصحابته
الكرام.

ولله در الصحابية الجليلة أم الدحداح التي تركت أجمل صور
وأروع آيات الصبر والفداء، وظلت البشارة النبوية ماثلة أمام عينيها:
كم من عذق رداح في الجنة لأبي الدحداح.



الريحانة الوفية (١)

إن كل صحابي من صحابة الحبيب المصطفى ﷺ، كان يقف خلف ظهره امرأة صالحة من خيرة نساء، تسانده في كل أمور الحياة، وتعاونه في كل أمور الدعوة، لم لا وقد تربين على الهدي النبوي الشريف، وشربن من المنابع المحمدية الأولى، فعرفن السبيل إلى الله جيداً، وأيقن أمور دينهم بشكل صحيح، وتمكن من تحقيق المعادلة الصعبة للغاية، وهي الفوز بلذة الدنيا ونعيمها وخضرتها، والفوز بنعيم والرضوان في الآخرة، فحياة الصحابيات مليئة بالعطاءات الروحية والعبر والعظات والشوق إلى جناتها.

ضيفتنا في هذه السطور، فتاة تحظى بمكانة سامقةٍ باسقة في المجتمع النبوي الكريم، وكذلك تحظى بمكانة عظيمة في قلوب المؤمنين، فقد كانت صافية السريرة نقية الروح، موصلة القلب بالله، كبيرة الشأن، سادت أقرانها بالشمالك الكريمة، تميزت هذه الفتاة بالوفاء الذي يفوق الخيال لما لا وهي ابنة سيد الأوفياء

(١) الكامل في التاريخ ** تاريخ الطبري ** مجمع الزوائد ** تاريخ الإسلام ** مختصر تاريخ دمشق ** الاستيعاب في معرفة الأصحاب.

الرسول الأعظم ﷺ، وأما سيدة نساء العالمين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها، نحن على موعد مع زينب بنت محمد رضي الله عنها.

لقد كانت أمها الطاهرة خديجة تغرس في نفس صغيرتها ألوان التربية الفاضلة، وألوان المعرفة، كانت ما تزال عُصْنًا رطيبًا متفتح الزهر، لم تظهر ثماره بعد، إلا أن زينب كانت تستنشق تلك الهمسات اللطيفة التي تستروحها من أمها الرؤوم.

ونحن في هذه السطور نعيش مع مشهد من مشاهد التربية النبوية على الوفاء الصحابيات الكريمات لأزواجهما، ذلكم المشهد الذي حفر في ذاكرة التاريخ، والذي يستحق أن يكتب بمداد من نور لتعيش الدنيا هذا الوفاء الذي ليس له نظير، ولتعلم أخلاق المؤمنين، وما كان عليه الجيل الرباني الفريد من أخلاق وسجايا، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد المانع، وهو مشهد دخول زوجها الحبيب أبي العاص بن الربيع واحة الإيمان.

أقامت زينب رضي الله عنها بالمدينة المنورة وهي مستظلة بظلال الحنان والأنس برعاية أبيها رسول الله ﷺ، وأنست بأختها أم كلثوم وفاطمة، بينما كانت رقية توفيت عندما رجع رسول الله ﷺ من غزوة بدر.

وبقيت زينب رضي الله عنها في المدينة المنورة قرابة ست سنين، حتى فتح الله على زوجها أبي العاص بالإسلام، وكان لإسلامه قصة لطيفة

ظهرت فيها زينب عليها السلام بأجمل صور كرامة المرأة، ودقة وجدانها وصون كرامتها.

أما كيف كان ذلك فنحن بإذن الله مرسلو القول فيه لنسعد ونحن نعيش هذه اللحظات المباركة في ظلال البيت النبوي الكريم الذي أذهب الله عنه الرجس وطهره تطهيرًا.

إن كرامة المرأة في الإسلام تتناول شخصها وسيرتها، وتشمل مشهدها ومغيبها فمن حقها أن تكون هي في موطن الرعاية والعناية، وأن يكون لها الحرمه والكرامة ما يضمنُ حريتها.

وهذا ما كان لزينب بنت الرسول صلى الله عليه وآله، فقد عرف الإسلام لها حقها، وأشاد بمكانتها، وحفظ لها مكانها، لما أجارت زوجها أبا العاص بن الربيع، ولذلك فتح الله عز وجل بصيرته وأكرمه بنعمة الإيمان، وأضحى أحد فرسان المدرسة المحمدية.

أقام أبو العاص بن الربيع زمناً على الشرك، وذلك بعد هجرة زينب عقب غزوة بدر، وكان يعمل بالتجارة فخرج تاجرًا إلى الشام، قبل صلح الحديبية بقليل - وقيل قبل عمرة القضاء - وكان رجلاً مأموناً، وكانت معه بضائع وأموال قريش، بالإضافة إلى ماله، وفي طريقه إلى الشام تذكر زوجه زينب، وطالما تذكرها، وذكرها في شعره.

ومما قال فيها:

ذكرت زينب لما وركت أرمًا

فقلت سقيا لشخص يسكن الحرما

بنت الأمين جزاها الله صالحة

وكل بغل سيثني بالذي علما

دخل أبو العاص الشام، وباع وربح أموالاً كثيرة، فلما رجع من تجارته لقيته سرية لرسول الله ﷺ قوامها سبعون ومائة راكب، يرأسها زيد بن حارثة رضي الله عنه، وأحاط زيد ومن معه بغير قريش، وإذ ذاك وجد رجال القافلة أنهم عاجزون عن الدفاع، فأسلموا أنفسهم وتجارتهم لرجال السرية، وكان فيها فضة كثيرة لصفوان بن أمية، وأصابوا كل ما في القفلة، واستاقوا العير بينما أفلت أبو العاص فأعجزهم هرباً.

قدم زيد وأصحابه بالغنائم على رسول الله ﷺ، فقسمها بينهم، وأقبل أبو العاص بن الربيع بالليل حتى دخل على زينب فاستجار بها فأجارته، وسألها أن تطلب له من رسول الله ﷺ رد ماله عليه، وما كان معه من أموال الناس فوعده خيراً.

وترامت في جنابات المدينة صوت بلال بن رباح ؓ وهو يؤذن بالفجر، فخف زيد بن حارثة وأصحاب الرسول الكريم ﷺ ليصلوا خلف رسول الله ﷺ.

ووقف الرسول الكريم ﷺ، واصطف المسلمون خلفه في

هدوء، فلما دخلوا في الصلاة وكبر الرسول ﷺ، وكبر الناس معه،
إذ بصوت زينب ؓ يدوي في المسجد، ينبعث من صفوف النساء
تقول: أيها الناس، إني قد أجرت أبا العاص بن الربيع.

فلما قُضيت الصلاة وسلم النبي ﷺ أقبل على أصحابه الكرام
فقال: ما علمت بهذا، وإنه يجير على الناس أدناهم.

ثم انصرف الحبيب المصطفى ﷺ، فدخل على ابنته زينب ؓ
ليعرف حقيقة الأمر، ثم قال لها: قد أجرتنا من أجرت، والمؤمنون
يد على من سواهم، يجير عليهم أدناهم.

وسألت زينب ؓ أن يرد على أبي العاص ما أخذ منه، فصمت
قليلاً، ثم أمرها ألا يقربها ما دام مشركاً، وقال: أي بنية، أكرمي
مثواه، ولا يخلص إليك، فإنك لا تحلين له.

كانت زينب مسلمة، وكان أبو العاص مشركاً لا يزال على دين
الوثنية، وقد حرم نكاح المؤمنات على المشركين.

وخرج رسول الله ﷺ، وبعث إلى السرية من أصحابه الذين
أصابوا مال أبي العاص، وقال لهم: إن هذا الرجل منا بحيث قد
علمتم، وقد أصبتم له مالاً، إن تحسنوا وتردوا عليه الذي له فإننا
نحب ذلك، وإن أبيتم فهو فيء الله الذي أفاء عليكم فأنتم أحقُّ به.

فقالوا جميعاً: بل نردهُ عليه يا رسول الله.

فردوا عليه ما أصابوا حتى إن الرجل ليأتي بالقربة القديمة، والرجل بالإداوة، والرجل بالحبل، فما تركوا قليلاً أصابوه ولا كثيراً إلا ردوه عليه، وعاد أبو العاص بأموال قريش وتجارته التي عقدت بناصيته أمانتها، في وقت استحكمت فيه شدائد الأزمات بينها وبين المسلمين، لم يفقد منها شيئاً، فكان موفور الكرامة، وفياً أميناً، وأعطى كل إنسان ما كان له من مال في هذه التجارة، ثم نادى في قريش علانية فقال: يا معشر قريش، هل بقي لأحد منكم معي مال لم أردّه عليه؟

قالوا: لا، جزاك الله خيراً، قد وجدناك وفياً كريماً.

وعند ذلك أعلن أبو العاص بن الربيع إسلامه، وشهد شهادة الحق، وقريش مجتمعون عليه، فقال وهو مستبشر مشرق الوجه، مطمئن القلب والضمير: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً عبد ورسوله، أما والله يا معشر قريش ما منعتني أن أسلم قبل أن أقدم عليكم إلا خشية أن تظنوا بي إنما أسلمت لأذهب بأموالكم، فلما أداها الله إليكم وفرغت، أسلمت.

خرج أبو العاص عليه السلام مهاجراً وأفكاره تتألق في وجدانه، إنه قد اعتنق الإسلام بعد تدبر وتأمل وتفكير، اعتنقه بمحض إرادته وحرية بعد أن طرح عن كاهله ما ورثه من سخافات الجاهلية البغيضة.

وبلغ أبو العاص المدينة المنورة، فاتجه إلى بيوت رسول الله ﷺ،

فاستقبله المسلمون بالترحاب، استقبلوه استقبال المهاجرين إلى الله عز وجل، فقد كانت هجرته إلى الله ورسوله.

وكانت زينب عليها السلام أكثر الناس سرورًا بعودة أبي العاص بن الربيع إلى الإيمان وإلى المدينة المنورة، وإلى دوحة المؤمنين، وأصبح من الراشدين، وكانت عودة أبي العاص مهاجرًا في المحرم سنة سبع من الهجرة - وقيل بل في المحرم سنة ست من الهجرة - فردَّ عليه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم زينب بذاك النكاح الأول.

عبرة:

يا أيتها الأخوات المؤمنات، نتعلم من سيرة زينب بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم أن الحب والوفاء والإخلاص والتفاهم بين الزوجين: هو المثل الأعلى في الإسلام، لأن الزوجين قد جمع الله بينهما بكلمته العليا، وربط بينهما برباط وثيق، وأخذ كل منهما على الآخر ميثاقًا غليظًا على أن يقيما ميزان العدل بينهما، وميزان العدل في الإسلام أن يُعطي المرء من الحقوق مثل ما عليه من الواجبات.

تتعلم المرأة المسلمة من قصة زينب عليها السلام كيف تصبر على زوجها، فإنها إن كرهت منه خُلِقَ رضىت منه آخر، فزينب عليها السلام قد صبرت على زوجها صبر أيوب، إذا دعت إلى الإسلام فأبى وظل على شركه، وهي تعاني ما تعاني من ذلك أكثر من خمسة عشر عامًا.

يا أيتها الأخوات الكريمات، لقد كانت زينب رضي الله عنها ترى بثاقب نور بصيرتها أن زوجها أبا العاص بن الربيع لن يسلمه عقله وتفكيره إلا إلى خير، وقد تحققت فراستها المنبثة من نور الله، وها وهو ذا أبو العاص رضي الله عنه يعلن إسلامه أمام الملاء الوثني القرشي دون خوف أو وجل، فقد استضاء بنور الله، واستشعر عظمته في نفسه، فلم يعد يخشى أحداً إلا الله.

يا أيها القارئ الكريم، من منا يريد من أعماق نفسه أن يكون كأبي العاص بن الربيع رضي الله عنه في أمانته ووفائه لزوجته ولأبيها رضي الله عنه ولقومه، فقد أبي أن يطلق زوجته حين أشار عليه قومه بذلك، وأبي أن يغدر بعهده مع النبي صلى الله عليه وسلم حين طلب منه أن يرد إليه ابنته، وأبي أن يظهر إسلامه قبل أن يرد لقومه حقوقهم في التجارة التي ردها عليه المسلمون، ولو شاء لأحرزها جميعاً، وما رد إليهم شيئاً منها، لو أظهر إسلامه وهو في المدينة، فإن أموالهم حينئذ تكون غنيمة للمسلمين.



الصبر الراضية^(١)

إن الإيمان صلة كريمة بين العباد وربهم، ومن حق هذه الصلة، بل أثرها الأول تزكية النفوس، وتقويم الأخلاق، وتهذيب الأعمال، ولن يتم ذلك إلا إذا تأسست في النفس عاطفة حية، تترفع بها أبدأً عن الخطايا، وتستشعر الغضاضة من سفاسف الأمور، أمام الإلمام بالأمور دون تورع، والوقوع في الصغائر دون اكتراث، فذلك دلالة فقدان النفس لحيائها، ثم فقدانها لإيمانها، وكان نساء الصحابة في القمة من الحياء، وفي قمة من التقوى، وفي قمة من الرضا والصبر والمصابرة.

ضيفتنا في هذه السطور، امرأة ليست كسائر النساء في تحمل التبعات ومواجهة مقتضيات الحياة فحسب، ولكنها قبل أن تكون زوجة وربة بيت، كانت بنت أعظم رجال الإسلام، وقد تعلمت من أبيها كيف يكون الصبر على المكاره، والجلد في تحمل الصعاب، ومواجهة الأزمات الملمة، والعقبات الكؤود، واكتسبت

(١) صحيح مسلم ** صحيح البخاري ** مسند الإمام أحمد ** السمط الثمين ** طبقات ابن سعد ** سيرة ابن هشام.

خبرة من خلال أبويها بشؤون الحياة، فكانت من أقدر النساء على معالجة الأمور، وتديرها على النحو الذي يوافق طباعها المرضية، ويتفق مع الشريعة الغراء نصًا وروحًا.

نحن على موعد مع، امرأة من شهيرات النساء في الدنيا، فإن هذه المرأة من أشهرهن في دُنيا الصبر والرضا، وزهد في الدنيا، إنها من أحسن نساء قريش وأعقلهن، نحن نلتقي بالسيدة أسماء بنت أبي بكر الصديق ﷺ هذه السيدة الحصيصة الرزينة، وحديثًا عن السيدة أسماء يتجلى فيه المثل الأعلى للمرأة الصبور الراضية بما أصابها من شظف العيش، فصبرت على ذلك كله لتفوز برضوان ربها، فتعالوا بنا لنرى هذا المشهد العظيم لتعلم المرأة المؤمنة كيف تصبر على البلاء، وشظف العيش.

تزوجت أسماء بنت أبي بكر الزبير بن العوام ﷺ أجمعين بمكة، ولما يكن له في الدنيا شيء لا مال ولا عقار، ليس له إلا فرسه، فلم يكن عليها أن تصبر على الفقر فقط، ولا أن تروض نفسها على الحرمان فقط، وتخدم زوجها وحده فقط، بل كان عليها أن تخدم هذا الفرس وتمشي تجمع له نوى التمر، ثم تدق النوى، وتعلف الفرس، لتعطينا أسماء في هذا الموقف درسًا في حُسن تبعها لزوجها، والقيام بشئونه.

تقول أسماء رضي الله عنها: تزوجني الزبير، وما له شيء غير فرسه، فكنت أخدم الزبير خدمة البيت كله، وكانت له فرس وكنت

أسوسه وأعلفه، وأدق لناضحه النوى، وأستقي، وأعجن، وكنت أنقل النوى من أرض الزبير، التي أقطعها له رسول الله ﷺ، على رأسي، وبينها وبين منازل المدينة ثلثي فرسخ.

رغم أن أسماء رضي الله عنها بنت رجل من أغنى الصحابة، وقد عاشت في بيت أبيها على رغد العيش، لكنها صبرت على هذه كله، محتسبة راضية، مطيعة لزوجها، حريصة على مرضاته، وهكذا يجب أن تكون امرأة المسلمة دائماً.

ولقد رآها رسول الله ﷺ مرة وهو على ناقته، وهي تحمل النوى - وهي أخت زوجته عائشة، وزوجة ابن عمته الزبير - فقال لناقته: إخ إخ، ينيخها ليركبها معه فقالت: فاستحييت منه، وذكرت الزبير وغيرته فأبيت، ومضى رسول الله ﷺ ومن معه.

لقد أبت أن تتركب مع الرسول الكريم، الطاهر المطهر المعصوم، خوفاً من سخط زوجها، وما كان زوجها ليسخط، ولكنها المبالغة في مرضاته.

ثم قالت: فلما أتيت الدار، أخبرت الزبير بما حدث، فقال: والله، لحملك النوى كان أشد على من ركوبك معه، قالت: حتى أرسل إلى أبو بكر خادماً، فكفاني سياسة الفرس، فكأنما أعتقني.

لما أعطاها أبوها الصديق رضي الله عنه الخادم ليرعى الفرس، رأت نفسها أنها قد غدت ملكة، تأمل معي أيها القارئ الكريم في هذا الموقف،

وأطل النظر، تسوس الفرس، تحمل النوى على رأسها، يراها النبي ﷺ فيرق لها، ولا ينكر صنيعها، ورغم هذا الإجهاد إلا أنها لا تنسى شئون بيتها، فتقول: أستقي، وأعجن!! فماذا يراد بالمرأة في عصورنا المتأخرة من تزييف الحقائق، وخلع المرأة المؤمنة من إيمانها وعقيدتها ويقينها؟

عبرة:

يا أيتها الأخت الكريمة، يا من لها زوج فقير، فهي تتألم للحرمان، وتكاد تدم القدر، اسمعي لقد صبرت أسماء على هذا كله، فكانت العاقبة أنها اغتنت، وانصبت عليها وعلى زوجها النعم، حتى أنه لما مات الزبير كانت تركته خمسة ملايين درهم، لم يجمعها ﷺ من الحرام، ولا من أخذ أموال الناس، ولا لأنه قعد في المجلس فدرس ووعظ، وقال: أنا حوارى رسول الله، وابن عمته، فأعطوني، بل تاجر مثلما تاجر عبد الرحمن بن عوف والصحابة ﷺ أجمعين، وصار كما صار الكثيرون منهم من أصحاب الملايين، وكذلك كان المسلمون، كانوا رجال دنيا ودين، مال وتقى، كانوا جنداً في النهار، ورهباناً في الليل.

وكان الزبير مع ذلك سمحاً كريماً، كان له هذا المال، وكان له ألف مملوك يشتغلون لحسابه، ولم تجب عليه زكاة قط، لأنه لم يكن يدخر شيئاً، أما هذه السيدة الفاضلة فلم تخجل أولاً من فقر زوجها، ولم تبطر بغناه، وبقيت كما كانت امرأة خير وإحسان.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، كانت أسماء رضي الله عنها مثال الزوجة الصابرة الشاكرة، وكانت دائماً معواناً لزوجها في أعماله، مطيعة له، تخدمه وتسوس له فرسه، تصبر على شدته وغيته وفقره، ولا تشكوه لأبيها ولا لغيره، تحتسب ذلك كله عند الله عز وجل، فقد رباها الإسلام أحسن تربية، وكان للبيت الذي عاشت فيه أثر طيب في سياسة الأسرة، وتدبير شؤون الزوج والأولاد.

ولعلها كانت تحاكي ما كانت تصنعه أمها قيلة بنت عبد العزى رضي الله عنها، فقد كانت تطيع زوجها وتحسن عشرته، وتواجه بحلمها حدته وشدته في بعض الأحيان بسبب أمور الدعوة - فقد كان الصديق الداعية الأول للإسلام - والأم مدرسة لأولادها، يتعلمون منها الكثير من أخلاقها وسلوكها.



صاحبة الشاة المباركة^(١)

لم تكن هذه المرأة التي نحن بصدد سيرتها العطرة من النساء ذوات الشهرة في الجاهلية، فلقد كانت امرأة بدوية بسيطة، لا تتجاوز شهرتها خيمتها، أو أهلها وعشيرتها الذين يعيشون حولها، ولكنها غدت إحدى شهيرات الدنيا لما نزل رسول الله ﷺ ضيفاً عليها في هجرته المباركة إلى المدينة المنورة.

ضيفتنا في هذه السطور، امرأة كانت تحتل مكانة عالية ومنزلة سامقة في قلب الرسول الأعظم ﷺ، وفي قلوب الصحابة وبخاصة الخلفاء الراشدين رضوان الله عليهم أجمعين، فقد كانوا جميعاً يعرفون قدرها ومنزلها وموقفها مع النبي ﷺ في رحلة الهجرة المباركة، نحن على موعد مع المرأة السعيدة، صاحبة الشاة المباركة، نحن نلتقي بساحرة البيان الصحابية الجليلة أم معبد عاتكة بنت خالد رضي الله عنها.

لما نزل رسول الله ﷺ بأم معبد رضي الله عنها حتى بدأت شهرتها تلمع

(١) المواهب اللدنية بالمنح المحمدية ** تاريخ الإسلام ** دلائل النبوة للبيهقي ** الاستيعاب في معرفة الأصحاب ** عيون الأثر ** أنساب الأشراف.

في سماء النساء، فقد كانت بالإضافة إلىكرمها وجودها فصحية
اللسان، سجلت أجمل وصف للرسول ﷺ، لا يزال من أهم المراجع
المحمودة في الشمائل المحمدية.

نحن نتعاش بقلوبنا وأرواحنا مع قصة الحبيب ﷺ مع أم معبد
الخزاعية التي وصفت الرسول الكريم ﷺ وصفًا يعجز البلغاء وأهل
الفصاحة أن يأتوا بمثل هذا الوصف البليغ، فتعالوا بنا لنطوف بين
بستان السيرة لنقطف زهرة زكية جديدة من بستان هذه الصحابية
الجليلة، ونعيش مع هذا المشهد الرباني الفريد.

لما أسرفت قريش في العداوة ودبرت وخططت لقتل النبي ﷺ،
نزل الأمين جبريل وأذنه بمؤامرة قريش، وبإذن ربه له بالهجرة إلى
المدينة، بدأ النبي ﷺ من فوره في تنفيذ أمر ربه، وارتحل النبي ﷺ
ومعه أبو بكر الصديق ومعهما عامر بن فهيرة مولى الصديق ﷺ
يخدمهما، وانطلق الركب العظيم إلى غايته الكبرى، والمطايا
تسرع بهم تارة وتبطئ بهم أخرى، وهم ممعنون في غمار الصحراء
المترامية.

وكانوا كلما أرهقهم السير نزلوا منزلًا، فأخذوا قسطًا من الراحة،
وتلمسوا من الحي المقيمين بقربهم ما عسى أن يكون لديهم من
طعام أو شراب، حتى مروا في طريقهم بخيمتي أم معبد الخزاعية
رضي الله عنها.

وكان منزلها بقُديد -موضع قرب مكة- وهي أعرابية كريمة،

تبدو على ملامحها علامات القوة والصبر والجلد، وكانت تجلس أمام خيمتها مجلس الكرماء، تُطعم وتسقي من يمرُّ بها من المسافرين والسيارة، فلما نزلوا عندها سألوها لحماً وتمراً يشتروه منها، فلم يصيبوا عندها شيئاً، وقالت لهم وهي تبدي عذرها الممزوج بالأسف: والله لو كان عندنا شيء ما أعوزناكم القرى -أي الضيافة- وما كنتم إذاً بحاجة إلى أن تسألوا شيئاً، أو تدفعوا ثمنًا.

وكانت أيام جذب وقحط، واحتبس الغيث، فجذبت الأرض، ونضبت الزروع، وجفت الضروع، وكانت البادية شهباء في قحط شديد، والناس مُرْمَلُونَ مُسْتَتُونَ -أي نفد زادهم-.

نظر رسول الله ﷺ إلى شاة في جانب الخيمة، فقال: ما هذه الشاة يا أم معبد؟ قالت: هذه شاة خلفها الجهد -الضعف- عن الغنم، فقال: هل بها من لبن؟ قالت: هي أجهد من ذلك، قال: أتأذنين أن أحلبها؟ قالت: نعم بأبي أنت وأمي، إن رأيت بها حلباً فاحلبها، فمسح رسول الله ﷺ بيده على ضرعها، وذكر اسم الله ودعا وقال: اللهم بارك في شاتها.

فتفاجت -أي فتحت ما بين أرجلها- ودرت باللبن، فدعا بإناء يُرْبِض الرهط -يشبع الجماعة- فحلب فيه حتى علتة الرغوة، فسقاها حتى رويت، وسقى أصحابه حتى رووا، وشرب ﷺ آخرهم، وقال: ساقى القوم آخرهم شرباً، ثم حلب فيه ثانياً، حتى ملأ الإناء

فغادره عندها ثم ارتحلوا عنها، وقد فازت أم معبد بدعوة مستجابة بالبركة من النبي ﷺ.

وما هو قليل حتى جاء زوجها أبو معبد يسوق أعنزاً عجافاً هزالاً ضعافاً يتمايلن من شدة ضعفهن، فلما رأى اللبن عند أم معبد، عجب وقال: من أين لكم هذا يا أم معبد، والشاة عازب ولا حلوب في البيت؟ قالت: لا والله، إلا أنه مر بنا رجل مبارك كان من حديثه كذا وكذا، ومن حاله كذا وكذا، قال أبو معبد: إني والله أراه صاحب قريش الذي يُطلب، ثم قال: صفيه لي يا أم معبد، فجعلت أم معبد تصفُ له ما بهرها منه، ووصفته بصفاته الرائعة بكلمات رائعة، آسرة ساحرة، كأن السامع ينظرُ إليه وهو أمامه، وقالت تصفه ﷺ:

ظاهرة الوضأة، أبلجُ الوجه، حسن الخلق، لم تبعه ثُجلة - أي ضخامة البطن-، ولم تُزر به صُعلة، وسيم قسيم، في عينيه دعج -سواد العين- وفي أشفاره وطف -أي في شعر أجفانه طول- وفي صوته صحل، وفي عُنقه سطع، أحور، أكحل، أزج، أقرن، شديد سواد الشعر، إذا صمت علاءُ الوقار، وإن تكلم علاه البهاء، أجمل الناس وأبهاهم من بعيد، وأحسنهم وأحلاهم من قريب، حلو المنطق، فصل، لا نزر ولا هذر، كأن منطقَه خرزات نظم يتحدرن، ربعة لا تقتحمه عين من قصر، ولا تشنؤه من طول، غصن بين غصنين، فهو أنضر الثلاثة منظرًا وأحسنهم قدرًا، له

رفقاء يحفون به إذا قال استمعوا لقوله، وإذا أمر تبادروا إلى أمره،
محفود محشود، لا عابس ولا مُفند.

فقال أبو معبد: والله هذا صاحب قریش الذي ذكروا من أمره
ما ذكروا، لقد هممت أن أصحبه، ولأفعلن إن وجدت إلى ذلك
سبيلاً، وأصبح صوت بمكة عاليًا يسمعونه، ولا يرون من القائل:

جزى الله رب الناس خير جزائه

رفيقين حلاً خيمتي أم معبد

هما نزلا بالبر وارتحلا به

وأفلح من أمسى رفيق محمد

فيا لقصى ما زوى الله عنكم

به من فعال لا تجازى وسؤدد

ليهن بني كعب مكان فتاتهم

ومقعدها للمؤمنين بمرصد

سلوا أختكم عن شاتها وإنائها

فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد

ولقد لامست نسمة الإيمان قلب أم معبد منذ اللحظات
الأولى التي سمعت وشاهدت فيها النبي ﷺ، فعندما مر بها فتیان

قريش وسألوها عن رسول الله ﷺ - وكانوا يلاحقونه - أشفقت عليه منهم، فتعاجمت عليهم، وقالت لهم: إنكم تسألون عن شيء ما سمعت به قبل عامي هذا.

عبرة:

يا أيتها الأخوات المؤمنات، تلك كانت قوة البيان عند نساء الصحابة الكرام، إذ جمعن بين قوة البيان في ألفاظهن، وقوة الإيمان في قلوبهن، ففعلت ألفاظهن في المؤمنين فعلها، ونحن ندعو الله عز وجل أن يرزق نساء المسلمين احتذاء طريقهن، فيجمعن بين الإيمان في قلوبهن، وحسن الدعوة في خطابهن، فينلن بذلك الشرف والعز في الدنيا، والسعادة في الآخرة.

وإن كان لنا من وصية لنسائنا فإنها الدعوة إلى الارتباط الوثيق بالكتاب والسنة فإنهما أعز المصادر عندنا، وبالارتباط الوثيق بهما تتحسن لغة المرء، وتعذب ألفاظه، ويقوى إيمانه، وإذا تحقق ذلك، كان شرفاً لصاحبه، وفخراً وعزاً.

يا أيتها الأخت الكريمة، في هذا الموقف حدثت معجزة عظيمة لرسول الله ﷺ حيث مسح على ضرع تلك الشاة الخالية من اللبن فدرت حالاً وشربوا جميعاً من حليبها، وقد تكررت هذه المعجزة لرسول الله ﷺ في هذه الرحلة المباركة وفي غيرها، وهذا الموقف أيضاً يشتمل على معجزة أخرى للنبي ﷺ وهي ما حصل لغنم تلك المرأة المباركة من البركة والنماء، حتى سمّت النبي ﷺ، ولقد

إكرام النبي ﷺ أم معبد بعد ذلك حينما جاءت إلى المدينة ورفع
قدرها.



المرأة الملهمة^(١)

يحفل تاريخنا القديم والمعاصر بصفحات ناصعة لنماذج فريدة لنساء ضربن أروع الصور لوفائهن لأزواجهن فخلدهن التاريخ، وكتب أسماءهن بسطور من نور في جبين الزمن، ومن أبرز هؤلاء ضيفتنا في هذه السطور، فهي امرأة جمعت بين العلم والحكمة، وحسن التدبير، ودماثة الخلق، وصدق المقال، وسلامة الفطرة، فقد قدرت الأمور قدرها، والتمست لأهلها السلامة بكل سبيل، وساقتهم بالحكمة إلى الحق، وذلت ما في طريق هدايتهم من عقبات كؤود.

نحن على موعد مع، امرأة من نساء الأنصار تأتي لتأخذ مكانتها في عالم النساء ممن خلفن آثارًا وضيئة في تاريخ النساء، نحن نلتقي الآن مع الصحابية الجليلة عمرة بنت حزم النجارية زوجة الشهيد النقيب سعد بن الربيع رضي الله عنهما.

ففي شأن هذه الصحابية المؤمنة وابنتيها، أنزل الله عز وجل

(١) سنن أبو داود ** سنن الترمذي ** سنن ابن ماجه ** مسند الإمام أحمد ** طبقات ابن سعد ** سير أعلام النبلاء.

قرأنا ودستوراً للناس، ينص هذا الدستور القرآني على إبطال عادة جاهلية مقبحة، كانت تهضم حقوق المرأة ولا تعترف بمكانتها، ألا وهي عدم توريث الإناث، وهي سنة من سنن العرب في الجاهلية، ذلك أن النساء لا يؤول إليهن من ميراث الرجل شيء، فجاء القرآن الكريم وأحل المرأة المكانة التي تستحق، وأنقذها من شرك الجاهلية العمياء.

ولنتابع ذلك فقد روي أنه لما استشهد سعد بن الربيع رضي الله عنه في غزوة أحد، وترك ابنتين، وكان المسلمون يتوارثون على ما كان في الجاهلية، لأن أهل الجاهلية كانوا يجعلون جميع الميراث للذكور دون الإناث، حتى استشهد سعد بن الربيع رضي الله عنه، فأخذ عمهم الميراث، ولم تنزل الفرائض بعد.

وكانت عمرة زوج سعد امرأة حازمة صابرة، فساءها ما صنع أخو زوجها، وفزعت إلى رسول الله ﷺ تشكو ما حدث لينطق بحكم الله جل وعلا، وينقذها وابنتيها من ظلم الجاهلية، فكان ذلك.

وقد روي عن جابر بن عبد الله بن حرام رضي الله عنه أنه قال: جاءت امرأة سعد بن الربيع إلى رسول الله ﷺ وقالت: يا رسول الله، هاتان ابنتا سعد بن الربيع، وقد قتل أبوهما معك يوم أحد شهيداً، وإن عمهما أخذ مالهما فلم يدع لهما مالا ولا ينكحان إلا ولهما مال.

فقال الحبيب المصطفى ﷺ: يقضي الله في ذلك، فنزلت آية

الميراث فأرسل رسول الله ﷺ إلى عمهما، فقال: أعط الثلثين لابنتي سعد، وأمهما الثمن، وما بقي فهو لك.

وعند ذلك كبرت امرأة سعد، وسُرت بحكم الله عز وجل الذي نزل بالفصل، وأمر بالعدل بين الناس، وآية الميراث التي نزلت هي قول رب العزة سبحانه: ﴿يُوصِيكُمُ اللَّهُ فِي أَوْلَادِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثِيَيْنِ فَإِنْ كُنَّ نِسَاءً فَوْقَ اثْنَتَيْنِ فَلَهُنَّ ثُلُثَا مَا تَرَكَ وَإِنْ كَانَتْ وَاحِدَةً فَلَهَا النِّصْفُ وَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ مِمَّا تَرَكَ إِنْ كَانَ لَهُ وَلَدٌ فَإِنْ لَّمْ يَكُنْ لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ فَإِنْ كَانَ لَهُ إِخْوَةٌ فَلِأُمِّهِ السُّدُسُ مِنْ بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِي بِهَا أَوْ دَيْنٍ آبَاؤُكُمْ وَأَبْنَاؤُكُمْ لَا تَدْرُونَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ لَكُمْ نَفْعًا فَرِيضَةٌ مِّنَ اللَّهِ إِنْ اللَّهُ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ (النساء: ١١).

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، إن هذا الموقف مليئة بالعظات والعبر، وإن أبرز ما في هذا الموقف، حُسْنُ التوكل على الله، وعظيم الرجاء في رحمته، فقد كانت عمرة رضي الله عنها تثق كل الثقة في فضل الله تعالى، وتوقن اليقين كله بأن الله سبحانه وتعالى لن يقطع رجاءها حين طلبت من رسول الله ﷺ الحل لهذا الموقف الصعب، فقد كانت رضي الله عنها امرأة لا تعرف اليأس، ولا يعرف اليأس لها طريقاً، وكيف تيأس من رحمة الله وقد آمنت بربها إيماناً لا يخالجه شك ولا تعتريه شبهة، لقد كانت تعلم أن الأمر كله لله، وأنه سبحانه

أرحم بعباده من أنفسهم على أنفسهم، وأن وراء كل محنة منحة،
وأن مع العسر يسراً.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، هكذا تنزل القرآن بسبب السيدة
عمره، ليمحو عادة جاهلية كثيراً ما تسببت في ضياع حق النساء،
ويأمر المسلمين بإعطائهن حقوقهن وتسليمها إليهن كفريضة يُتعبّد
بها إلى الله، وفي هذه الأسرة المؤمنة التي رأت - ورأى معها العالم
أجمع - كيف أعطى الإسلام للمرأة حقوقها المالية وكرمها، وجعل
المسلمين يتعبدون إلى الله ويطيعونه بإعطائها حقوقها وميراثها.



الرضية الصابرة^(١)

إن الاستجابة لله وللرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه هي الحياة الحقيقية، وهي تُقدم على حظوظ النفس وشهواتها ورغباتها، لأن سبحانه هياً لعباده المؤمنين منازل في دار كرامته لم تبلغها أعمالهم، ولم يكونوا بالغياها إلا بالبلاء والمحن، فقيض لهم الأسباب التي تبلغهم إليها من ابتلائه وامتحانه، كما وفقهم للأعمال الصالحة التي هي في جملة أسباب وصولهم إليها، والشهادة عند الله من أعلى مراتب أوليائه، والشهداء هم خواصه والمقربون من عباده، وليس بعد درجة الصديقية إلا الشهادة.

ضيفتنا في هذه السطور، صحابية جليلة كانت مثلاً صادقاً في العقيدة التي رسخت في أعماق قلبها، وخلت من كل شبهة ترد عليها، واستهانت في التمسك بها بكل ما لقيته في سبيل نصرتها من ويلات، ولقد كانت ﷺ مثلاً صادقاً في الطهر والحصانة والنزاهة عن كل ما يعاب به إنسان في خلائقه وشيمه.

نحن على موعد مع، الزهرة البهية في بستان الصبر واليقين أم

(١) السيرة الحلبية ** الاستيعاب في معرفة الأصحاب ** طبقات ابن سعد ** البداية والنهاية

** دلائل النبوة لأصبهاني ** المغازي للواقدي.

خلاد هند بنت عمرو بن حرام رضي الله عنها، فتعالوا بنا لنرى موقفًا من مواقفها الإيمانية العظيمة، إنه موقف يعبر عن صدق إيمانها، وصدق صبرها، وحسن يقينها.

لما خرج المسلمون يوم أُحُد لصد الطوفان الوثني عن غزو المدينة، قال الرسول القائد ﷺ: يا معشر المؤمنين، قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين، فقام الأسد العجوز عمرو بن الجموح رضي الله عنه وهو أعرج وقال: والله لأقحزن عليها في الجنة، وكان لعمرو أربعة أبناء ظهرت فيهم الرجولة المبكرة، وتجلت منهم البطولة الباهرة فواصلوا الجهاد مع رسول الله ﷺ.

وحاول الأبناء الأربعة أن يمنعوا أباهم من الخروج للجهاد فهو شيخ كبير طاعن في السن قد تجاوز السبعين من عمره، وهو كذلك أعرج شديد العرج وقد عذره الله جل وعلا فيمن عذرهم فقالوا له:

يا أبانا إن الله عذرك فعلام تكلف نفسك ما أعفاك الله منه؟ فغضب الشيخ من قولهم أشد الغضب، وانطلق إلى رسول الله ﷺ يشكوهم، فقال: يا نبي الله، إن أبنائي هؤلاء يُريدون أن يحبسوني عن هذا الخير، وهم يتذرعون بأني شيخ كبير، وبعرجي والله إني لأرجو أن أظأ بعرجتي هذه الجنة، فقال الرسول ﷺ لأبنائه: دعوه لعل الله يرزقه الشهادة.

ودبت الفرحة في مفاصل الشيخ الأعرج وانتعشت روحه، وسرت الشجاعة في نفسه، فأسرع إلى بيته وتجهز وشاهدته زوجه هند بنت

عمرو فتبعته وسمعت منه كلامًا عجيبيًا، قالت هند: كأني أنظر إليه قد أخذ درقته -الترس-، وهو يقول: اللهم ارزقني الشهادة، ولا تردني خائبًا إلى أهلي.

وخرج عمرو إلى أحد فكان من أوائل الشهداء هو وابنه خلاد، وعبد الله بن عمرو بن حرام أخو هند ﷺ أجمعين.

وصل الخبر إلى هند بنت حرام بأن زوجها وابنها وأخاها قد حظوا بالشهادة فأنت مكان الشهداء في أحد وحملتهم على بعير لها تريد أن تدفنهم في المدينة، فلقيتها في الطريق أم المؤمنين عائشة في نسوة فقلن لها: عندك الخبر، فما وراءك يا هند؟

قالت هند: خيرًا أما رسول الله ﷺ فصالح ودفع الله عز وجل عنه، وكل مصيبة بعده جلل -هينة- واتخذ الله من المؤمنين شهداء، وأما قريش فقالت: قول رب العزة سبحانه عنهم: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيمًا﴾ (الأحزاب ٢٥).

وسألتها الصديقة بنت الصديق رضي الله عنهما: من هؤلاء يا هند؟ قالت: أخي عبد الله، وابني خلاد، وزوجي عمرو بن الجموح أريد أن أذهب بهم إلى المدينة أقبرهم بها، ثم زجرت بغيرها نحو المدينة فبرك فزجرته فقام ثانية وزجرته نحو المدينة فبرك، وصار كلما توجهه إلى المدينة يبرك فوجهته إلى أرض أحد فأسرع.

فرجعت إلى النبي ﷺ وأخبرته بذلك كما أخبرته بدعاء زوجها قبل خروجه إلى أحد فقال: إن الجمل مأمور يا أم خلاد، لقد استجاب الله عز وجل دعاء عمرو فنال الشهادة، ثم قال ﷺ لها: يا هند ما زالت الملائكة مظلة على أخيك من لدن قُتل إلى الساعة ينظرون أين يُدفن.

ثم مكث ﷺ حتى دُفن الشهداء، وقال: يا هند قد ترافقوا في الجنة جميعًا: عمرو بن الجموح، وابنك خلاد، وأخوك عبد الله، فقلت: يا رسول الله ادع الله عسى أن يجعلني معهم، فقال: أنت معهم.

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، هذا الموقف من أبداع الأمثلة التي وقفتها امرأة في الصبر والتسليم، كانت هند بطلة هذا الموقف الإيماني البديع، امرأة فقدت أخوها الوحيد، وزوجها الحبيب، وابنها الصغير، ومع ذلك هي رضية، لم يشغلها موت عائلتها بقدر خوفها على حياة النبي ﷺ، فحينما لقيتها عائشة رضي الله عنها ونسوة قالت: الحمد لله أما رسول الله سالم، لم تذكر ﷺ المصيبة التي وقعت عليها، بل قالت: كل مصيبة بعد النبي ﷺ هينة، هذا هو الحب في أعلى درجاته، وأعلى درجات سمو الروح والنفس.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، هذا الموقف يدل على قوة الإيمان، ورسوخ اليقين في قلب هند بنت حرام رضي الله عنها،

فهند قد نُعي لها زوجها وأخوها وابنها فلم تتأثر بذلك، بل فرحت واستبشرت بسلامة النبي ﷺ، لقد استصغرت ﷺ كل مصيبة تصاب بها أو يصاب بها غيرها ما دام رسول الله سالماً، وهذا دليل على كمال محبة رسول الله ﷺ في قلبها وهي من كمال الإيمان، كما أن عدم تأثر هند بموت زوجها وأخيها وابنها دليل واضح على كمال اتصافها بالصبر الجميل والرضا بقضاء الله تعالى وقدره، لقد كانت قوية الإيمان راسخة اليقين حينما قالت: يا رسول الله ادع الله لي أن يجعلني معهم.

يا أيتها الأخت المؤمنة، ها هي عائشة ﷺ سيدة الإسلام الأولى، مشغولة بالمعركة التي هي قضية الأمة الأولى ضاربة المثل الأعلى لكل امرأة أن تكون ساعة الخطر عند حسن الظن بها.

وتأملوا معي قوة الأعصاب، وسلامة المنطق، منطق أم خلاد رضي الله عنها: أما رسول الله فصالح، لقد كانت معه بقلب المؤمن، وإرادته الماضية، وهل هناك صلاح للأمة إلا بعد وجود قائد مؤمن قوي، وأمة تقف من ورائه في ساعة العسرة على هذا النحو الفريد، وحين ييشرها الرسول القائد ﷺ بأن شهداءها في الجنة تثور أشواقها إلى صحبتهم في الجنة كما صحبتهم في ساحات الجهاد، ألا إن أمة تملك هذا الإيمان، وهذا التصميم لن تموت أبداً.



أم شيخ الصحابة^(١)

أنى اتجهت إلى المكارم تجد هذه الصحابية الخيرة في ذروتها، ولا عجب في هذا، فإن لها خصيصة نادرة بين أمهات الصحابة، فهي أم أول مدعو إلى الإسلام، شيخ الصحابة وسيدهم، وأفضل أتباع الأنبياء والمرسلين، الصديق الأكبر، والصاحب الأخص لسيد البشر، وأول من أسلم من الرجال، وثاني اثنين، رفيق أعظم رحلة في هذا الكون، وخليفة رسول الله ﷺ، وهي كذلك جدة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وجدة فدائية الإسلام الأولى أسماء، أليست هذه المرأة أم الخير كله؟ حقاً إنها كذلك، ضيفتنا في هذه السطور أم الخير سلمى بنت صخر رضي الله عنها، فتعالوا بنا لنرى كيف أسلمت هذه الصحابية العظيمة.

كانت أم الخير شديدة البر بالنبى ﷺ وكانت تعرفه معرفة الأم الخيرة بولدها، فهو صديق ابنها أبي بكر ورفيقه دربه من الصغر، ولذلك عرف الإسلام طريقه إلى قلب أم الخير في نسمات الأولى لرياح الإيمان عندما هبات على صخور مكة.

(١) أسد الغابة في معرفة الصحابة ** البداية والنهاية ** المصباح المضي ** الرياض النضرة ** التاج الجامع للأصول ** سيرة ابن كثير.

ذكر أصحاب التراجم والسير أن أم الخير قد أسلمت قديمًا في دار الأرقم بن أبي الأرقم، وبايعت النبي ﷺ، ولإسلام أم الخير ﷺ قصة شائقة ترويه لنا أم المؤمنين عائشة ﷺ فقد قالت:

لما اجتمع أصحاب النبي ﷺ وكانوا ثمانية وثلاثين رجلًا، ألح أبو بكر ﷺ على رسول الله ﷺ في الظهور، فقال: يا أبا بكر إنا قليل، فلم يزل أبو بكر ﷺ يلح على رسول الله ﷺ حتى ظهر وتفرق المسلمون في نواحي المسجد، وقام أبو بكر في الناس خطيبًا ورسول الله ﷺ جالس، فكان أول خطيب دعا إلى الله وإلى رسوله.

فثار المشركون على الصديق وعلى المسلمين فضربوهم في نواحي المسجد ضربًا شديدًا، ووطئ أبو بكر وضرب ضربًا شديدًا ودنا منه الفاسق عتبة بن ربيعة فجعل يضربه بنعلين مخصوفتين ويحرفهما لوجهه، وبرك على بطن الصديق حتى ما يعرف وجهه وخفي على الناظر مكانه أنفه.

وجاء بنو تيم يتعادون فأجلوا المشركين عن أبي بكر وحملوه في ثوب حتى أدخلوه بيته، ولا يشكون في موته، ورجع بنو تيم فدخلوا المسجد وقالوا: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة بن ربيعة، ورجعوا إلى أبي بكر فجعل أبو قحافة والده وبنو تيم يكلمون الصديق حتى أجابهم فتكلم آخر النهار فقال: ما فعل رسول الله ﷺ؟

وكأنما نزلت على بني تيم صاعقة من اللهب، وسرت فيهم
قشعريرة الغضب، فنالوا بالسنتهم ولاموه وعنفوه، ثم قاموا وقالوا
لأمه أم الخير: انظري أن تطعميه شيئاً أو تسقيه إياه يرد إليه نفسه،
فلما جاءت به وألحت عليه جعل يقول لها: ما فعل رسول الله ﷺ؟
وأبى أن يأكل أو يشرب حتى يعلم ما فعل رسول الله ﷺ.

ودهشت أم الخير من أمر ابنها وقالت: والله ما لي علم بأمر
صاحبك؟ فقال: يا أمي، اذهبي إلى أم جميل فاطمة بنت الخطاب
فسليها عنه، فخرجت حتى جاءت أم جميل فقالت: إن أبا بكر
يسألك عن محمد بن عبد الله.

أوجست أم جميل خيفة في نفسها من أن تكون أم الخير عيناً
من عيون المشركين عليها وعلى النبي ﷺ وقالت: ما أعرف أبا
بكر ولا محمد بن عبد الله، وإن كنت تحبين أن أذهب معك إلى
ابنك فعلت؟ فقالت أم الخير: نعم.

مضت أم جميل حتى وجدت أبا بكر صريعاً دنفاً -دنفاً أي
ثقل من المرض ودنا من الموت- فدنت منه أم جميل، وغلبها
الإشفاق، وأعلنت الصياح، وقالت: والله إن قوماً نالوا منك هذا
لأهل فسق وكفر، وإنني لأرجو أن ينتقم الله لك منهم.

فما زاد أبو بكر ﷺ أن قال: فما فعل رسول الله ﷺ؟ يا أم جميل،
أشارت أم جميل إلى أم الخير بحذرٍ وقالت لأبي بكر: هذه أمك
تسمع؟

قال: فلا عَيْن عليك منها، قالت: هو سالم صالح على ما تحب، فقال الصديق: فأين هو الآن؟ قالت: في دار الأرقم بن أبي الأرقم، قال: فإن لله عليّ أن لا أذوق طعامًا، ولا أشرب شرابًا حتى آتي رسول الله ﷺ.

نظرت إليه أم الخير نظرة مملوءة بالعطف والرحمة والحنان، وأكبرت أم جميل موقفه فأمهلتاه حتى إذا هدأت الرجلُ -أي سكنت الحركة- وسكن الناس خرجتا به يتكئ عليهما ولا يقدر على حمل نفسه، ثم أدخلته على النبي ﷺ وهو بتلك الحالة، فانكب عليه رسول الله ﷺ فقبله وانكب عليه المسلمون، وورق له رسول الله ﷺ رقة شديدة، فقال أبو بكر: بأبي أنت وأمي يا رسول الله، ليس بي إلا ما نال الفاسق من وجهي، وهذه أُمِّي برة بولدها، وأنت مبارك، فادعها إلى الله، وادع الله عز وجل لها عسى أن يستنقذها بك من النار.

فدعا لها رسول الله ﷺ ودعاها إلى الله فأسلمت في مكانها، ومنذ هذه لحظة سعيدة، ابتدأت أم الخير صفحة جديدة من حياتها إذا انضمت إلى ركب المؤمنين الصادقين السابقين، وقرت عين الصديق بإسلامه أمه، ولقد تعرضت أم الخير كغيرها من المؤمنين للأصناف العذاب، فأذن لهم رسول الله ﷺ بالهجرة إلى المدينة المنورة، فهاجرت أم الخير مع من هاجر لتكمل حياة العطاء في مرضاة الله عز وجل.

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، يظهر لنا في هذا الموقف بر الصديق ﷺ بأمه وحرصه على هدايتها في قوله لرسول الله ﷺ: هذه أُمِّي برت بولدها، وأنت مبارك فادعها إلى الله وادع الله لها عسى أن يستنقذها بك من النار، إنه الخوف من عذاب الله والرغبة في رضاه وجنته، ولقد دعا رسول الله ﷺ لأم أبي بكر بالهداية فاستجاب الله له، وأسلمت أم أبي بكر وأصبحت من ضمن الجماعة المؤمنة المباركة التي تسعى لنشر دين الله تعالى، ونلمس رحمة الله بعباده ونلاحظ من خلال الحدث: قانون المنحة بعد المحنة.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، لقد رأينا أيضاً في هذا المشهد موقفاً رائعاً للصديق ﷺ في حب النبي ﷺ، فلقد حُمل الصديق ﷺ إلى بيته مُشوه الوجه فاقد الوعي من أثر ذلك الضرب المبرح، حتى كان قومه يتوقعون هلاكه، ومع ما أصابه من تلك الآلام الشديدة فإنه لما أفاق كان أول كلام نطق به أن سأل عن حبيبهِ ﷺ.

لقد كان موقفاً سامياً بلغ فيه الصديق أعظم ما يمكن أن يصل إليه المسلم من الحب في الله تعالى، لقد كان يشعر بأن حياته وكل ما يملك لا تساوي شيئاً أمام سلامة رسول الله ﷺ، ولقد وقف قومه مدهوشين ذاهلين من هذا الموقف المحير، رجل بين الحياة والموت ينسى نفسه وأهله، ويذهل عن كل ألم يُمضُ جسده ليتذكر

شيئاً واحداً هو السؤال عن رسول الله ﷺ، ثم يرفض تناول الطعام والشراب مع إلحاح أمه عليه حتى يروي غليله ويطفئ لهيب شغاف قلبه بالاطمئنان على سلامة رسول الله ﷺ واكتحال عينيه برؤيته.



مربية الأبطال^(١)

نحن أولاء مرسلو القول في سيرة امرأة عظيمة المكانة جليلة القدر، ذات شهرة واسعة في عالم النساء خصها الله عز وجل بنعمة الإيمان، والسبق إلى الإسلام، قد عرفت برباطة الجأش في مواقف الخطر، والدفع عن الحق بالحجة القوية الدامغة، ورجاحة التفكير في المواقف الصعبة التي تتزعزع فيها إرادة الإنسان، ويفلت من يده زمام تفكيره.

ضيفتنا في هذه السطور، امرأة يعجز القلم عن وصف فضائلها ومكارمها فلقد جمع الله له الكثير والكثير من المكارم، فإذا أردت أن تتكلم عنها كزوجة فهي الزوجة الوفية التي تعرف حق زوجها، وإن أردت أن تصفها كأم فهي الأم الرحيمة الرؤوم التي ربت المجاهدين الأبطال، وإن أردت أن تتحدث عن عبادتها لله فهي الصائمة القائمة بالذاكرة لله، وإن أردت أن تتحدث عن جهادها فهي التي كانت تدافع وتنافح عن رسول الله ﷺ في كل عراك.

(١) الإصابة في تمييز الصحابة ** طبقات ابن سعد ** عيون الأثر ** السيرة الحلبية ** سيرة ابن هشام ** عيون الأثر لابن سيد الناس.

نحن على موعد مع هذا المثل الحي الذي يُثبت للكون كله أنه لا مستحيل في ظل العقيدة الراسخة، والإيمان العميق، إنها أعظم وأشجع مقاتلة في تاريخ الإسلام، إنها أسطورة نساء الأنصار أم عمارة نسيبة بنت كعب الأنصارية رضي الله عنها.

كانت أم عمارة رضي الله عنها من أولئك اللاتي تألق ذكرهن في تاريخ المؤمنات الصابرات الصدقات، فقد كانت من خيار المجاهدات اللاتي ضربن بسهم وافر في نصره الدين في كثير من الموطن، وأثبتت للعالمين أن المرأة السلمة لو تسلحت بالإيمان الكامل، والعز الصادق، والإرادة القوية، لصنعت المعجزات، وضربت أروع الأمثال في البطولة النادرة، والشجاعة الخارقة للعادة.

إنها امرأة آمنت بربها، واستمسكت بالعروة الوثقى، وزادها الله يقيناً وهدى، ومنحها القوة على تحمّل الشدائد، ومواجهة الصعاب، نحن على موعد في هذه السطور مع هذه الأم العظيمة نقرب من سيرتها في غبطة وسرور لنعلم كيف ربت ابنها، وكيف جعلت منه عملاً من عمالقة من الجيل الرباني، ففعالوا بنا لنطوف بين أزهار السيرة النبوية الشذية لنقتطف بعض أزهار هذه التربية الندية.

ابتدأت بيعة العقبة الثانية، فقام الرجال يصافحون النبي ﷺ، ويشهدون شهادة الحق، ويقرون البيعة، فإذا بين هذه الأيدي المباركة، امتدت يد صغيرة، غضة طرية، واحتضنت اليد الطاهرة الشريفة، ونظر النبي ﷺ إلى صاحب هذه اليد الصغيرة التي تأخذ

البيعة وابتسم، إنه طفل صغير لم يبلغ الحلم بعد، لكنه شديد الثقة بنفسه، مطمئن لهذا الرسول الكريم وما جاء به من الحق.

نعم كان صغير السن، أخضر القلب، لكنه كبير العقل، يمتلئ قلبه بنور الإيمان، وكيف لا، وأسرته كلها جاءت لتبايع النبي ﷺ، إنه شبل الأسد الصحابي الفذ حبيب بن زيد بن عاصم الأنصاري رضي الله عنهما.

فأبوه زيد بن عاصم رضي الله عنه كان أحد السبعين الذين جاءوا ليبايعوا النبي ﷺ بيعة العقبة الثانية، وأحد الفرسان المغاوير، ولم يكن الأب وحده هو الذي جاء في هذه البيعة المباركة، وإنما اصطحب معه ولديه عبد الله وحبيب، وكانت زوجته أيضًا في هذا اليوم المشهود، وهي السيدة الجليلة أم عمارة نسيبة بنت كعب رضي الله عنها، وهي أول امرأة حملت السلاح لتدافع به عن دين الله عز وجل، وعن وجه رسول الله ﷺ.

فمنذ أن مد حبيب بن زيد رضي الله عنه يده البضة الصغيرة لتصافح تلك اليد الطاهرة المباركة يد الرسول الأعظم صلوات ربي وسلامه عليه، وقد شعر أن ثمة قوة من الإيمان تتدفق في صدره، وتملأ قلبه الأخضر روعة وفرحة أن صار أحد الموحدين الذين آثروا الباقية على الفانية.

فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة، كان ذلك الشبل أحد الذين سعدوا أيما سعادة لتشريفه لهم، فكان يجلس بين الرجال

يرفع رأسه، ويصيغ السمع، وترتسم على محياه البديع ابتسامات مضيئة رائعة، والنبى ﷺ يتكلم بكلمات أغلى من ماء العيون، ولطالما تحدث النبى ﷺ عن الجهاد، وعظمة الشهادة في سبيل الله، فكان شبل الأسد يتوق شوقاً للشهادة في سبيل الله، ونيل هذا الشرف العظيم.

فلما كانت غزوة بدر، حمل حبيب السيف، وراح يحاول الانضمام إلى جيش النور، بيد أن رسول الله ﷺ استصغره ورده ردًا جميلًا.

وعاد شبل الأسد ليعاود الكرة مرة أخرى في غزوة أحد، لكنه لم يستطع المشاركة نظرًا لصغر سنه، - وفي رواية إنه اشترك في أحد - لقد كان حبيب متشوقًا من أعماق قلبه أن يكون له دور، أي دور في هذه المعركة حتى ينال الأجر العظيم من الله عز وجل، ويا حبذا لو نال الشهادة في سبيل الله فهي أمنية كل مؤمن صادق.

لقد كانوا يتعجلون وعد الله عز وجل لهم بدخول الجنة، وكانوا يقاتلون بضراوة، ويرمون بأنفسهم في أتون المعارك، وكانوا حريصين على الموت حرص أعدائهم على الحياة.

فكان النصر دائمًا حليفهم اللهم إلا غزوة أحد، لم يتم لهم النصر كما ينبغي، ونال أعداء الله منهم، لأن بعضهم خلف أمر الرسول القائد صلوات ربي وسلامه عليه، حين نزل الرماة من على الجبل ظنًا منهم أن المعركة انتهت بنصر المسلمين، فما لبثوا أن

أحيط بهم حين هجم عليهم قائد كتيبة الفرسان، وأسقط في أيدي المسلمين، وفر من فر، واختلط الحابل بالنابل.

لكن أم عمارة رضي الله عنها كانت تحمل السيف وتدفع عن وجه رسول الله، وتجلت بطولتها الرائعة التي لا تزال تثير الدهشة والإعجاب كلما استرجعنا مواقفها المثيرة الرائعة.

ولكن هل يأس حبيب بن زيد من المشاركة في القتال؟ فكيف بمن كانت أمه تحمل كل هذا القدر من البطولة والشجاعة أن يأخذ اليأس، أو يغلبه القنوط إنها لا تزال تسقيه عشق الشهادة، وتغرس فيه حب البطولة، وتطعمه الشجاعة.

فكان يزداد تمسكاً بالأمل إنه سيكون يوماً أحد فرسان المدرسة النبوية الخالدة وأحد جنودها المغاوير الأبطال، حتى جاء هذا اليوم سريعاً، فكانت غزوة الخندق أول معارك حبيب، فقد أذن له الرسول القائد ﷺ بالجهاد، فكانت سعادته هائلة وعظيمة، فقد صار مجاهداً بوسعه الآن أن يحمل السيف ويزود عن وجه الإسلام.

وتجلت مهاراته القتالية في المعارك والغزوات، وسعد الرسول ﷺ به، فضلاً عن فصاحته وبلاغته، إذ كان حبيب بن زيد يستمع إلى أحاديث رسول الله ﷺ فتلتصق بقلبه مباشرة، ويستمع إلى السورة من القرآن الكريم، فيمتلأ قلبه بالإيمان، ويزداد يقيناً على يقين، أن دين الله عز وجل هو الحق. وأن محمد بن عبد الله هو خاتم الأنبياء والمرسلين جاء بالمحجة البيضاء الواضحة

الغراء، التي لا يزيغ عنها إلا هالك ولا يتبعها إلا كل منيب سالك، وهكذا تربى هذا الشبل في مدرسة النبوة ليتخرج فيها فارسًا مغوارًا لا يشق له غبار.

فضلاً عن إعداد أسرته له وفي مقدمتهم تلك الأم المجاهدة العظيمة الرائعة أم عمارة نسيبة بنت كعب، وكأنما أعد ذلك الشبل ليكون مهياً لذلك المشهد العجيب، الذي يهز أعماق القلب، ويشير الدهشة والإعجاب برغم ما يحمل من دموية هزت ضمائر المسلمين ولا يزال إلا هو استشهاد بعد تقطيع أوصاله على يد الطاغية الجبار مسيلمة الكذاب.

عبرة:

يا أيتها الأخت الكريمة، لئن كانت الأم مدرسة كما يقال، فما أجل مدرسة السيدة نسيبة بنت كعب وما أسماها، لقد تخرج في هذه المدرسة ولداها اللذان رضعا في لبنها من الصغر الشجاعة والإقدام، والثبات على الحق، وإباء الضيم، وحب الله وحب رسوله ﷺ، فوها نفوسهم في سبيل الدين، ونصرة الحق حتى استشهدا في سبيل الله، وها أنتم قد قرأتم في كتبنا روائع من حياة الصحابة كيف استشهد حبيب ولدها ولو أنه أجرى كلمة الباطل على لسانه، وقلبه مطمئن بالإيمان لنجا، ولكن الإيمان القوي يعمل عمله في النفوس الصادق فتستهين بكل شيء في سبيل العقيدة، وهل تلد العصا غير العصية؟!

لقد كان الدين في حياة الجيل الرباني هو قضية القضايا التي من أجلها يتحركون ويسهرون ويتعبون ويسافرون ويجاهدون، وكان حرصهم على هداية الخلق أشد من حرص الأم على حياة وحيدها فهم خير الناس للناس، وأرحم الناس بالناس، ولهذا انطلق الصحابة في فجاج الأرض ينشرون الهدى حتى مات أكثر الصحابة بعيداً عن بلادهم، لأن الدين هو الذي كان يحرك كل صحابي يخرج من بلده، ويدفعه دفعاً لأداء الأمانة التي ائتمن الله عليها، وهي إبلاغ الحق للخلق بحق وصدق.

يا أيتها الأخوات الكريمات، يبدو أن الأمهات في ذلك الزمان كن يرضعن أولادهن حب الله ورسوله ﷺ، وبغض أعدائه، كما يرضعنهم اللبن، ويبدو أن المهمة كانت أمامهم واضحة جلية حتى وجدنا أثرها في هذا الشاب البطل الذي لا يخشى الموت في سبيل الله.



أم شهيد قضى نحبه^(١)

لقد رفع الإسلام المرأة إلى أبعد مما يطمح خيالها، ويصبو أملها، وساق لها من آي الذكر الحكيم، ما بهر سناه بصرها، وملكت محبته نفسها، واستقادت بلاغته وحسن مساقه قلبها، وأنصت لما وصف به الله رحمته وعزته، وناره وجنته، وما أعد للصabras والمحسنات من جزيل الأجر، وسني المنزلة، فأثار ذلك عاطفتها، وأفاض وجدانها، وأثار بصيرتها، فكان حقاً لذلك الدين القيم أن يصيب حبه قلبها، ويجول في مجال دمها، ويتأشب بين أحناء ضلوعها.

ضيفتنا في هذه السطور، امرأة صادقة الشيم، سابقة بالكرم، ذات تقى وصلاح، وندى وسماح، وعلم وفلاح، فهي من الأمهات ذوات القدر الكبير، صحابية جليلة لها مساحة لا بأس بها في واحات نساء الصحابة وأمهاتهم، كان لها مقالة مسموعة، ومواقف محمودة أيام عصر النبوة، ولها مناقب نادرة بين أمهات الصحابة،

(١) الدر المنثور للسيوطي ** سنن ابن ماجه، مسند الإمام أحمد ** مختصر تاريخ دمشق

** أمهات الصحابة سيرتهن وأثارهن ** المغازي للذهبي.

أسلمت مع ذويها في المدينة قبل الهجرة على يد الداعية الفذ مصعب بن عمير رضي الله عنه.

نحن على موعد مع الصحابية الجليلة في بستان الصبر والإيمان، إنها زهرة عائلة البراء بن معرور خُليدة بنت قيس الأنصارية وهي أم الصحابي الشهيد بشر بن البراء بن معرور رضي الله عنه أجمعين، فتعالوا نعيش سوياً بقلوبنا في بستان فضائل هذه السيدة المباركة.

لقد أنجبت خليدة بشر بن البراء رضي الله عنهما، ولقد نشأ بشرٌ تحت كنف أمه، فكانت ترعاه وتوليه جل اهتمامها، وتوجهه ليتدرب على ألوان الفروسية حتى أصبح من الرُماة المذكورين من أصحاب النبي ﷺ، وشهد المغازي النبوية حتى خبير وبها لقي ربه شهيداً.

كانت خليدة بنت قيس رضي الله عنها تشارك في المعارك الإسلامية مع الرسول القائد، وكان ابنها بشر بن البراء دائماً في مقدمة المجاهدين يدافع وينافح عن عقيدته، وعن دين ربه، وعن الرسول ﷺ، وكان في غزوة أحد يقاتل قتال الأبطال، يبحث عن الشهادة في كل أرجاء الميدان، لكنه خرج سالماً من أحد، واشترك كذلك هو وأمه في غزوة الأحزاب وكان بطلاً من أبطالها المعدودين.

وفي سنة سبع من الهجرة، خرج بشرٌ مع الرسول القائد ﷺ إلى خيبر، وهناك فتح الله عز وجل الحصون الخيرية على يد ليث المجاهدين أسد الله الغالب علي بن أبي طالب رضي الله عنه،

وكان لبشر في فتح خير أحسن البلاء وأعظمه حتى نال أعجب
الرسول القائد والمؤمنين.

وحينما فرغ المسلمون من هذه المعركة الطاحنة، حاول اليهود
اغتيال النبي ﷺ بالسّم، فقد أهدته امرأة يهودية -هي زينب بنت
الحارث- شاة مشوية مسمومة، وأكثر السم في ذراع الشاة حينما
علمت أن النبي ﷺ يحبه، فلما أكل من الذراع أخبرته الذراع أن
الطعام مسموم، فلفظ اللقمة، ولكن بشر ﷺ أكل من الذراع فمات
من أثر السم.

ولما جاء خبر استشهاد بشر للسيدة خليدة صبرت واحتسبت
واستسلمت لأوامر ربها، وقضاء العزيز الحميد، فلم تلطم وجهًا،
ولم تمزق ثوبًا، وإنما صبرت واسترجعت، واجتمع نسوة من نساء
الأنصار عندها للتعزية، لكن خليدة ﷺ قالت: الحمد لله على
استشهاده فقد قضى نجه وهو يجاهد مع رسول الله ﷺ، لإعلاء
كلمة الله جل وعلا.

لقد عجب النسوة من صبر خليدة ﷺ وخرجن، وهن يتحدثن
عما آتاها الله عز وجل من حسن الصبر، وزادها ذلك الموقف في
أعينهن مكانة ورفعة، فأكرم بها وبمواقفها.

ورغم ذلك الصبر الرائع الجميل، فقد ظل خيال ابنها بشر ماثلاً
في وجدانها فقد سألت النبي يومًا: هل يتعرف الموتى يا رسول
الله، قال الصادق المصدوق: نعم يا أم بشر، وعندما حضرة الوفاة

كعب بن مالك رضي الله عنه جاءت إليه خليدة، وقالت: يا أبا عبد الرحمن، إن لقيت ابني فأقرئه مني السلام، فقال: يغفر الله لك يا أم بشر، نحن أشغل من ذلك، فقالت: يا أبا عبد الرحمن، أما سمعت رسول الله ﷺ يقول: إن نسمة المؤمن تسرح في الجنة حيث شاءت، وإن الكافر في سجين، قال: بلى، قلت: فهو كذلك.

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، من خلال هذا المشهد الرائع نستطيع أن نعرف على شخصيتها الكريمة، وإيمانها القوي، وصبرها العظيم، وحكمتها البالغة، فهي امرأة ضربت لنا مثلاً رائعاً للمؤمنين جميعاً رجالاً ونساءً، لكي تكون قدوة لمن أراد أن يحقق لنفسه شعب الإيمان كله، ومكارم الأخلاق في أسمى درجاتها.

من أراد أن يتعرف على الصبر في أسمى صورته فليتعرف عليه من خلال سيرتها العطرة، فهي صابرة تجسد الصبر في حركاتها وسكناتها، ومن أراد أن يتعرف على اليقين في أرقى معانيه فليتوصل إلى معرفته في أوصافها التي خلعها الله عليها.

يا أيتها الأخوات المؤمنات، كان للصحابيات رضي الله عنهن دورٌ بارزٌ في التاريخ الإسلامي، مما جعل منها قدوة لجميع النساء في كل الأزمان، فأقيم العدل بين النساء والرجال، الأمر الذي غير الكثير من المفاهيم التي اتخذها الرجال عن النساء قبل رسالة الإسلام، فتكونت في العصر النبوي أرقى الصور والأساليب

والطرق التي يمكن من خلالها التعامل مع المرأة، بناءً على العقيدة
السليمة التي رسخت في النفوس، وارتبطت بالحقوق المرتبطة
بالمسلم تجاه الله تعالى، وبناءً عليها يترتب الثواب والعقاب في
الحياة الدنيا والآخرة.



لمحات من حياة العظماء

الأمير الحليم^(١)

تتفاوت درجات الناس في الثبات أمام المثيرات فمنهم من تستخفه التوافه فيستحمق على عجل، ومنهم من تستفزه الشدائد فيبقى على وقعها الأليم محتفظاً برجاحة فكره، ورجاحة خلقه، ومع أن للطباع الأصيلة في النفس دخلاً كبيراً في أنصبة الناس من الحدة والهدوء والعجلة والأناة والكدر والنقاء، إلا أن هناك ارتباطاً مؤكداً بين ثقة المرء بنفسه، وبين أناته مع الآخرين وتجاوزه عن خطئهم، فالرجل العظيم حقاً كلما حلق في آفاق الكمال اتسع صدره وامتد حلمه وعذر الناس من أنفسهم والتمس المبررات لأغلاطهم.

ومن هؤلاء الرجال الذين تميزوا بالحلم وعرفوا به، أمير من أعظم الأمراء، فمن يكون، وما هي قصته مع الأعرابي التي صارت مضرب الأمثال في الحلم، وسعة الصدر، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، أمير من أعظم الأمراء، وقائد شجاع من أكابر القادة العظام، تميز بالحلم وسعة الصدر، والإناء وحسن

(١) ولاية مصر للكندي ** بغية الطلب في تاريخ حلب ** بدائع الزهور في وقائع الدهور.

الخلق، كريم الشمائل، جليل الخصال، شديد الورع، عظيم الزهد، كريم يضرب به المثل بالكرم والجود والبذل، يعطي بدون سؤال، كثير الحلم على المذنبين، كان فوق ذلك أسدًا مغوارًا في ساحات الوغى، فهو قائد من قادة فتوح بلاد الروم وأرمينيا في أواخر العهد الأموي، وأحد قادة جيوش الأمير والخليفة الأموي العظيم مروان بن محمد رحمه الله.

نحن على موعد مع، الأمير الباسل، والقائد الشجاع، والرجل الصالح، تميز هذا العملاق بالتقوى والصلاح والورع، كان شديد الخشية والخوف من ربه، لا يقدم على أمر يغضب ربه، شديد التعلق بالصلاة والصيام، في أوقات السلم يتفرغ لكتاب ربه يرتل آياته، ويسبح في بحوره، ويطير في سمائه يلامس النجوم بقلبه، نحن نلتقي بالأمير حوثة بن سهل الباهلي رحمه الله.

في سنة مائة ثمانية وعشرون هجريًا أرسل أمير المؤمنين مروان بن محمد -آخر خلفاء بني أمية في المشرق الإسلامي- قائده حوثة بن سهل الباهلي أميرًا على مصر، وكان رجلًا حليمًا كريمًا، قليل الغضب، يعفو عن من أساءه، ويغفر الزلات، ويرحم أصحاب الحاجات.

ففي ذات يوم جاء إليه رجل من العرب دخل إليه، وهو يريد الدخول إلى داره، فحدثه في حاجة له، فوضع الأعرابي نصل سيفه على رجل الأمير حوثة بن سهل، وطال الحديث بين الرجل

والأمير، وجعل يغوص بالسيف في رجله حتى أدماها، وهو صابر حتى فرغ الأعرابي من كلامه، وأخذ حاجته، ثم سلام الرجل وأنصرف.

فطلب حوثة خرقه ومسح بها الدم عن رجله، فقيل له: لم لا أمرته أن ينحي سيفه عن رجلك أيها الأمير؟

فقال: خشيت أن أقطع عليه كلامه، وهو في حاجته، وفي كربه.

عبرة:

يا سادة، أين هذا الحلم من تكبر أهل زماننا هذا، ولا سيما حكماء اليوم فلو وقع لهم مثل ذلك، لشنقوا الأعرابي، أو ضربوه بالمقارع، أما هذا الوالي الصالح فقد صبر على الأذى حتى لا يقطع كلام الرجل وهو في حاجته وكربه، وهذا مثل عظيم على ما كان عليه السلاطين والأمراء وقادة الإسلام في العصر الذهبي.

يا شباب، لقد كان لهذا الأمير وغيره قدوة حسنة في الرسول الأعظم ﷺ، ألم يكن هو قدوة في الحلم والعفو عن المخطئين والمذنبين، ألم يأتي إليه أعرابي فقام يئول في المسجد، فقال أصحاب رسول الله مه مه - كلمة للزجر - فقال الرسول الأعظم لا تزموه - أي لا تقطعوا عليه بوله - لقد تعاظمت رحمته ﷺ حتى شملت هذا الأعرابي الذي لم يتخلق بعد بأخلاق المدينة، أترانا لو

بحثنا عن مثل هذه المواقف في تاريخ الأمم، هل سنصل إلى شيء
أو مثيل من هذا الحلم على الجاهلين و المخطئين.



غضبك يهون أمام غضب الله^(١)

للعلماء مكانة عظيمة في قلوب الناس حفظها لهم الشرع المطهر لعظم قدرهم في الأمة، ولو نظرنا وتأملنا في صفحات التاريخ كيف أن العلماء كانوا يُشكلون حصن الدفاع الأول عن الأمة جمعاء بمعتقداتها وشرائعها ومناهجها، لعلمنا دورهم البارز وأهميتهم بحيث لن تنهض الأمم إلا بالعلماء العاملين، والمفكرين المخلصين، لذا فقد استحقوا المكانة العالية في الإسلام، ونالوا عن جدارةٍ نوط وراثة الأنبياء من الدرجة الأولى وهو الذي لا يعطى إلا لمن هو أهل له، وقد كان سلاطين الإسلام دائماً يعلمون على توقير العلم والعلماء، وإعطائهم المكانة الخاصة بهم.

ضيفنا في هذه السطور، عالمٌ من أعظم علماء الإسلام، وهب من عزة النفس، ورصانة الخلق، وشدة الإحساس بالكرامة والرجولة ما جعله بين المناضلين الأمثال قمة شماء، عرف هذا الشيخ الجليل كيف يحافظ على كرامته العزيزة في دنيا المطامع والرغبات، فلم

(١) طبقات خليفة بن خياط ** طبقات الفقهاء ** تهذيب التهذيب ** شذرات الذهب **
العبر في خبر من عبر ** تاريخ الفسوي.

يشأن أن يغدق عليه أحد أو ينتظر عطايا الأمراء، رجل عاش حياته
ببذل كلمة الحق لا يخشى فيها لومة لائم، عاش حياته لله ربه
ومات على ذلك.

نحن على موعد مع، الإمام الزاهد التقي الورع، الذي كان يرى
أن جميع الناس أفضل منه، وأنه لا قيمة له بينهم، رغم أنه من
أعظم علماء الإسلام قاطبة، عالم جمع بين بيان الحديث، وحلاوة
المنطق، شديد التعلق بكتاب ربه، يقرؤه ويستخرج منه الدرر
البيهية، والمواعظ الندية، ينشر عبرها بين الناس، نحن نلتقي بأمر
العلماء، التابعي الجليل، العبد الصالح طاووس بن كيسان اليماني
رحمه الله.

كان طاووس ذا نفس تَوَاقَة إلى العلم، والحرص على الفائدة،
وقد وهبهُ الله عز وجل مقومات العالم الرباني، فكان ذا حافظةٍ
قويةٍ، ونفس تقية، فكأنه خُلِقَ للعلم، وعجن بالفهم، وصُيغ بالحلم
والجهر بكلمة الحق، فكان لا يخشى في الله لومة لائم، ونحن في
هذه السطور نتجول معه في روضِ أنفٍ أنيقٍ نكتطف زهرة جميلة
رائعة في مجال الصدع بالحق.

لما قدم الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك البيت الحرام
حاجاً، فلما صار في المسجد واستقر به، قال لخاصته من أهل مكة:
التمسوا لنا رجلاً من صحابة رسول الله ﷺ، فقالوا له: إن أصحاب
النبي ﷺ يا أمير المؤمنين قد تلاحقوا جميعاً بربهم واحداً إثر آخر
حتى لم يبق منهم أحدٌ.

فطلب بإحضار من في مكة من التابعين الذين لحقوا ببعض الصحابة وأخذوا منهما، فجيء له بالتابعي الجليل طاووس بن كيسان اليماني رحمه الله، فلما دخل طاووس مجلس هشام بن عبد الملك خلع نعليه ووضعهما على طرف البساط، ثم أقبل على هشام وسلم عليه من غير أن يدعوهُ بأمر المؤمنين، وخاطبه باسمه دون أن يكنيه، وجلس قريباً منه قبل أن يأذن له بالجلوس.

فلم يتمالك هشام بن عبد الملك نفسه، واستشاط غضباً حتى بدا الغيظ في عينيه، ذلك أنه رأى في تصرفاته تلك اجترأ عليه، ونيلاً من هيئته أمام جلسائه، ورجال دولته، بيد أنه ما لبث أن تذكر أنه في حرم الله عز وجل، فرجع إلى نفسه، وقال لطاووس: ما الذي حملك على ما صنعت يا طاووس.

فقال الشيخ بلهجة هادئة واثقة: وما الذي صنعت يا هشام؟ فعاد إلى الخليفة غضبه وغيظه، وقال بلهجة مهددة متوعدة: كيف تخلع نعليك بحاشية بساطي؟ فقال الشيخ: إني أخلع نعلي بين يدي رب العزة كل يوم خمس مرات، وقد تزيد، فلا يعاقبني، ولا يعاتبني، ولا يغضب علي.

قال هشام: وكيف تتجرأ فتناديني باسمي ولا تكنني؟ قال الشيخ بهدوء: إن الله عز وجل نادى أنبياءه بأسمائهم، فقال: يا داوود، يا يحيي، يا عيسى، وكنى أعداءه فقال: {تبت يدا أبي لهب وتب}.

قال هشام: فلم لم تقبل يدي؟، قال طاووس: إني سمعت أمير

المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: لا يحل لرجل أن يُقبل يد أحد إلا امرأته من شهوة، أو ولده من رحمة.

قال هشام: فلمَ لم تسلم على بإمرة المؤمنين؟ قال طاووس: ليس كل الناس راضين بإمرتك لهم يا هشام، فخشيت إن سلمت عليك بإمرة المؤمنين أن أكون كاذبًا.

قال هشام: ولمَ جلست من غير إذني؟ قال طاووس: إني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: إذا أردت أن تنظر إلى رجل من أهل النار فانظر إلى رجل جالس، وحوله قوم قيام بين يديه، فكرهت أن تكون ذلك الرجل الذي عدّ من أهل النار.

قال هشام: يا طاووس لا تعد لمثلها فأغضب منك غضبًا شديدًا، يوقعك فيما لا تحب، فقال طاووس: يا هشام غضبك يهون، أمام غضب الله عز وجل، فاتق الله أن يغضب عليك فتقع فيما لا تحب.

هنا أطرق هشام رأسه إلى الأرض خجلًا، ثم رفع رأسه، وقد بدأت كلمات الشيخ المؤمن تؤثر فيه فقال: عظمي يا أبا عبد الرحمن.

فقال طاووس: يا هشام، إني سمعت أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام يقول: إن في جنهم حيات كالللال، وعقارب كالجبال تلدغ كل راع لا يعدل في رعيته، يا هشام اتق الله وحده ولا تخشى سواه فيسخط عليك، ثم حمل نعليه وانصرف.

عبرة:

يا شباب، إذا كان للنفوس جهاد، ولجهادها ميادين فطاووس بن كسيان رحمه الله كان أعظم أبطال ذلك النوع من الجهاد، وممن انتصر في كل ميادينه، فقد عاش كما يعيش الصديقون والشهداء ومات على ذلك، كان قوي القلب، صبور النفس، متألق الروح، عاش مطمئنًا راضيًا، كان الحق هدفه دائمًا، لم يخشَ أميرًا ولا سلطانًا في قول الحق، كان نموذجًا فريدًا من أعظم النماذج في هذا المضمار.

يا شباب، حينما يكون الإنسان مخلصًا صادقًا، يبتغي وجهَ الله في كل أفعاله وأقواله، تقع الكلمات التي تخرج من قلبه موقعًا حسنًا في النفوس، فالإنسان الصادق يجعل الله عز وجل لكلامه تأثيرًا واضحًا على المستمعين له، ويلقى رب العزة في قلوب الناس محبته، لأنه ما تكلم الكلمة إلا وهو يريد وجه ربه، فلأجل ذلك سعداء هؤلاء المخلصين الصادقين الدنيا، وسوف ينالهم رضوان ربهم في الآخرة.



نمر ميسور التأثير^(١)

يتحسر المسلمون إلى اليوم على ضياع الأندلس، في حين أن كثيرين لا يعرفون تاريخ الهند الإسلامية التي حكمها الإسلام أكثر من ألف سنة، ثم سقطت في يد الإنجليز، ولقد كانت لهم فيها حضارة عظيمة، لكن للأسف أضاعها المسلمون كما أضاعوا من الأندلس بفعل العديد من العوامل الداخلية والخارجية.

ونحن الآن نعيش في هذه السطور مع عملاق سطر واحدة من أروع ملاحم الجهاد ضد الاحتلال الإنجليزي على أرض الهند، فلقد كان السلطان علي حيدر تيبو -الذي اشتهر بنمر ميسور- مجاهدًا بأسلاً مخلصًا يبتغي من جهاده وجه الله عز وجل، ويخطط لطرد الإنجليز من عموم البلاد، ولقد خاض هذا البطل الجسور في سبيل ذلك معارك حامية الوطيس ضد الإنجليز والخونة على حد سواء، وظل على ذلك حتى استشهد في أرض العزة والفداء.

لقد تولى السلطان علي تيبو مقاطعة ميسور الجنوبية بعد موت

(١) المسلمون في الهند ** الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام ** التاريخ الإسلامي ** تاريخ الحروب الدينية المعاصرة ** تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندو باكستانية.

أبيه المجاهد الأمير حيدر علي خان وذلك سنة ١١٩٦ هجرية = ١٧٨٢ م، فقرر متابعة القتال ضد الإنجليز، وحقق عليهم عدة انتصارات مهمة وطردهم من بلاد الهند الجنوبية، ولكنهم عادوا الكرة واستغلوا فرصة انشغاله بمحاربة الهندوس - حلفاء الإنجليز - في بلاد البيهار جنوب الهند، وهجموا على معاقله واستولوا على العدد منها، فاضطر السلطان تيبو بقبول الهدنة، وأجبر على توقيع معاهدة سرنجا بتام التي فقد فيها كثيراً من أراضيهِ، وذلك سنة ١٢٠٧ هجرية = ١٧٩٤ م.

أخذ تيبو يعمل على إعادة تنظيم جيوشه، وأخذ يفكر في البحث عن حليف قوي لمواجهة الإنجليز، ولكن الأوضاع داخل بلاد الهند وقتها كانت مزرية للغاية، فمعظم الإمارات المسلمة أضعف من أن تدخل في حرب ضد الإنجليز، فبعضهم مشغول بحروب داخلية فيما بينهم، والإمارة الوحيدة القوية هي إمارة حيدر آباد، وقد كانت على خلاف شديد مع إمارة ميسور وسلطانها، حتى أن جيشها كان يحارب في صف الإنجليز، ورغم ذلك أرسل تيبو رسالة إلى سلطان إمارة حيدر آباد، وطلب منه ترك الخلافات بينهم والتحالف لصد العدوان الإنجليزي على بلاد الإسلام لكن سلطان حيدر آباد رفض بشكل قاطع التحالف مع السلطان المجاهد، وذلك الأمر مما يحزن النفس ويدمي القلب.

حاول السلطان على تيبو التحالف مع السلطان العثماني لكنه

فشل في ذلك بسبب انشغال العثمانيين بالحروب على الجبهة الروملية - لكنه أرسل له بعض المتطوعين -، عندئذ انتهى تفكير السلطان إلى الاستفادة من عودة الخلاف بين إنجلترا وفرنسا، وبالفعل بدأت المكاتبات بين السلطان والفرنسيين، ولكن سرعان ما كشفت إنجلترا تلك الاتصالات بسبب خيانة بعض الجنود من جيش السلطان.

نقض الإنجليز هدنتهم مع السلطان وشنوا سلسلة هجمات خاطفة ضد السلطان وقواته، ولكن تصدى لهما بنجاح كبير وكبد جيوش التحالف - الإنجليزي والهندوسي وجيش حيدر آباد المسلم - خسائر فادحة مما أدخل الفزع والرعب في قلوب الإنجليز، إذ حقق ذلك النصر الكبير بلا أدنى مساعدة من الفرنسيين.

وكالعادة لجأ الإنجليز إلى سلاح الغدر والخيانة واستطاعوا أن يستقبطوا أحد أعوان السلطان واسمه مير صادق، وفي الفرصة المناسبة دلهم هذا الخائن على القلعة التي يقيم بها السلطان، بل فتح أبوابها للإنجليز فاقتحموا المكان فبرز لهم السلطان تيبو بنفسه وقد هانت عليه نفسه لله عز وجل وأبت عليه كرامته وعزته أن يقع أسيرًا بيد الإنجليز، وخاض ضدهم حربًا ضروسًا وظل يقاتل حتى سقط شهيدًا على أرض المعركة سنة ١٢١٤ هجرية = ٤ مايو ١٧٩٩ م.

وبرحيل هذا المجاهد الفذ، تنفس الإنجليز الصعداء، واستراحوا

من أقوى خصم لهم في الهند، وأحكموا قبضتهم على البلاد طويلاً
وعرضاً.

عبرة:

يا شباب، لقد أثبت السلطان العظيم علي تيبو حبه الكبير لدينه
وطنه وعقيدته، لقد رفض الرجل إغراء الإنجليز له بالمال، أو
جعله سلطاناً على جميع بلاد الهند تحت التاج البريطاني طبعاً،
لكن قابل ذلك برفض، بل نشر راية الجهاد عالية وانضوى هو أول
إنسان تحتها، وعمل بكل جهد على طرد الغزاة المحليين، وتنازل
بين ليلة وضحاها عن هذا المنصب الرفيع الذي يتنافس عليه
الناس، لقد كان رحمه الله أكبر دليل إن جذوة الإسلام في قلبه
أبناء الأمة لن تنطفئ أبداً.

يا شباب، إن كثيراً ما يواجه الإنسان مواقف لا بد له فيها أن
يختار إما أن ينصر الحق، أو أن يتمسك بما لديه دون التضحية
بأي شيء، ولكن الاختيار الصحيح هو الدين لأن الأعلى على
الإطلاق هو نصره الدين وتقديم ما بالإمكان لنصرته، رغم ما
يمكن مواجهته من مشقة من جراء ذلك، تماماً مثل ما حدث مع
سلطان علي تيبو رحمه الله فلقد ضحى الأمير بكل ما يملك من
مال وراحة وجنات وقصور من أجل نصره الحق فعاش لله ربه
ومات على ذلك، ولقد ظل ما قدمه لدينه نبزاً لنا في حياتنا،
وهكذا يجب أن يكون الإنسان المسلم قدوة لغيره.



يؤلمني أن أموت وأنا مُتهم^(١)

الفدائية في الإسلام مخاطرة بالنفس التي هي أعز شيء على الإنسان في سبيل العقيدة، والغاية الشريفة، والدفاع عن العرض والأوطان، وقد تبارى الأبطال المغاوير من المجاهدين عبر التاريخ في تقديم التضحية بالنفس والمال في ميدان العزة والشرف، فسجل كل منهما حدثاً هاماً في تاريخ الإسلام، ظلت الأجيال جيل بعد جيل تردد هذه التضحية، حتى أصبحت هذه التضحية، كالنجم في كبد السماء الذي يهتدى به الإنسان في ظلام الليل، فكانت هذه الفدائية هي مهبط الشرف من حياته، ومعقد الفخر من سيرته التي تصاحبه في حياته، وتروى عنه بعد مماته.

ضيفنا في هذه السطور، قائد عثماني مجاهد، وأحد أعظم بحارة الدولة العثمانية، إنه البطل الباسل المقدم سيلمان بك بلطة أوغلي، ولعلك أيها القارئ الكريم قد نزع بك الشوق إلى سماع طرف من أخبار هذا الفارس المغوار، والوقوف على بعض عجائبه، فإليك

(١) النسر الكبير محمد الفاتح للمنياوي ** السلطان محمد الفاتح آيتاج أوزكان ** السلطان الفاتح للرشيدي ** مواقف حاسمة في تاريخ الإسلام.

شيئاً منها كما جاءت في كتب السير والتراجم، فتعالوا بنا لنعيش
سويًا هذه السطور مع هذا الموقف الرائع، والبطولة النادرة.

في ٢٠ إبريل ١٤٥٣م وصلت مجموعة من الرسل القادمين من
مدينة كليُّولو إلى مقر قيادة الجيش العثماني حاملين خبرًا مفادُه
أن سفنًا من جمهورية جنوة تعبر مضيق الدردنيل حاملة على متنها
الجنود والذخيرة والمؤن لدعم البيزنطيين لكسر الحصار العثماني
للقسطنطينية، وقد مُلئت أشرعتها بالرياح فتقدمت بسرعة حتى
وصلت إلى مشارف القسطنطينية، غير أن حركتها توقفت جراء
الانقطاع المفاجئ للرياح، وقد أصر السلطان محمد الفاتح وأوامره،
وقال لقائد الأسطول بلطة أوغلي: إما أن تستولي على هذه السفن،
وإما أن تغرقها، وإذا لم توفق في ذلك فلا ترجع إلينا حيًّا.

هاجمت القوادم العثمانية التي يقودها بلطة أوغلي السفن
الجنوية التي كانت تقف بلا حركة عند منطقة سوتونلر وسط جبلة
كبيرة، وحاصرت السفن العثمانية سفن جنوة من كل جانب، وقد
بدأت المعركة بين الجانبين بالأسهم والحجارة الملقاة من الآلات
المخصصة لهذا الغرض، وتدخلت السفن ببعضها البعض، وحاول
الجنود العثمانيون إضرام النيران بسفن العدو من أجل إحراقها،
ولهذا كانوا يتشبثون بحبال سفنهم وحديداتها لكن جنود العدو لم
يسمحوا لهم بذلك.

وبادروا إلى قذف الجنود العثمانيين بالحجارة من خلال

الآلات، وقد بدأت المواجهة بين الأسطولين بعدما انغرز منخسة سفينة بلطة أوغلي بإحدى سفن العدو، وحاول الجنود العثمانيون إضرام النيران في السفن الجنوبية من الأسفل وحرقت أشرعتها بالأسهم التي ألقيوها وقطع حبالها وثقب هياكلها ببلطاتهم.

وقد سعوا من ناحية أخرى إلى الصعود إلى سفن العدو بواسطة الحبال الخطافية والسلالم، وأما من كانوا على متن السفن فملؤوا البراميل بمياه البحر وأفرغوها على الحرائق لإطفائها، وأجبروا الجنود العثمانيين المحاولين الصعود للسفينة على النزول إلى الأسفل بضربات الرماح والأسهم والفؤوس.

مرت ثلاث ساعات، لكن البحارة العثمانيين وقائدهم لم يستطيعوا الحصول على نتيجة إيجابية، وبعد أن تحولت المعركة ضد العثمانيين لبعض الوقت، رغب السلطان الذي كان يشاهد المعركة البحرية عن قرب في تشجيع الجنود، بل واندفع السلطان بجواده نحو البحر حتى غاص حصانه إلى صدره، وكانت السفن المتقاتلة على مرمى حجر منه فأخذ يصيح لبلطة أوغلي بأعلى صوته: يا قبطان يا قبطان، ويلوح بيده، وكأنه يريد أن يغير الموقف المعركة الذي عليه الجنويون لصالحه.

وضاعف العثمانيون جهودهم في الهجوم، لكن ذاك لم يغير سير المعركة، ولم تستطع السفن العثمانية إيقاف السفن الجنوبية بسبب ارتفاع جوانب سفن العدو، ونجحت السفن في الوصول إلى

هدفها وهو الدخول إلى مياه خليج القرن الذهبي والسيطرة على الخليج، ولم تستطع السفن العثمانية منعها رغم الدفاع المستميت الذي قدمته في سبيل ذلك.

غضب السلطان الفاتح غضبًا شديدًا، فعزل قائد الأسطول سليمان بلطة أوغلي، واستدعاه وعنفه بشدة واتهمه بالجبن والضعف.

وتأثر بلطة أوغلي لهذا فقال: إنني أستقبل الموت بنفس مطمئنة، ولكن يؤلمني أن أموت وأنا مُتهم هذه التهمة، فأنا ورجالي لم نكن جبناء ضعفاء، وقاتلنا بكل ما كان في وسعنا من حيلة وقوة.

ثم رفع بلطة أوغلي العمامة عن عينيه، وكانت قد فُقت إحداها، ففوجئ السلطان الفاتح بذلك وأدرك أن الرجل مظلوم، فقد دافع بكل ما يملك من وسائل حتى فقد إحدى عينيه، ولهذا تركه يعود للقتال واكتفى بعزله من منصبه.

عبرة:

يا شباب، إن الجبان المتثاقل إلى الأرض يعيش في الناس عاجزًا فقيرًا، ميتًا ضعيفًا ذليلاً، ولو كان أكثر الناس مالاً، فإن الجبان يموت في اليوم مرات عديدة، بخلاف صاحب العقيدة الذي لا يموت إلا مرة واحدة في عمره كله، وإن مات فإنه يموت مختارًا، ويسمى شهيدًا حيًا عند ربه لا ميتًا، أما الجبان فيموت

إجبارًا، ثم تنتشر العقوبة لمجمل أجزاء حياته، فجرثومة الجبن والذل كجرثومة الوباء، تنتشر عدواها انتشار النار في الهشيم، فثبت عند العقلاء أن الحياة كل الحياة في سبيل الله كالموت تمامًا في سبيل الله.



البطل العظيم^(١)

بينما كان العالم الإسلامي يعاني من الصراع العنيف، واليأس المتزايد، والكمد القاتل، إذ تألق على أفقه نجم جديد، سطع في كبد السماء نور يبدد ظلام الليل، ووجد العالم الإسلامي - كما تعودته في أدق مراحل وأخرج مآزقه - قائداً جديداً، ومجاهداً عبقرياً، وبطلاً مغواراً، لقد برزت طاقة جديدة عملاقة من حيث لم يكن في حسابان أحد.

إنه أحد أبطال الممالك المغاوير، هذا البطل الأسطوري من صد الزحف التتري المجرم على بلاد الشام، فمن هو هذه القائد الباسل، وما هي قصة صمود قلعة دمشق، ومن الشيخ الجليل الذي كان له أكبر الأثر في نُصرة المسلمين في هذه المعركة، هذا ما سنعرفه من خلال تلك السطور

ضيفنا في هذه السطور، من المجاهدين الأفذاذ الأتقياء الأنقياء، كان محباً للدين مضحياً لأجل نصرته، شغوفاً بالجهاد، صرف

(١) العبر في خبر من عبر ** البداية والنهاية ** النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ** بدائع الزهور في وقائع الدهور ** التاريخ الإسلامي مواقف وعبر.

سنوات عمره في جهاد متواصل، لم يكن يرجو سوى الشهادة في سبيل الله، يستعجل ميجهها، كان في ساحات القتال يبحث عن أحسن مكان كي ينال الشهادة فيه، فكان دائماً أقرب المجاهدين لصفوف العدو، وأكثرهم إثخاناً في صفوفهم، وقد من الله عليه بها بعد جهاد دام.

نحن على موعد مع، نجم من النجوم العظماء الذين زينوا صفحات التاريخ، بأعظم البطولات، وأجل التضحيات، وروائع ملاحم الصمود، كان كالجبال الراسيات في وجه الطوفان الهادر، لم يتسلم يوماً لعدو قط، بطل عرف عنه الإقدام والتضحية والمغامر، يخوض غمار الموت بجبين ناصع، إنه الأمير الباسل، والبطل الشجاع، علم الدين أرجواش المنصوري رحمه الله.

لما استولى التتار على بلاد الشام عاثوا في الأرض فساداً هم وأتباعهم من النصارى فقتلوا في دمشق وما حولها عدداً كبيراً من المسلمين، وسبوا كثيراً من النساء والأطفال، ونهبوا كثيراً من الأموال .

وولوا على نيابة الشام سيف الدين قبجق المنصوري الذي لجأ إليهم قبل ذلك لخلاف بينه وبين سلطان مصر والشام محمد بن قلاوون -وهو الاشتراك في مؤامرة قتل السلطان الأشرف خليل بن قلاوون أخو السلطان محمد- .

وأرسل هذا الخائن لدينه ووطنه إلى نائب القلعة في دمشق،

وهو المجاهد علمُ الدين أرجواش المنصوري، ليسلمها إلى التتار. وكان أرجواش هذا بطلاً من أبطال المماليك المغاوير، وكان لا يخشى في الله أحداً من البشر، وكان مجاهداً لا يشق له في البطولة غبار.

فامتنع أرجواش من ذلك أشد الامتناع، فجمع له قبجق أعيان البلد فكلموه أيضاً لتسليم المدينة للتتار بدون قتال، فلم يجبههم إلى ذلك، وصمم على ترك تسليمها إليهم، وقال: والله لا أسلمهم بلاد المسلمين وفيّ عين تطرف.

ولقد كان تصميم أرجواش على المقاومة ثابتاً، فلقد كلمه إضافة إلى أمير دمشق قبجق، الأمير حسام الدين لاجين والأمير بكتمر وغيرهما من أمراء المماليك في تسليم قلعة دمشق إلى نائب التتار، وقالوا: اتق الله يا أرجواش في دم المسلمين، فدماء أهل الشام في عنقك إن لم تسلمها.

فأجابهم: دماء المسلمين في أعناقكم أنتم الذين خرجتم من دمشق وتوجهتم إلى قازان وحسنتم له المجيء إلى دمشق وغيرها من بلاد الإسلام، ثم وبخهم، ولم يسلم قلعة دمشق.

فأرسل إليه شيخ الإسلام تقي الدين ابن تيمية رحمه الله رسالة يقول له فيها: لو لم يبق فيها إلا حجر فلا تسلمهم ذلك إن استطعت!!

بعد كلام شيخ الإسلام صمم أرجواش على المقاومة أكثر،
وتهيأ للقتال والحصار، واستمر على حفظ القلعة، وجاء الطاغية
قازان في ستين ألف مقاتل، وحصار القلعة حصارًا عنيفة.

ولما بدأ الحصار، نادى أرجواش في الناس وقال: احفظوا
الأسوار، وأخرجوا ما كان عندكم من الأسلحة، ولا تهملوا الأسوار
والأبواب، ولا يبيتن أحد إلا على السور، ومن بات في داره شنع،
فاجتمع الناس على الأسوار لحفظ البلاد، وكان شيخ الإسلام
ابن تيمية طوال شهور الحصار يدور كل ليلة على الأسوار يحرض
الناس على الصبر والقتال ويتلو عليهم آيات الجهاد والرباط.

يا سادة، هذا موقف حزم وعزم من شيخ الإسلام ابن تيمية
ونائب القلعة أرجواش، حيث حوّل المسلمين في مدينة دمشق إلى
مجاهدين، وهكذا ينبغي لكل مسلم أن يكون مجاهدًا إذا احتاجت
إليه الأمة، وأن يكون كل أفراد الأمة جنودًا احتياطيين ينفرون إلى
الجهاد عند اللزوم.

ولقد ظل الحصار عدة شهور، وفشل التتار في دخول القلعة،
وكان أرجواش في كل يوم يخرج في طائفة من الجنود فيقتلون
طائفة من التتار، ويأسرون فريقًا، وبذلك فشل التتار وأعوانهم من
النصارى والخونة من دخول القلعة بعد حصار دام شهرًا .

وكان في ذلك مصلحة عظيمة لأهل الشام فإن الله حفظ لهم

هذا الحصن والمعقل الذي جعله الله حرزاً لأهل الشام التي لا تزال دار إيمان، حتى ينزل بها عيسى بن مريم عليه السلام.

عبرة:

يا أيها القارئ الكريم، هذا الموقف يكتب بماء الذهب لأرجواش الذي صمم على عدم تسليم القلعة لنائب التتار، مع أن الشام كله قد سقط بأيدي جحافل التتار، فما نسبة هذه القلعة إلى بلاد الشام؟! ومع ذلك ومع محاولة التتار لتدمير القلعة فقد ثبت فيها أرجواش ومن معه من الجنود ثبت الجبال الراسيات وأبى أن يسلمها وفيه عين تطرف، وهذا يدل على قوة إيمان هذا المجاهد المغوار.

ولقد كان لشيخ الإسلام رحمه الله ابن تيمية تأثير واضح وقوي على أرجواش، حيث ائتمر بأمره القوي الصارم الذي يلزمه بالثبات حتى هدم آخر حجر في تلك القلعة، وهذا الموقف من شيخ الإسلام يدل على روح جهادية عالية تتسم بالقوة والثبات والتصميم على الدفاع عن الإسلام والمسلمين حتى آخر قطرة من دمه ودم أتباعه، هذا مع قلة مؤيديه الذين يأترون بأمره، فكيف لو كان معه جيش كبير.

وهكذا يا أيها القارئ الكريم، كان أصحاب القلعة هم الوحيدين الذين صمدوا في وجه التتار وأعجزوهم عن فتح القلعة، وإن المتأمل ليعجب من فتحهم الشام كله وعجزهم عن فتح هذه

القلعة، مما يدل على أن سلامة هذه القلعة منهم مع كثرتهم وكثرة ما يملكونه من الأسلحة ووسائل التدمير دليل على نصر الله تعالى أوليائه المؤمنين وخذلان أعدائهم، فيا ترى لو كان قادة بلاد الشام وجنودها من أمثال هذا القائد القوي الحازم وجنوده المجاهدين، هل يكون للتتار وغيرهم من أعداء الإسلام موطن قدم في بلادنا؟

يا شباب، لقد كان أمل أرجواش كبيراً في أن يزول التتار وأن تعود بلاد مصر والشام والعراق دولة واحدة، وهذا ما تحقق بفضل الله بعد ذلك حيث جلا التتار عن الشام، وعادت دولة الإسلام القوية، وكانت قلعة دمشق رمز الثبات الذي حطم كبرياء التتار، ومنعهم من دعوى الاستيلاء على الشام كله ثم الهجوم على مصر.



المنصور والجاسوس^(١)

نحن لا نبكي أو نتباكى على تاريخنا الإسلامي العظيم أبداً، بل عندما نقرأ تاريخنا المشرف نستمد منه الطاقة والعزيمة والإصرار على موصلة الكفاح، فنحن نشحذ هممنا منه، ونتعلم منه الكثير والكثير عن ماضينا العظيم حتى نسير على نفس طريق السابقين، ومن لا يقرأ التاريخ لا يعرف الحاضر، ولا يستطيع أن يتنبأ بالمستقبل.

اقرأوا التاريخ يا سادة لعلمكم ترتقون، اقرأوا التاريخ لعلمكم تصبحون سادة الأمم، وكم سطع في سماء الإسلام أبطال عظماء لا غبار عليهم قدموا لدينهم وعقيدتهم كل حياتهم، ونحن هنا نخط بأيدينا موقف لأحد العظماء الذين لم تسقط لهم راية، ولم يهزم لهم جيش، فمن هذا المجاهد الكبير، وما هي قصته مع الجاسوس، هذا ما سنعرفه الآن .

ضيفنا في هذه السطور، قائد عظيم، وأمير مجاهد، وعملاق

(١) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ** المآثر العامرية ** الصلة لأبن بشكوال **
البيان في أخبار المغرب والأندلس.

أعجوبة من أعاجيب الدهر، ونادرة من نادر الزمان، فهو بطلٌ لم يقهر، وقائد لم يهزم، ورام لا يُخطئ، مقدّم لا يهاب، ومغامرٌ لا تنتهي عجائب مغامراته، تقرأ أخبار بطولاته، فيخيل إليك أنها ضرب من الأساطير، وما هي بالأساطير بل وقائع حدثت بالفعل.

نحن على موعد مع، أعجوبة من أعاجيب التاريخ، صنع أعظم أمجاد الأندلس الحربية والحضارية، الرجل الذي كان يكتب الرقاع على رصيف الزهراء، ثم أصبح أعظم حاكم في تاريخ الإسلام في أوروبا، إنه الرجل العملاق العظيم الذي لم تسقط له راية قط، الذي قال عنه المؤرخون: إنه أعظم وأقوى رجال الإسلام في الأندلس، نحن نلتقي بالأمير المظفر دائماً، الحاجب محمد بن أبي عامر المنصور رحمه الله أعجوبة تاريخ الأندلسي.

ونحن من خلال هذه السطور، سآخذُ بيد القارئ، ثم نتجول معه في روض أنفٍ أنيقٍ نقتطف أزاهر جميلة في مجال البطولة والعظمة، وسنشعر إن شاء الله بالمتعة والفائدة، ونحن نجمع طاقاتٍ فواحة من سيرة هذا الرجل العملاق العظيم، وكيف كان يخدم عقيدته وشعبه رجاءً ما عند الله، فتعالوا بنا لنتجول بين صفحات التاريخ لنرى هذا المشهد العجيب لهذا الرجل الأسطوري.

كان المنصور بن أبي عامر رحمه الله في أحد غزوته قد استقر في مدينة سالم، وكان جالساً في بعض الليالي، وكانت ليلة شديدة البرد لم تر الأندلس مثلها قبل ذلك من البرد، والأمطار، والثلوج،

فدعا المنصور بأحد الفرسان، وقال له: انهض الآن إلى فج طليارش -وهو مضيق المدينة-، وأقم فيه، ثم قال له: من مراك هذه الليلة يجب أن تأتي به إلى القصر.

استغرب الفارس من هذا الأمر، وقال في نفسه: من يخرج في مثل هذه الليلة! ولكن الفارس صدع بالأمر، ومضى إلى المضيق حيث أمره المنصور، وظل الفارس واقفاً على الطريق المؤدي إلى المضيق في البرد والريح والمطر واقفاً على فرسه، فلما قرب الفجر إذ بشيخ كبير من النصارى، ومعه حطب وفاس وحبل، فاستوقفه الفارس، وقال له: إلى أين أيها الشيخ العجوز.

قال العجوز: أريد حطباً لأهلي ليستدفئوا، فتركه الفارس يواصل مسيره، لكنه تذكر أمر المنصور له، فمضى وراءه واستوقفه، وقال له: لا بد أن تأتي معي إلى الملك المنصور، فقال العجوز: وماذا يريد الملك مني، دعني أتابع سيرى، إلا أن الفارس أجبره على ذهب معه إلى المنصور.

فلما دخل عليه القصر، أمر الحاجب المنصور بتفتيش العجوز فما عثروا على شيء معه، فأمر المنصور بتحري بردعة الحمار فوجدوا فيها خطاباً من بعض النصارى الموجودين بالمدينة يدلون العدو على أماكن يهجموا به على مدينة سالم، وعلى جيش المنصور من جهة مكان سموه، وقالوا: نحن سنساعدكم على ذلك.

تملكت الفارس دهشة، واستفهم من المنصور على الأمر،

كيف عرف المنصور بأمر الجاسوس، فقال له المنصور: وهل تنتهز العيون إلا أمثالها هذه الليلة، ومن ملك البلاد عليه إن يسهر لحمايتها وحفظها ويعرف مداخل المتربصين بها.

عبرة:

يا شباب، لقد رأينا كيف خطرت له هذه الخاطرة التي تدل على مدى ذكائه وعبقريته، وقوة بصيرته، رجل يعلم مكمّن الخطر على شعبه وأمته، وكيف يستغل الأعداء مثل هذه الأيام لضرب استقرار الدولة الإسلامية، فيعمل بكل جهد لصد هذه المؤامرات على أمته.

إن هذا الموقف الرائع يمثل ذروة النبوغ عند هذا الرجل العبقري العظيم، وإن ما وصل إليه من مجد ما كان صدفة أو ضربة حظ كما يقول البعض، بل كان صاحب همة عالية، وطموح يفوق الخيال، وذكاء لا حدود له، وإرادة من حديد، وعزيمة لا تنال، ومصابرة على المكاره والصعاب، إن سيرة المنصور العظيم يجب علينا معشر الشباب قرأتها والعمل بها في حياتنا الدنيا، فهي خير دليل على إنه لا يأس ولا مستحيل في هذه الحياة.

يا شباب، إن هذا المشهد العظيم مفخرة من مفاخر المنصور بن أبي عامر، بل من مفاخر تاريخ الإسلام، رجل يعيش حياته لرفاهية أمته تنام الرعية قريرة العين، ويسهر هو على راحة الرعية، لقد عاش رحمه الله تعالى من أجل إسعاد أمته، والارتفاع بها إلى

مراقبي السمو والعظام، لقد كان هذا الرجل العظيم أسطورة من
أساطير التاريخ، وأعجوبة العصور والأزمان.



الشيخ المعلم^(١)

ما أعظم ما يصنعه الإيمان بالنفوس المؤهلة، فإنه يخلقها خلقاً جديداً، ويصوغها صوغاً مجيداً، ويرفعها عن الدنيا إلى مواطن النبل والشرف ويخلق بها في سماء الروح بعد أن يخلصها من طينتها الأرضية، فالإيمان عزمة من عزمات الرجال الذين توفرت فيهم دواعي العزة في أرقى معانيها فطلبوها ممن لا يملكها سواه، فنالوها بجدارة واستحقاق لأنهم سعوا إليها بحق فكانوا بها أحق، وخلد التاريخ ذكرهم وأشاد بسيرهم ومآثرهم وفضلهم العظيم.

ضيفنا في هذه السطور، عالمٌ موسوعيٌّ برع في مجالات شرعية شتى، كان بارعاً في الفقه، وتفسير القرآن، والحديث، وعلوم الشعر والبيان، كان يبحث عن التميز في كل مجال، كان قوي الحجة، شديد الجرأة، حسن البيان، معلماً مريباً، واحداً من أعظم علماء الدولة العثمانية.

نحن على موعد مع، عالم من أعظم علماء الإسلام، كان شديداً

(١) البدر الطالع ** الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ** المختار المصون ** الضوء

اللامع ** تاريخ الدولة العثمانية ** طاشكيري زاده.

جريبًا، باذلاً للنصيحة، غير مستتر بها، كانت معظم شدته على السلاطين فهو لا يخشى في الله لومة لائم، كتبه التاريخ في سجل الخالدين في أنصع صفحاته، فهو أستاذ لسلطان ليس أي سلطان إنه السلطان الفاتح أعظم سلاطين آل عثمان، نحن على موعد مع مربى السلطان محمد الفاتح الشيخ العلامة أحمد بن إسماعيل الكوراني رحمه الله.

نحن في هذه السطور نعيش مع مشهد من مشاهد التربية الخالدة التي حولت محمد بن مراد من أمير مستهتر إلى سلطان عظيم فاتح، فتحت على يديه أعظم مدن التاريخ القسطنطينية، فتعالوا بنا لنطوف بين صفحات التاريخ لنرى هذا المشهد المانع كما جاء في كتب السير والتراجم.

خرج الشيخ أحمد بن إسماعيل الكوراني من مصر واستقر في أدرنة عاصمة الدولة العثمانية وذلك في عام ٨٤٠ هجرية، وأخذ في الاشتغال بالتعليم والتدريس، ونشر علوم اللغة العربية، فأخذ صيته ينتشر بين أهل أدرنة شيئاً فشيئاً، فتهافتوا على حضور دروسه ومجالسه، وتسابق الأغنياء على طلبه لتأديب وتربية أبنائهم، وقد لقبوه بالمولى الكوراني بسبب مهارته في تربية الأولاد، وقدرته الفائقة على تعديل سلوكياتهم، ورفع مستوياتهم العقلية والإيمانية.

وصلت أخبار شهرة الكوراني إلى السلطان العثماني مراد الثاني فطلبه لتربية ولده وولي عهد محمد خان الملقب بالفاتح، وكان

الفتاح في العاشرة أو الثانية عشرة من العمر، وكان السلطان مراد الثاني يهين ولده محمدًا لمعالى الأمور وعظمائها، فعينه أميرًا على ولاية مغنيسيا، وانتدب له العديد من المعلمين والمربين لإعداده وتعليمه، ولكن الأمير محمدًا كان صبيًا مثل باقى الصبيان مشغولًا باللعب واللهو كعادة من هو فى سنه.

فلم يمثّل لأوامرهم، وهم بدورهم لم يضغطوا ويشتدوا عليه، خوفًا من هبة أبيه، فلما رأى السلطان مراد، ولده الذى جعله ولي عهده وخليفته من بعده لم يتعلم شيئًا، ولم يقرأ أو يحفظ شيئًا، اشتد غضبه وسأل عن أفضل معلمى دولته، وقال: أريد معلمًا يتميز بالمهابة مع الشدة والحزم، ف قيل له: هناك رجل غريب من أهل تبريز اسمه المولى الكوراني، فأحضره مراد الثانى، ووضح له صورة الأمر، وطلب منه أن يشتد فى تربية ولده محمد.

وصل المولى الكوراني إلى مدينة مغنيسيا، ودخل على الأمير محمد فوجده واقفًا أمام المرأة يرجل شعره، فقال له الكوراني وكان فى يده عصا غليظة: أرسلنى والدك لتعليمك وتهذيبك يا فتى، واعلم أن الضرب سيكون جزاءك إذا خالفت أمرى!!

ضحك الأمير محمد ساخرًا من كلام الملا الكوراني، واستمر فى ترجيل شعره، وهو يقول فى نفسه: جاء علماء من قبلك لتعليمي وتهذيبى وهددوني كما هددتني يا شيخ كوراني، ولم يفلحوا معي، وفشلوا فى أداء مهمتهم!!

أحس الكوراني بما يدور في نفس الأمير الفتى فعاجله، وقال: خذ هذه الضربة مني أيها الغلام الصغير جزاءً على سُخريتكَ، وناولهُ الملا الكوراني ضربة مؤلّه من العصا التي معه، ثم ضربه ضرباً شديداً، فصار الأمير الصغير يصرخ ويتألم: ذراعي كسرت ذراعي.. ذراعي، ووضعت ذراعهُ في الجبس إلى أن شُفيت.

لقد ارتاع الفتى الشموس وأدرك أنه أمام معلم جديد يختلف عمن سبقه كل الاختلاف، وكأنما كانت هذه الضربة الأولى الحازمة التي تلقاها محمد الطلسم الذي فك الأقفال والمغالق عن نفسه فتحت جوانبها، لقد تحول هذا الأمير الصغير من مستهتر إلى أمير جاد يتحلى بالاستجابة الكبيرة في تحصيل العلم، وتوقير العلماء، وتهذيب النفس، واستطاع أن يحفظ القرآن الكريم في مدة قصيرة، واستبشر خيراً بذلك والدّه السلطان مراد الثاني، وغمر الشيخ الكوراني بالعطايا والأموال الوفيرة.

لقد تأثر الأمير الصغير بشيخه الكوراني بشدة، وأثر بالأخص في توجهاته وأفكاره، ولقد أثمرت تلك التربية القوية على الأمير، فصار بعد ذلك محمد فاتح القسطنطينية، وأعظم سلاطين الدول العثمانية.

عبرة:

يا سادة، إن سنة الله في خلقه، لا يخرج قائد رباني، وفتح مغوار إلا كان حوله مجموعة من العلماء الربانيين يساهمون في

تعليمه وتربيته وترشيده، والأمثلة في تاريخنا كثيرة، مثل دور أبو يوسف القاضي مع الرشيد في دولة بني العباس، ومثل دور الشيخ عبد الله بن ياسين مع يحيى بن إبراهيم الجدالي في دولة المرابطين، والقاضي الفاضل مع صلاح الدين في دولة بني أيوب، وهذا الملا إسماعيل الكوراني مع السلطان الفاتح في الدولة العثمانية، وغيرهم الكثير.

يا شباب، لا بد لنا هنا أن نقف وقفة هامة في تربية العظماء في الدولة الإسلامية، بل في التاريخ الإسلامي قاطبة ستجد أن من حقق إنجازاً أو فتحاً عظيماً لا بد أن تتوافر فيه عدة شروط، أولها وأهمها أن يربى على طاعة الله عز وجل، ومن هؤلاء كان الفاتح رحمه الله، حيث أحاطه والده بالعلماء الربانيين، بل كان شديد الحرص به حتى إنه ختم القرآن الكريم في وقت قصير.

يا شباب، هذه التربية الإسلامية الصادقة، وهؤلاء المربون الأفاضل، ممن كان منهم، بالأخص هذا العالم الفاضل، من يمزق الأمر السلطاني إذا وجد به مخالفة للشرع، ولا ينحني للسلطان، ويخاطبه باسمه، ويصافحه ولا يقبل يده، بل السلطان يقبل يده، فمن الطبيعي أن يتخرج من بين جناباتها أناس عظماء كمحمد الفاتح، وأن يكون مسلماً مؤمناً ملتزماً بحدود الشريعة، متقياً بالأوامر والنواهي، معظماً لها ومدافعاً عن إجراءات تطبيقها، على نفسه أولاً ثم على رعيته، تقياً صالحاً، يطلب الدعاء من العلماء العاملين الصالحين.

بندقية مقابل حياة مجاهد!!^(١)

إن الحديث عن شجاعة أبطال الإسلام قديمًا وحديثًا لا تكفيه صفحات وإنما يحتاج إلى المجلدات الكبيرة، فمن أشجع قلوبًا من هؤلاء العظماء المجاهدون؟! فهم الذين وقفوا في وجوه الباطل، وكسروا شوكة الطاغين وأذلوا جبروت الأعداء، وأقاموا للإسلام دولة خالدة وسط دنيا تموج بالطاغين والكفر والضلال لقد صمدوا صمود الجبال، وواجهوا أعتى الأمم، وأشجع الرجال فخضعوا لهم وأذعنوا، وانقادوا مستسلمين لهم، وهكذا يفعل الإيمان في قلوب أصحابه.

ضيفنا في هذه السطور، ليس بطلًا من أبطال الحروب، أو قاضيًا عدلًا لا يخشى أحدًا إلا الله، أو شيخًا جليلًا يعلم الناس الخير، بل ضيفنا الذي نتعايش معه في هذه السطور شعب عظيم جاهد ونضال وكفاح أكثر من ثلاثة قرون ضد كل الغزاة المحليين لينال الحرية والكرم، ولتسلم له عقائديته ودينه، نحن على موعد مع صورة رائع لجهاد الشعب الإندونيسي ضد الاحتلال الياباني

(١) تاريخ آسيا الحديث والمعاصر ** التاريخ الإسلامي ** رحلتي إلى المشرق الإسلامي.

لبلاده، فتعالوا بين لنتجول بين أروقة التاريخ لنرى هذا المشهد البطولي الرائع لهذا الشعب العظيم.

كان جنود الاحتلال الياباني لإندونيسيا قد سيطروا على أحد المطارات، وكان مع جنود الاحتلال أسلحة ثقيلة من مدافع ورشاشات، فجاء المجاهدون إلى المطار ولم يكن معهم أي نوع من أنواع السلاح إلا الحراب المقطوعة من قصب الغاب، وقد عمدوا إلى مكبرات الصوت، فأندروا فيها جند الاحتلال في المطار من كل جانب، واستمروا في ذلك ليلة كاملة حتى أرهقوا أعصاب جنود الاحتلال.

ثم هجموا على المطار في ظلمة الليل، صفوفاً من الناس، صف من وراء صف، وكان كلما سقط صف حل محله صف آخر، لا يبالون النار ولا البارود، حتى أعادوا السيطرة على المطار بالكامل، وتم أسر كل من في المطار من جنود، وملكوا عتادهم.

كانت هذه الحراب هي سلاح هؤلاء المجاهدين، أما البنادق فكانت قليلة جداً، وكانت كل بندقية، تكلفهم ثمنًا غاليًا نعم كان ثمنًا غاليًا جداً، أظنتم أنهم يشترونها بمائة دينار مثلاً؟ لا بل كان ثمنًا أغلى من ذلك بألف مرة؟ بل أغلى كثيرًا!

كانت كل بندقية تكلف حياة مجاهد، ينتزعها من ياباني، فيموت من أجلها، حتى يوصلها إلى يد مجاهد آخر يدافع بها عن الشعب.

عبرة:

يا سادة، لقد ظل هذا الشعب المسلم المجاهد يكابد ويكافح ويناضل ثلاثمائة عام لكي ينعم بنسيم الحرية، وأن يعيش بكرامة في ظل عقيدته ودينه، فقدم الغالي والنفيس لأجل ذلك، فعاش هذا الشعب البطل في ظل كفاح دائم متوصل حتى وصل إلى غايته الكريمة، لقد جاء إلى هذه الأرض الطيبة ثلاثة غزاة محلتين حاولوا نزع عقيدة هذا الشعب المؤمن بكل الطرق، فما فلتحوا في ذلك بل ظل هذا الشعب الكريم المجاهد يكافحهم من خلال ثباته على عقيدته، وهذا دليل واضح على مدى تغلغل الإيمان في النفوس.



الرجل الكريم^(١)

قد يسبق الظن إلى أن السخاء ينقص الثروة، ويقرب من الفقر، ويسلب الإنسان نعمة الطمأنينة في ظل ماله الممدود، وخيره المشهود، والحق أن الكرم طريق السعة في الأرزاق، وأن السخاء سبب في نماء المال، وأن الذي يجعل يديه ممرًا لعطاء الله يظل مبسوط اليد بالنعمة، مكفول اليوم والغد بالغدق الدائم من رحمة الله وكرمه، وهكذا عرف عظماء الإسلام هذا الأمر فكانوا يتسابقون إلى البذل والعطاء، لا فرق بين غني أو فقير في ذلك.

ضيفنا في هذه السطور، رجل كان ثملًا بحب الجود، والعطاء، والبذل، رجل كريم، كثير البذل على الفقراء والمحتاجين، يبذل كل ما يملك لمساعدة المساكين، عابدًا زاهدًا، نزيهًا عن كل ما يعب، نحن نلتقي مع الأمير سوار العباسي رحمه الله.

عن سوار - صاحب رحبة سوار - قال: انصرفت يومًا من عند أمير المؤمنين محمد المهدي، فجئت منزلي فوضع لي الغداء، فلم تقبل نفسي عليه، فدخلت خلوتي لأنام في القائلة فلم يأخذني

(١) البداية والنهاية ** تاريخ دمشق لابن عساكر ** الفرج بعد الشدة للتتوخي.

نوم، فاستدعيت بعض حظاياي لأتلهى بها فلم تنبسط نفسي إليها، فنهضت فخرجت من المنزل، وركبت بغلتي فما جاوزت الدار إلا قليلاً حتى لقيني رجل ومعه ألفا درهم، فقلت: من أين هذه؟ فقال: من مُلكك الجديد.

فاستصحبته معي وسرت في أزقة بغداد لأتشاغل عما أنا فيه من الضجر، فحانت صلاة العصر عند مسجد في بعض الحارات، فنزلت لأصلي فيه، فلما قضيت الصلاة إذا برجل أعمى قد أخذ بثيابي، فقال: إن لي إليك حاجة، فقلت: وما حاجتك؟، فقال: إني رجل ضرير، ولكنني لما شممت رائحة طيبك ظننت أنك من أهل النعمة والثروة، فأحببت أن أفضي إليك بحاجتي.

فقلت: وما هي؟، فقال: إن هذا القصر الذي تجاه المسجد كان لأبي، فسافر منه إلى خراسان فباعه وأخذني معه وأنا صغير، فافترقنا هناك وأصابني أنا الضرر، فرجعنا إلى بغداد بعد أن مات أبي، فجئت إلى صاحب هذا القصر أطلب منه شيئاً أتبلغ به لعلّي أجتمع بسوار، فإنه كان صاحباً لأبي، فلعله أن يكون عنده سعة يجود منها علي.

فقلت: ومن أبوك؟ فذكر رجلاً كان أصحاب الناس إليّ، فقلت: إني أنا سوار صاحبُ أبيك، وقد منعني الله في يومك هذا النوم، والقرار، والأكل، والراحة حتى أخرجني من منزلي لاجتمع بك، وأجلسني بين يديك، وأمرت وكيلي فدفع له الألفي الدرهم التي معه، وقلت له: إذا كان الغد فأت منزلي في مكان كذا وكذا.

وركبت فجئت دار الخلافة وقلت: ما أتحف المهدي الليلة في السمر بأغرب من هذا، فلما قصصت عليه القصة تعجب من ذلك جداً، وأمر لذلك الأعمى بألفي دينار، وقال لي: هل عليك دين؟، قلت: نعم! قال: كم؟ قلت: خمسون ألف دينار.

فسكت وحادثني ساعة، ثم لما قمت من بين يديه، فوصلت إلى المنزل إذا الحمالون قد سبقوني بخمسين ألف دينار، وألفي دينار لرجل الأعمى، فانتظرت الرجل أن يجئ في ذلك اليوم فتأخر، فلما أمسيت عدت إلى المهدي، فقال: قد فكرت في أمرك فوجدتك إذا قضيت دينك لم يبق معك شيء، وقد أمرت لك بخمسين ألف دينار أخرى.

فلما كان اليوم الثالث جاءني الرجل الأعمى، فقلت: قد رزقني الله بسببك خيراً كثيراً، ودفعت له الألفي الدينار التي من عند الخليفة، وزدته ألفي دينار من عندي أيضاً.

عبرة:

يا سادة، هذه الحادثة العجيبة فيها مثل من حكمة الله تعالى العالية في تدبير أمور خلقه، حيث تجتمع الأسباب الموصلة إلى مقاصدها من غير أن يكون لمن جرت على يديه أحياناً أي قصد في ذلك، فهذا الغنى المحسن اجتمعت له تلك الأسباب التي أخرجته من بيته في ساعة ما كان يخرج فيها، ليلقاه ذلك الرجل الأعمى الفقير فيعرض عليه حاجته، ويشاء الله تعالى أن يوافي

ذلك المحسن أحد بشيء من المال ليكون طعمة عاجلة لذلك
الفقير.

يا أيها القارئ الكريم، قد يكون حب الدنيا بريقها وزخارفها،
وزينتها من الأسباب المؤدية إلى الشح، حيث يُتَوَهَّم من ابتلاه الله
بحب الدنيا أنه إن أُعْطِيَ فسيخلو جيبه، وستضيع صحته وعافيته
وسيريق ماء وجهه، وتذهب مكانته ومنزلته بين الناس، ويبدد أوقاته
ويعرض نفسه لما لا تحمد عقباه من الأذى بكل صنوفه وأشكاله
الماديّة والمعنوية.



ريحانة بلاد الشام^(١)

تاريخنا الإسلامي إذا قيس بغيره من تواريخ الأمم الأخرى، فإنه متفوق عليها، خاصة في الجانب الحضاري والأخلاقي، وكثرة العظماء من علماء، وسلاطين، وقادة، وأبطال، وقضاة وغيرهم، فلذلك كانت الدول الإسلامية على مر العصور من أغنى الدول في باب الأسماء العظيمة، و تاريخنا الإسلامي يحفل بسير العمالقة الذين تركوا بصمات واضحة على ما قدموه للإسلام والمسلمين، ومن هؤلاء العظماء الأبرار ضيفنا في هذه السطور، فمن يكون هذا السلطان الزاهد، وما هي قصته الرائع مع القاضي كمال الدين الشهرزوري، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، حاكم عادل عظيم، يفجرُ الدنيا من حواليه ذمة، واستقامة، وطُهرًا، وذُرَى سامقة، وغايات بعيدة، عظمة لن تكف عن تأكيد ذاتها ما دام صاحبها حيًا، يُمارس العظائم، ويصوغ المكرمات، كان عهده إيدانًا بعهد جديد، تسيطر

(١) الكامل في التاريخ ** الروضتين في أخبار الدولتين ** التاريخ الإسلامي مواقف وعبر **
أعلام ومشاهير الإسلام.

فيها الآخرة على الدنيا، ويسترد الورع والتقى نفوذهما على الدولة، وعلى المجتمع، وعلى النفس، والأفئدة جميعاً، رجل عظيم هوايته الكبرى إهانة الدنيا، وإذلال مغرياتها الهائلة، بأن يرفع في وجهها يداً لا تهتز ولا تختلج، تقول لتلك المغريات: لا.

نحن على موعد مع، ريحانة بلاد الشام الرجل الذي كان يلتقي مع أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (عليه السلام) في أبرز صفاته وأخلص معادنه، فإذا كان تقديس الحق وحده دون نظر إلى مغنم سياسي أو ظفر حربي هو مبدأ أمير المؤمنين علي الورع الزاهد، فإن التقديس العظيم للحق دون اعتبار لسواه كان مبدأ بطلنا، فطالما اصطدم الرجلان بأهواء المغرضين ونزوات الوصوليين، وكان في بعض التهاون على حساب الحق ما يجمع المتفرق ويلم الشعث ويطفئ الثورات.

ولكن المثل الأعلى يصبح في أذني البطلين الكريمين، أن قدما الحق وحده ولم يحفلا بغنيمة يعقبها وخز الضمير وتعب البال، ويا له من نداء مؤمن صادق يرتفع عن الرغبات والأهواء وإن عاد على مسامعه بكثير من العنت والإرهاق.

لقد سار الإمام علي في طريق المثل الأعلى وكذلك بطلنا خلفه على نفس طريقه وهو سبيل واضح ينيره القرآن بتعاليمه ويزينه الإسلام بمبادئه، نحن نلتقي مع بطل عظيم من أبطال الإسلام المشهود لهم بالشجاعة والبسالة والإقدام، والزهد والتقوى والبعد

عن ما حرم الله، إنه الشهيد ابن الشهيد نور الدين محمود بن عماد
زنكي رحمهما الله.

دخل سلطان مصر والشام الملك العادل نور الدين محمود
زنكي رحمه الله يومًا إلى خزانة بيت مال المسلمين فرأى فيها
مالًا أنكره، فسأل صاحب الخزانة عنه، وقال: لمن هذا المال،
قال صاحب الخزانة: يا سيدي إن القاضي كمال الدين الشهرزوري
أرسله إلى بيت المال، وهو من جهة كذا.

فقال: يا صاحب الخزانة، إن هذا المال ليس لنا، ولا لبيت
المال في هذه الجهة شيء، ثم أمر برده، وإعادته إلى القاضي كمال
الدين ليرده على صاحبه.

فأرسل صاحب الخزانة نواب بيت المال إلى القاضي كمال
الدين بالمال، فردّه القاضي إلى الخزانة مرة أخرى، وقال: إذا سأل
الملك العادل عنه فقولوا له عني: إنه له.

فدخل الملك العادل نور الدين إلى الخزانة مرة أخرى فرآه فأنكر
على النواب، وقال: ألم أقل لكم: يعاد هذا المال على أصحابه؟!!

فذكروا له قول كمال الدين فردّه إليه وقال للرسول: قل لكمال
الدين: أنت تقدر على حمل هذا يوم القيامة، وأما أنا فرقتي دقيقة
لا أطيق حمله والمخاصمة عليه بين يدي الله تعالى، يُعادُ قولًا
واحدًا.

عبرة:

يا سادة، في هذا الموقف مثل مما كان يتصف به الملك العادل نور الدين زنكي من الورع وخشية الله تعالى والتحري في الأموال، واتقاء الشبهات، فعلى الرغم من أن ذلك المال قد أتى من طريق القاضي كمال الدين الشهرزوري -وهو رحمه الله المعروف بعلمه وتقواه- فإن نور الدين قد رفض قبوله، لأنه قد دخل مجال الشبهات فخاف من أن يحاسب عليه يوم القيامة.

يا شباب، لقد مثل السلطان الشهيد ابن الشهيد نور الدين زنكي في هذا المشهد كيف يكون الورع والزهد في المال مجهول المصدر، فالرجل لن يأخذ لنفسه من هذا المال دينارًا أو درهمًا، بل سيكون في بيت مال المسلمين، وهو يصرف في حاجتهم، لكنه أدرك قول الصديق ﷺ حينما قال: كل لحم نبت من سحت، النار أولى به، فهو رحمه الله يعلم أنه مسئول عن الرعية، وعلى كل مال يدخل للدولة، وهو وحده يسئل عنهم يوم القيامة.



الشيخ الأسد^(١)

إذا تغلغل الإيمان في أعماق قلب المؤمن، وملاً عليه كيانه كله، كان أقوى في ثباته وشموخه من الجبل الأشم، لا يزعزعه عن معتقده إرهاب عتل جبار، ولا إغراء خبيث محتال، لأن الإيمان طمأنينة لا يجمعها الخوف من أحد إلا الله، وسكينة يزداد بها المؤمن إيماناً مع إيمانه كلما تفكر وتدبر في آيات الله الكونية، والقرآنية.

ومن المعلوم لدينا أن علماء هذه الأمة من أكمل الناس إيماناً، وأصدقهم يقيناً، ولا سيما الذين أوتوا حظاً وافراً من اليقين والبطولة، فإن هؤلاء هم الربانيون الذين أعز الله بهم الإسلام، وقوى بهم أركانه، وفي تاريخنا العظيم الكثير من هؤلاء العلماء الأعلام الذين كانوا مصابيح الهدى للمسلمين عبر العصور في الجهاد، وفي العصر الحديث ظهر علماء أفذاذ كانوا بمثابة نجوم الهدى لنا، وفي ساحات القتال كانوا أسوداً مغاوير، منهم كان

(١) صفحات مطوية من تاريخ وحضارة الدولة العثمانية ** قصة بديع الزمان لعلی الطنطاوی ** جوانب مضيئة في تاريخ العثمانيين الأتراك.

ضيفنا البطل الذي ظل يقاوم الروس شهوًراً طويلة، فمن يكون هذا الشيخ المجاهد، وما قصته مع قيصر روسيا، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، عالمٌ جليلٌ تميز بالتقوى والزهد والاستقامة والصلاح، كان حازماً شديداً في معارضة الأحكام والقوانين المعارضة للشرع، كان من أعظم الصادحين بالحق في العصر الحديث، لا يخشى في ذلك في لومة لائم، له مع أهل الباطل صولات وجولات، وفي ساحات الوغى بطل مغوار لا يشق له في البطولة غبار، كتب اسمه في أنصع صفحات الجهاد في العصر الحديث.

نحن على موعد مع، عالم أقواله تشاطر الجواهر نفاسة وجمالاً، وتدل على سطوع علمه واتساع مداركه، وتنم عن تجاربه ومعارفه، وهو ممن حباهم الله عقلاً وذكاءً وحصافة وفهماً، فكانت كلماته مرقشة بألوان الحكمة والتربية والنصيحة، وممزوجة بأنواع الآداب والفضائل والمواعظ، ولعل أجمل ما خطَّ بيده رسائل النور والمكتوبات، نحن نلتقي بالشيخ الرائع، صاحب السيرة الماتعة بديع الزمان سعيد النورسي رحمه الله.

لقد اشترك الشيخ سعيد النورسي - بديع الزمان - رحمه الله متطوعاً في الحرب العالمية الأولى، على رأس ثلاثة آلاف شخص من تلامذته، وكان اشتراكهم هذا، ضد القوات الروسية الذين استطاعوا احتلال مدينة بدليس، بعد قتال مرير بين قوات الروس

من ناحية، وبين المتطوعين المسلمين من الأتراك والأكراد من ناحية.

ولما سقطت المدينة في يد جحافل القوات الروسية، وقع الشيخ سعيد النورسي في الأسر مع البقية المتبقية من تلامذته، إذ كان الكثير منهم قد استشهد أثناء القتال الضاري ضد القوات الروسية، وكان الشيخ أثناء مدة الأسر يعتز بكونه عالمًا، وكان يفقه الأسرى المسلمين في أمور دينهم.

وفي يوم كان القائد العام للجبهة الروسية القيصر نيكولا فيج في زيارة لمعسكر الأسرى، فلما دخل امتثل الأسرى قيامًا خوفًا منه، إلا الشيخ بديع الزمان سعيد النورسي، فلاحظ القيصر عدم قيامه، فرجع مرة أخرى، ومر أمامه، فبقي جالسًا إظهارًا لإسلامه.

فدار حوار بينهما من خلال وسيط يترجم لهما: احتد القيصر الروسي، وسأل أسيره العنيد عن سبب امتناعه عن القيام له، فقال: يبدو أنك لا تعرفني، قال الشيخ بديع الزمان: أعرفك تمامًا، ألسنت القائد العام القيصر نيكولا فيج؟ قال القيصر: إذن فلم تستهين بي، وأنت تعرف من أنا؟! قال الشيخ النورسي: كلا إنني لم أستهين بأحد، إنني عالم من علماء المسلمين، وهذه عقيدتي التي تأمرني بما رأيت مني، فقال القيصر: وماذا تأمرك عقيدتك؟

قال الشيخ النورسي: إنني عالمٌ مسلم أحمل في قلبي إيمانًا، والذي يحمل في قلبه إيمانًا أفضل ممن لا إيمان له، ولو أنني قمت

لك لكنت قليل الاحترام لعقيدتي، ومقدساتي فكان الذي رأيت.
قال القيصر: هذه إهانة لي، وإهانة لجيشي، وأمتي، أطلق عليّ
صفة عدم الإيمان؟

ثم قال القيصر: في انتظارك غداً محكمة عسكرية تنظر في
أمرك، وشكلت المحكمة، وكتبت لائحة الاتهام، وفيها إهانة
القيصر، والأمة الروسية، والجيش الروسي، وساد الحزن في
معسكر الأسرى، وأقبل إليه الضباط الأسرى من الأتراك والألمان
والنمساويين، يلحون عليه في تقديم اعتذار للقائد الروسي عله
يعفو عنه.

فأبى النورسي وقال: رغبتني في الرحيل إلى الآخرة يا إخواني،
لأسعد بالمشول بين يدي رسول الله ﷺ، وجواز السفر المطلوب
هو الإعدام، أما أن أخالف عقيدتي فلا، وألف لا.

فتقدم للمحكمة بثبات، وقرع إعلان حكم الإعدام قلوب
محببيه جميعاً، وأقبلت ثلة من الجنود تحمله لساحة الإعدام، وبين
يدي التنفيذ، قام الشيخ النورسي مبتهجاً، واستأذن القاضي في
أداء واجبه الأخير، وهو الوضوء، وصلاة ركعتين، فما إن فرغ من
صلاته، إذا بالقيصر يتقدم إليه قائلاً: أرجو منك المَعذرة، ظننتك
تقصد إهانتني، لكن الثقة الآن تملأ قلبي أنك ما فعلت ذلك إلا
إنفاذاً لأمر عقيدتك وإيمانك، لذا فقد أبطلت قرار المحكمة، وإنني
أهنتك على صلابتك في عقيدتك، وأعتذر منك مرة أخرى.

يا الله...

لو تكلم منطق البشر لقال: إن النورسي أسخط القائد العام، ولا مناص عن إنفاذ الإعدام، لكن سنة رب البشر حكمت بنجاته، ورضا القائد عليه، بل تقدم معذراً إليه!!

فصدق النبي الكريم ﷺ لما قال: "من أئتمس رضا الله بسخط الناس ﷻ وأرضى عنه الناس" صحيح رواه ابن حبان.

عبرة:

يا أيها الشباب الكرام، إن الناس يذلون أنفسهم، يقبلون الدنية في دينهم ودنياهم، لواحد من أمرين: إما أن يصابوا في أرزاقهم، أو في آجالهم، والغريب أن الله قطع سلطان البشر على الآجال والأرزاق جميعاً، فليس لأحد إليها من سبيل، فالناس في الحقيقة يستذلّهم وهم نشأ من أنفس مريض بالحرص على الحياة، والخوف على القوت، والناس من خوف الذل في ذلك، ومن خوف الفقر في فقر، مع أن الإسلام بنى حقيقة التوحيد على الصلة بالله تبارك وتعالى فيما ينوب ويروع، واليأس من الناس فيما لا يملكون فيه على الله بتاً، ولا يقدمون نفعاً ولا ضرراً.



الرجل الذي أدى الأمانة بعد موته!!^(١)

أقدار الرجال تعرف من خلال أعمالهم التي قاموا بها، ومدى نفعها للناس وتأثيرها في قلوبهم، وقدر كل امرئ ما كان يحسنه، والأبطال في تاريخنا العظيم كالنجوم الزاهرة، تتألق في جو السماء لتتبرر لأهل الأرض سبل الهداية والرشاد، ومن هؤلاء الرجال رجل لا يعرفه الكثير من الناس، لكن كان له أثر واضح من التضحيات الخالدة يوم حصار عكا، جعلته في مصاف الأبطال، رجل خارق يخترق الحصار الصعب على عكا ليصل بالمساعدات للمجاهدين، فمن يكون هذا العوام البطل، وكيف أدى أمانته بعد موته هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، بطل لا نعرف إلا اسمه فقط، ولا نعرف شيئاً عن سيرته وصفحات جهاده، لكن يكفيه شرفاً أن حفرت له هذه المنقبة في ذاكرة التاريخ، وسطرت صفحة من رغبته في الآخرة على جبين الأيام، إنه لقي ربه شهيد واستطاع أن يؤدي

(١) الروضتين في أخبار الدولتين ** التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ** النوادر السلطانية

والمحاسن اليوسفية ** أعلام طواهم النسيان .

أمانته، نحن نلتقي بالمجاهد العوام المسلم عيسى العوام رحمه الله، وبطولاته الخارقة أثناء حصار المسلمين في مدينة عكا، كما جاءت في كتب السير والتراجم.

من نواذر حصار المسلمين في ثغرة الإسلام مدينة عكا، أن عوامًا مسلمًا كان يقال له عيسى، وقد اشتهر بالعوام، كان يدخل عكا أثناء حصار الصليبيين للمدينة بالكتب والنفقات على وسطه ليلاً على حين غرة من العدو، وكان يغوص ويخرج من الجانب الآخر من مراكب العدو.

وفي ذات ليلة شد على وسطه ثلاثة أكياس فيها ألف دينار، ورسالة للعسكر، وعام في البحر، فأصابه سهم من الصليبيين فقتله، وأبطأ خبره عن أهل المدينة، وكانت عادته إذا دخل البلد طار طائرٌ عرف الناس وصوله، فأبطأ الطائر فاستشعر الناس هلاكه.

فلما كان بعد أيام بينما الناس على طرف البحر في المدينة، وإذا البحر قد قذف إليهم ميتًا غريقًا فافتقدوه، فوجدوه عيسى العوام رحمه الله، ووجدوا على وسطه ألف دينار ذهب، ومشمع الكتاب وهو في يده، وكان الذهب نفقة للمجاهدين على وسطه، فما رئي من أدى الأمانة في حال حياته، وقدر الله له أداءها بعد موته إلا عيسى العوام، وكان موته في العشر الأواخر من شهر رجب ٥٨٨ هجرية.

عبرة:

يا أيها السادة الكرام، هذا مثل من التضحيات العجيبة التي يقدمها المجاهدون عبر التاريخ، حيث ينسى المجاهدون أنفسهم ومستقبلهم الدنيوي، وتضخم في أعينهم الأهداف الجهادية السامية لتكون هي الحاضر والمستقبل في حياتهم، وهم يتعرضون للشهادة يسبقون الزمن، حيث يريدون الظفر بالمقامات العالية في الجنة في زمن قصير، هذا في عالم الآخرة أما في عالم الدنيا فكم هي العائدات الضخمة التي تعود على الأمة من تضحيات هؤلاء الفدائيين، فلقد كان هذا المجاهد السباح الماهر هو الوسيلة لنقل الرسائل والمال عبر البحر، فقام بهذه المهمة إلى أن اختاره الله جل وعلا في ركب الشهداء الأبرار.

يا شباب، لقد كان عيسى العوام رحمه الله رمزاً للشباب المخلصين لدين ربهم، فقد كان يستخدم مهارته في السباحة لمساعدة المحاصرين في عكا بالأموال، وقد كان يسبح بين سفن الصليبية غير عابئ بما قد يحدث له في سبيل إنجاز المهمة التي كلف بها، وقد أكرمه الله تعالى بالشهادة بما في ذلك من جزاء ونعيم لا يعلم مداه إلا الله العلي القدير، وفي نفس الوقت عززه بين الناس بأن جعله يؤدي أمانته حتى بعد وفاته.



رجل المهام الصعبة^(١)

كلنا مؤمنون بحكم الوراثة، فقد ولدنا على هذا الدين القيم، والحمد لله على نعمة الإسلام والإيمان، وكثير هم المؤمنون بالتعلم والخطابة الذين يستطيعون أن يتمثلوا معنى الإيمان، ويحسنوا التعبير عنه لأنفسهم وللناس، ومن هؤلاء من يصدق فيه معنى الإيمان حتى يتذوق حلاوته، ويجد طعمه، ويستشعر برده على فؤاده، كما يحس بحرارته ودفئه ونوره وإشراقه، ولكن هذا كله لا يكفي، حتى يقف المرء وجهًا لوجه أمام حقائق الإيمان العملية، وأوضح هذه الحقائق:

ما اتصل بالجهاد والشهادة والموت في سبيل الله، والعزوف عن متع الحياة، إثارًا لما عند الله، ونحن نتعاش مع قصة عظيمة في فتح الرها، فمن كان بطل أحداثها، وما هي قصة الطفل المجاهد في هذا الفتح المبارك، هذا ما سنعرفه من خلال السطور القادمة. ضيفنا في هذه السطور، بطل من أعظم أبطال الإسلام تضحية

(١) الكامل في التاريخ ** مختصر تاريخ البشر ** قصة الحروب الصليبية ** تاريخ الإسلام ** البداية والنهاية.

وفداء، عملاق حارب، وناضل، وجاهد، وكابد، وتعب من أجل الحق، عملاق جعل رايته نصره المظلوم، والأخذ على يد الظالم، بطل سخر حياته لطرد الصليبيين المحتلين من بلاد الإسلام، بطل عاش حياته في سبيل توحيد العالم الإسلامي تحت راية خلافة بني العباس لطرد الغزاة، وعودة الخلافة الإسلامية زاهرة مزهرة كما كانت قبل ذلك، رجل فداء دينه حتى لقي ربه شهيداً، وهو في طريقه لتحقيق حلمه الكبير في توحيد العالم الإسلامي .

نحن على موعد مع، بطل عملاق ساهم وساعد في تحرير بلاد الإسلام من دنس الصليبيين، رجل وهب حياته في سبيل ربه، وفداءً للأوطان، بطل ذكره باق في أمة عظيمة جسدت أروع الملاحم والبطولات، نحن نلتقي برجل المهام الصعبة، مؤسس الجبهة الإسلامية لمواجهة الصليبيين، ورائد الجهاد ضد الصليبيين، الأمير المجاهد عماد الدين زنكي رحمه الله.

ونحن من خلال هذه السطور، نأخذ بيد القارئ، ثم نتجول معه في روض أنفٍ أنيقٍ نقتطف أزهار جميلة في مجال البطولة والعظمة، وسنشعر إن شاء الله بالمتعة والفائدة، ونحن نجتمع طاقاتٍ فواحة من سيرة هذا الرجل العملاق العظيم، وكيف كان يحارب ويناضل ويكابد لتحرير أوطانه رجاءً ما عند الله، فتعالوا بنا لنتجول بين صفحات التاريخ لنرى هذا المشهد العجيب لهذا الرجل الأسطوري.

إن الحديث عن مواطن البطولة الإسلامية في عصور الحروب الصليبية أمر يطول، ولن يفني بذلك إلا أسفار ضخمة، وبحسبي أني في هذا الكتاب أستعرض بعض هذه المواطن تمجيدها للذكرى، وتلمسًا للعبرة، واستحثًا للهمم والعزائم على الانتشاء، ففي معركة استرداد الرها كان الجيش الإسلامي لا يتجاوز خمسة عشر ألف مجاهد، وقد أبلى المسلمون في هذا الفتح بلاءً حسنًا، ولا سيما القائد المظفر عماد الدين زنكي رحمه الله.

وكان رائد الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين الأمير عماد الدين زنكي رحمه الله يخاطر بحياته في كل المعارك مع الصليبيين، فلا يقاتل في أخريات الصفوف، أو بمنأى عن المخاطر، بل كان يتقدم الجميع، وكثيرًا ما يكون أقرب الناس إلى العدو.

وفي أحد أيام حاصر مدينة الرها - وهي أول إمارة للصليبيين في المشرق الإسلامي، وأولهم سقوطًا بعد خمسين عامًا على يد عماد الدين زنكي سنة ٥٣٩ هجرية - كان قد فرش في ليلة من الليالي بساطًا كبيرًا، ووضع عليه الطعام أثناء الحاصر، فنادي في الجيش قائلاً: لا يأكل معي على مائتي هذه إلا من يطعن معي غدًا عند باب الرها.

أي أنه سيصل في قتاله في الصباح إلى أقرب النقاط من الحصن، حيث سيباشر محاولات كسر الباب بنفسه، وهذا سيجعله في مرمى سهام الصليبيين، وسيعرض حياته للهلكة، لكنه كان يفعل ذلك دومًا رحمه الله.

وعندما قال كلماته هذه، لم يتقدم إليه ليأكل معه غير أمير من الأمراء الجيش، وصبي آخر لا يعرف أحد من هو، فقد أحجم الجميع، لمعرفتهم بإقدام وشجاعة الأمير عماد الدين زنكي، ورغبته الصادقة في الشهادة.

وقد قال الأمير للصبي الصغير: ما أنت وهذا المقام، ارجع يا فتى - فكأنه يستصغر شأنه، ويشك في ثباته - فقال عماد الدين زنكي: دعه فإنني أرى والله وجهًا لا يتخلف عني، وقد كان وثبت الصبي معه، وهو والأمير، وقد استشهد الاثنان في هذا اليوم، في وقت واحد.

عبرة:

يا سادة، يبدو أن الأمهات في ذلك الزمان كن يرضعن أولادهن حب الله ورسوله ﷺ، وبغض أعدائه، كما يرضعهم اللبن، ويبدو أن المهمة كانت أمامهن واضحة جلية حتى وجدنا أثرها في هذا الطفل البطل الذي لا يخشى الموت في سبيل الله، طفل صغير يتقدم صفوف الحاصر، ويتقرب من الأسوار لعل الله يرزقه الشهادة، ويسبق في ذلك الكثير والكثير من أبطال الإسلام، إن هذا الطفل ثمرة تربية أم عظيمة.

وبعد يا أيها المسلمون، يا سلالة أولئك الأبطال، أحيوا ما درس من البطولة الإسلامية، ولقنوا العالم اليوم دروسًا في العزة والكرامة، وإباء الضيم، والدفاع عن الأوطان، ولا تلقوا بالًا لإرجاف

المرجفين، وتخذيّل المخذولين، ولا تنسوا أن في العصور السابقة تألبت أوروبا كلها على المسلمين لتشفي حقداً دفيناً في النفوس، وأذكى نار الحقد والضغينة القساوسة، ولكن قيض الله للإسلام والمسلمين، عماد الدنيا والدين، البطل المغوار عماد الدين زنكي رحمه الله، وأمثاله من القادة الأبطال، فقادوا المسلمين، وما زالوا يجاهدون حتى رد الله كيد الصليبيين في نحورهم، وهزمهم شر هزيمة، وحفظ أرض الإسلام من شرورهم وأرجاسهم.



دفاعًا حتى الموت^(١)

من لم يمت بالسيف مات بغيره، تعددت الأسباب والموت واحدٌ، كان هذا شعارهم، قومٌ اختارهم الله ليقودوا السفينة، كانت نفوسهم كبيرة، وإذا كانت النفوس كبيرة تعبت بمرادها الأجساد، اختاروا العيش بحياة كريمة، وإلا فالموت لهم سبيل، لقد غامروا لطلب شرف رفيع، وأيقنوا أن الموت لا بد منه، فرأوا من العيب أن يموتوا جبناءً، لذلك طلبوا الموت بعزة، وطلبوا المعالي، والمعالي ليست رخيصة، فانتصروا وسطروا تاريخًا عقم الزمان أن يأتي بمثله.

كانوا يقولون للصخر أفسح المجال لنا، فنحن أعمدة الفداء، نحن رجال الخلود من سؤدد المجد طريقنا، لن نقف قبل تحقيق المني، ونبدل الروح دونه، نسطر في التاريخ صفحات ساطعات بسيوفنا، نحن الاسود لا نهاب شيئاً، نخوض غمار الحرب نريد الموت ثمناً لديننا، وبطلنا من هؤلاء الذين سطروا أعظم قصص

(١) بشاير أهل الإيمان بفتوح آل عثمان ** تحفة الكبار في أسفار البحار ** سليمان القانوني سلطان البرين والبحرين ** الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى.

الملاحم في تاريخ، فمن هو هذا المجاهد، وقصته ملحمة التي خلدها له التاريخ، هذا ما سنعرفه من خلال تلك السطور.

ضيفنا في هذه السطور، بطل عظيم من أشجع أبطال الإسلام المجهولين، عاش حياته بطل في ساحات الوغى، استشهد في ميادين العزة دفاعاً عن دينه ووطنه، بطل قضى حياته في خدمة الدين، عاش من أجل رفع راية لا إله إلا الله محمد رسول الله، مات دفاعاً عن بلاد الإسلام، لم يتراجع عن ذلك لحظة واحدة، سطر لنفسه صفحة من أنصع صفحات الجهاد المشرفة.

نحن على موعد مع، مجاهد كبير الإقدام، عظيم المهابة، شديد الصولة، مقاتل قوي شرس لا يخشى عدواً، بطل ملحمة من أعظم ملاحم التاريخ، إنه البطل العثماني خضر رئيس أخو البحار الكبير تورجوت رئيس رحمهما الله تعالى.

كانت قلعة المهدية من بين أهم القلاع التي استولى عليها تورجوت رئيس في المغرب الإسلامي سنة ١٥٤٩م، وتقع هذه القلعة في مدينة المهدية في الجزائر، وقلعتها عند رأس بونة - عناية فيما بعد-، وكانت هذه القلعة محصنة للغاية، لإحاطتها بأسوار مزدوجة، وقد أسند تورجوت رئيس إدارة المدينة إلى شقيقه الصغير خضر رئيس، وخرج هو مرة أخرى على رأس أسطوله الصغير إلى غزواته البحرية.

لقد أصيب الإسبان والإيطاليون بقلق وفزع كبيرين بعد فتح قلعة المهديّة على يد تورجوت رئيس، والسبب في ذلك أن فتح هذه المدينة يعتبر إضافة جديدة إلى قاعدة الجهاد التي أسسها القائد العثماني الكبير خير الدين باربروس، وستؤدي هذه التطورات لاحقاً إلى استحالة تجول السفن الإسبانية والإيطالية في البحر المتوسط، وستعرض رحلات الأساطيل التجارية الصليبية إلى ضربة قاصمة.

دفعت هذه التدايعات الإمبراطور كارل الخامس إلى عقد اجتماع برفقة أعضاء مجلس الحرب، واتخذوا قراراً بشن حرب صليبية على مدينة المهديّة، وأسندت قيادة هذه الحملة للقائد الصليبي الشهير أندريا دوريا، وكان الأسطول الصليبي مكوناً من ٥٣ قادساً - وهي السفن الحربية العملاقة - من إسبانيا، ونابولي، والفاثيكان، وصقلية.

انطلق أندريا دوريا على رأس الأسطول الصليبي الضخم حتى وصل إلى المهديّة وحاصرها، لكن قوات دوريا عانت الأمرين في الاستيلاء على هذه القلعة الحصينة، حتى إن سفينة القائد العام للأسطول الصليبي أندريا دوريا أصابها قذيفة مدفعية أطلقت من داخل القلعة، بعدها رغب قادتها في عدم الاقتراب أكثر لتفادي قذائف المدفعية، وقد سقط منهم أشخاص قتلى جراء هذا القصف.

وقد أدّت هذه الواقعة إلى إجبار مجلس الحرب على إعادة

النظر في مخططاتهم، وقرروا في نهاية المطاف السيطرة على مدينة منستير في البداية، فانطلق دوريا إلى المدينة، وأنزل جنوده إلى الساحل، واستولى على المدينة من دون مقاومة تذكر، إلا أن القلعة الداخلية للمدينة قاومت كثيرًا حتى إن حاميتها كبدت القوات الإسبانية خسائر كبيرة.

وفي مقابل هذه المقاومة الباسلة، اضطر دوريا للتقهقر إلى الخلف للحصول على دعم إضافي، فجاءت إليه الآلاف من القوات الصليبية، ثم حاصر مدينة المهدية مجددًا، وأنزل جنوده إلى ساحلها في يونيو ١٥٥٠ م.

وفي هذه الأثناء بادر تورجوت رئيس إلى توفير المؤن والتموين اللازم لأهل القلعة، ثم بعدها خرج على رأس أسطوله من القلعة عازمًا على توفير التموين الضروري من الخارج لعلمه أن القلعة ستسقط في أيدي الأعداء لا محالة إن لم يأتها العون والمدد من خارجها.

كان خضر رئيس الذي أسندت إليه مهمة الدفاع عن القلعة، قد بدأ في تحفيز معنويات حامية القلعة، وأعددهم للدفاع عن القلعة حتى الموت، وكان يدافع عن القلعة ألف وسبعمائة جندي من المشاة وستمائة فارس، وعلى الرغم من هذه القوة العسكرية قليلة العدد، استطاع خضر رئيس الخروج من القلعة في هجوم مباغت شنه على قوات العدو، وألحق بالقوات الصليبية خسائر فادحة.

أعقب هذا الهجوم تنظيم الصليبيين هجوماً فاشلاً للاستيلاء على القلعة، وأسفرت هذه الأوضاع عن وقوع القوات الصليبية في مأزق حقيقي، فهرع إلى نجدتهم حاكم تونس السابق مولاي حسن، وبدأ جنود مولاي حسن في دعم قوات التحالف الصليبي في حربها ضد أبناء دينهم.

صمد خضر رئيس في دفاعه عن المهدية، وقد كبد العدو خسائر بالجملة، بحيث استطاع الصمود ورفاقه في مواجهة قوات التحالف الصليبي، وقوات الخائن مولاي حسن لأكثر من شهرين آخرين، ولم يتمكن الإسبان من دخول القلعة إلا بعد استشهاد آخر جندي عثماني من القوات المدافعة عن المدينة، وكان خضر رئيس من بين الشهداء الذين سقطوا وهم يدافعون عن القلعة، وكان الدفاع عن المهدية ملحمة عسكرية بكل المقاييس.

عبرة:

يا أيها القارئ الكريم، كانت تلك لمحة عن بطل من أبطال الأمة المجهولين، اتصف بالفداء والشجاعة، والوفاء والإخلاص لدينه ووطنه، فقد كان رحمه الله دائماً على استعداد للتضحية والفداء، فقد كان جبلاً من الجبال، وبطلاً من الأبطال العظام، وعلمًا من أعلام الأمة، فرحمه الله، وأحسن مثواه.

يا شباب، إن أولي الألباب يستحيون أن يطلبوا السلعة الغالية بالثمن التفاه الرخيصة، فهم يبدون استعدادهم للتضحية بأنفسهم

لقاء ما ينشدون، بيد أن الاستعداد أيام الأمن يجب ألا يزول أيام
الروع، إن الإنسان في عافيته قد يتصور الأمور سهلة مبسطة، وقد
يتأدى به ذلك إلى المجازفة والخداع، ولكنه دائماً على يقين بمعية
الله له.



العالم المؤمن^(١)

لو نظرنا وتأملنا التاريخ الإسلامي، كيف أن العلماء كانوا يشكلون حصن الدفاع الأول عن الأمة جمعاء، بمعتقداتها، وشرائعها، ومناهجها، لعلمنا دورهم البارز وأهميتهم، بحيث لن تنهض الأمم إلا بالعلماء العاملين، لذا فقد استحقوا المكانة العالية في الإسلام، ونالوا عن جدارة نوط وراثة الأنبياء من الدرجة الأولى، وهو الذي لا يعطى إلا لمن هو أهل له، ومن يستعرض كل فترات تاريخنا الثري الغني، يجد علماء هذه الأمة يقومون بالدور المنوط بهم على أكمل وجه.

ومن هؤلاء العلماء الأبرار عالمٌ أزهري جليل، رفض أن ينحني أمام السلطان العثماني عبد العزيز الأول عندما جاء مصر، فمن هو هذا الشيخ الجريء، وما كان رد فعل السلطان العثماني عليه، هذا ما سنعرفه من خلال تلك السطور القادمة.

ضيفنا في هذه السطور، علم من أعلام الأمة، كان نحيف الجسم،

(١) مواقف حاسمة للعلماء في الإسلام ** العلماء بين المحن والابتلاءات ** التصوف الإسلامي
لزي مبارك ** الأعلام للزركلي.

عظيم القدر، جبلاً من جبال العلم، وإماماً من أئمة مصر العظماء، شيخ عظيم من أجل شيوخها، كان شخصية من الشخصيات الفذة في تاريخنا المعاصر، تميز هذا العالم الجليل بالأخلاق الزكية، والشيم المرضية، فهو من مصابيح أرض الكنانة، ومن الأئمة الأمة الأعلام، والعلماء الكرام، الذين بلغوا الغاية في العلم والعمل.

نحن على موعد مع، عملاق من عمالقة الأزهر الشريف، كان من العلماء الأبرار الربانيين، الذين لا يخشون إلا الله، ولا تأخذهم في الحق لومة لائم، لقد عاشوا حياتهم لمرضاة الله ربهم، ونصرة عقيدتهم ودينهم، كان أوجد زمانه في علوم الشرع، تميز بقوة البيان، عرف بالجهر بكلمة الحق، كان لا يخشى أميراً أو سلطاناً، عاش حياته لنصرة قضايا أمته فقط، نحن نلتقي بالشيخ الجليل، والعالم المؤمن التقي حسن العدوي رحمه الله.

عندما زار السلطان العثماني عبد العزيز الأول مصر في عهد إسماعيل باشا، كان إسماعيل حفيّاً بالزيارة، لأنها كانت جزءاً من برنامجه لتأكيد سلطانه، وتوكيد صلته بأولي الأمر في الدولة العثمانية، وزاد في الحفاوة والتكريم أملاً منه في الحصول على لقب خديوي، إضافة إلى عدة امتيازات، كان يطمح في الحصول عليها من السلطان، لتمكن له الاستقرار في حكم مصر.

وحتى يبين إسماعيل للسلطان عبد العزيز أنه يستحق أن ينعم عليه السلطان بكل ما يريده، لأن الشعب بكل طبقاته يدين بالولاء

والحب لإسماعيل حتى طبقة العلماء التي يُخشى جانبها دائماً، كان من برنامج الزيارة أن يستقبل الخليفة عبد العزيز العلماء في السراي، ولما كانت للمقابلة السنية تقاليد، منها أن ينحني الداخل إلى الأرض، وغير ذلك من التقاليد السخيفة المنافية لروح الإسلام الحنيف التي تجعل السجود والركوع لله رب الكون فقط، فلا انحناء إلا لو اهب الموت والحياة.

فقد كان حتماً على رجال السراي أن يدربوا العلماء على طريقة المقابلة عدّة أيام، كي لا يخطئوا في حضرة السلطان حتى لا يغضبوه، ويكون في حالة مزاجية ونشوة وسرور تجعله ينعم على حاكم البلاد باللقب الذي يطمح ويطمع في الحصول عليه.

وعندما حان الموعد، دخل السادة العلماء الأجلاء على السلطان، فنسوا دينهم، واشتروا به دنياهم، طمعاً في رضا السلطان وانحنوا أمام مخلوق مثلهم تلك الانحناءات - حتى لو كان سلطان المسلمين نفسه -، وبعد اللقاء خرجوا بظهورهم موجهين وجوههم إلى الخليفة، كما أمرهم رجال التشريفات.

إلا عالماً واحداً هو الشيخ حسن العدوي رحمه الله، الذي ذكر دينه، ونسي دنياه، واستحضر في قلبه أن لا عزّة إلا لله، ولا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، دخل مرفوع الرأس كما ينبغي أن يدخل الرجال الأحرار، وواجه الخليفة بتحية الإسلام: السلام عليكم يا أمير المؤمنين، فرد عليه الخليفة التحية.

ولم يفوت الشيخ الجليل الفرصة، فربما لا يتمكن من رؤية الخليفة مرة أخرى، وهو يعلم أنه الرأس المدبر لكل ما يدور في السلطنة، ووراء كل ما يحدث للمسلمين، ورسالته كعالم دين توجب عليه أن يؤدي واجبه تجاه هذا الحاكم وتجاه رعيته.

وابتدره الشيخ بالنصيحة التي ينبغي أن يتلقى بها العالم الحاكم، دعاه إلى تقوى الله، والخوف من عذابه، والعدل والرحمة بين رعاياه، فلما انتهى من الكلام، سلم، وخرج مرفوع الرأس معطيًا ظهره للخليفة، وإسماعيل وحاشيته.

هنا أسقط في يد الخديوي، ورجال السراي، وأصيبوا بالخوف والفرع من رد فعل السلطان بعد هذا التصرف المرفوض - من وجهة نظرهم - من جانب الشيخ العدوي، الذي لم يلتزم بطريقة المقابلة التي رتبها السراي، وظنوا أن الأمر كله قد انقلب عليهم، وأن السلطان لا بد غاضبٌ من كلام الشيخ، فضائعة تلك الجهود التي بذلوا، والآمال التي نسجوا.

ولكن كلمة الحق المؤمنة لا تذهب سدى، والكرامة لا تأتي أبدًا إلا بالخير، فالكلمة المؤمنة لا بد أن تصدع القلوب قوية حارة، كما نبعت من مكمناها قوية حارة، وهكذا كان، فقد أكبر السلطان هذا السلوك الحميد من الشيخ العدوي الذي لم يهن دينه، ولم تهن كرامته، وقام بواجبه، نحو السلطان والمسلمين.

فقال السلطان موجهاً حديثه إلى إسماعيل باشا: ليس عندكم

إلا هذا العالم التقي الورع، العارف لوظيفة العلماء وواجبهم تجاه السلطان والرعية، وخلع عليه دون سواه، وأنعم على إسماعيل باشا بلقب الخديوي بسبب هذا الشيخ.

عبرة:

يا أيها القارئ الكريم، يحتاج المؤمن عمومًا، والدعاة خاصة إلى معرفة الحياة الدنيا، والحياة الأخرى معرفة يقينية، ليتصرفوا وهم في الحياة الدنيا على ضوء هذا اليقين بما يفيدهم، ويحقق مصالحهم في الدنيا والآخرة، فلقد نصح الشيخ العدوي السلطان بأن يستخدم النعم التي أنعم الله بها عليه، وأن يقصد بها تحقيق الخير في الآخرة، ولا ينسى حظه في الدنيا.

فإن المؤمن الحقيقي يرى الآخرة كما يرى الدنيا، ويعرف القيمة الحقيقية لكل منهما، فالدنيا دار ممر تنتهي بالموت، ومتاعها قليل، وخيرها لا يدوم، ومنغصاتها كثيرة، وقد يختلط خيرها بشرها، كالمال يضيع في المرض، أو سلطان يضعفه الخوف، أو جمال يغيره الشوز والنكد، وجمع تهزمه الكوارث والنكبات.



الشيخ المجاهد^(١)

كانت مصر في رجة ورعب وفزع، لقد أقبل عليها السيل الجارف، الذي اجتاح في طريقه كل شيء من أقاصي المشرق إلى أطراف الشام، نعم إنه الإعصار التتري، التتار الذين كانوا تائهين وراء صحاريهم، كلما رأوا غفلة من دولة الإسلام، أغاروا على جوانبها، فلا تزال جيوشها تطاردهم حتى تلجئهم إلى صحاريهم كما تلجأ الذئاب الكاسرة، إذا دفعتها عن منازل القرية، فتركهم وتعود، لأنها لا تجد لهم مجداً فتهدمه، ولا بلداً فتملكه، ولا راية فتطويها.

حتى نجم فيهم محارب من أفذاذ المحاربين، مقاتل خطر بطاش وهو الطاغية جنكيز خان، كان المسلمون قد صاروا دولاً، وانقسموا أقساماً، فتمكن جنكيز خان منهم، فأودى بأقرب ملك إليه منهم وهو خوارزم شاه، وفتح الباب لحلفائه ليسيروا نحو المشرق، وتساقطت إمارات الإسلام تحت سنابل خيولهم، واحدة

(١) طبقات السبكي ** فتاوي شيخ الإسلام العز بن عبد السلام ** حسن المحاضرة في تاريخ مصر والقاهرة ** النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ** رجال من التاريخ ** رفع الإصر.

بعد أخرى، بظلمهم أمرائهم، وخيانة ولائها، وانقسام شعوبها، وضعف إيمانها، وبعدها عن دينها الذي لا يكون إلا به عزها، حتى كانت المصيبة الكبرى، فسقطت بغداد، وهوى تاج الخلافة.

كانت بغداد أم الدنيا، وقصبة الأرض، كانت بغداد منارة العلم والفن والحضارة والجمال، لم تجمع بلد ما جمعت بغداد من ثمرات العقل والفكر والحضارة، فلم تكن إلا كرة واحدة فإذا عمران بغداد خراب، وأنسها وحشة، وجمالها تشويه، وكتبها التي أودعت حصاد العقول، وثمرات القرائح، تلقى في دجلة حتى يسود حبرها ماء دجلة.

سقطت بغداد، وانكسر السد، فانطلق السيل الجارف، وساح في كل واد، وانبعث النار، وامتدت ألسنتها تضربها الرياح الأربع فتسوقها إلى كل مكان، وكأن يأجوج ومأجوج ذهبوا يفسدون في الأرض، انبعث جيوش هولاء كالجراد، تأكل الأخضر واليابس، تأكل المدن والأمجاد والحضارات.

فمن ذا يوقف هذا السيل بعدما اجتاح المشرق الإسلامي كله، ثم العراق، والشام، حتى شرق أوروبا لم يسلم منها؟ من ذا الذي يطفئ النار، وقد أكلت بغداد أم الدنيا، ودمشق حاضرة الإسلام، والقدس مهوى الأئمة، وانضوت أمجاد مرو من الأرض؟ وتحطمت أرض العلم بخارى، وأصبحت الأناضول رمادًا تذروه الرياح.

من ذا يرد يأجوج ومأجوج، بعدما انتشروا في الأرض؟ أي

جيش يقف أمام جند هولاء كما تمزق جيش الخلافة، وهوت
راياته، وديست أعلامه؟!

لم يبق من دنيا الإسلام دولة كبرى إلا مصر - فالمغرب الإسلامي
والأندلس في ذلك الوقت في حال يرثى لها من التفكك - فهل
تقدر مصر على ما عجزت عنه ممالك الإسلام كلها من أقصى
خراسان إلى أدنى الشام؟!

مصر التي زال عنها سلطان الأيوبيين، حفدة صلاح الدين،
وقامت مكانها دولة فتية هي دولة المماليك، فهل يستطيع المماليك
وقف هذا السيل الجارف؟ لكن قد سرت الشائعات بين شعب
مصر تذيع أنباء قوات التتار الخارقة، ووحشيتهم الكاسرة، فملأ
القلوب بالوجل والخوف والانكسار.

لكن كانت مصر في ذلك الوقت تملك شيخاً دمشقياً - وهو
شيخ العز بن عبد السلام ورحمه الله - نزع إليها، وسكن فيها،
وصار قاضي البلد، وخطيب الجامع، شيخ في قلبه إيمان لو صبَّ
في الحجر الصلد لانبجست منه الحياة، ولو وجه إلى الجبل الراسي
لأزاح الجبل.

شيخ كان يعلم أن هذا الشعب المسلم الذي فتح الأرض من
قبل، وصد الحملات الصليبية المتتابعة، لا تزال في نفسه آثار
البطولة التي فتح بها الأرض، وفي عروقه ذكرى المعارك المظفرة
التي خاضها، والدماء الزكية التي أراقها من أجل دينه، والنصر

الأبلج الذي انتزعه من كل عدو، كان يعلم أن هذا الشعب ما دعي مرة إلى التضحية، والجهاد إلا لبي، لأن في نفسه الإيمان الذي يحول الهزيمة ظفراً، والضعف قوة، والفقر غني، ويصنع من الحجر قنبلة، ومن العصا سيفاً ماضياً، وصرخ الشيخ بأهل مصر: يا أهل مصر اثبتوا، واستعدوا، وحاربوا، وأنا أضمن لكم النصر من الله عز وجل، لقد أيقظ الشيخ الشعب الذي نامت في صدره البطولات فاستيقظ.

وجمع الأمراء، فذكرهم كيف جاؤوا مماليك من شتا بقاع الأرض، فجعلهم هذا البلد ملوكاً، فمن حقه عليهم أن يدفعوا عنه، وعن حياتهم فيه وسعادتهم، عن الحضارة التي أظلمت بظلالها، وجاء هؤلاء التتر ليقتلعوها من جذورها، عن الإسلام الذي شرفهم الله به، وهداهم الله إليه، فاستقادوا إليه، وعزلوا الولد الذي كان ملكاً، وأمروا عليهم البطل القوى، والمحارب المتمرس بالحروب الأمير سيف الدين قطز.

وحينما وصلت تهديدات هولاكو لمصر، وأصبح الخطر على الأبواب، أراد السلطان سيف الدين قطز أن يدبر المال اللازم لتقوية الجيش الإسلامي، وتكثير عدده، وتجهيزه بالأسلحة وآلات القتال، وجمع الذخائر للأقوات الكافية لإعاشته وتمويله إذا ليس في بيت المال ما يكفي للقيام بهذا الأمر العظيم، فخطر ببال قطز أن يفرض ضريبة على الأمة لجمع المال اللازم.

فَعَقِدَ مَجْلِسًا حَضَرَهُ الْعُلَمَاءُ وَالْقُضَاةُ وَالْأُمَرَاءُ وَالْوُزَرَاءُ
وَالْأَعْيَانُ، وَفِي مَقْدَمَتِهِمُ الشَّيْخُ الْعِزُّ بْنُ عَبْدِ السَّلَامِ، فَاسْتَفْتَى
السُّلْطَانَ الْعُلَمَاءُ فِي جَوَازِ فَرْضِ الْأَمْوَالِ عَلَى الْعَامَةِ لِإِنْفَاقِهَا عَلَى
الْجَيْشِ، فَتَهَيَّبَ الْعُلَمَاءُ فِي الْإِفْتَاءِ فِي هَذَا الْأَمْرِ الْخَطِيرِ، وَخَافُوا
إِنْ هُمْ أَفْتَوْا بِالْجَوَازِ أَنْ يَغْضَبُوا الْعَامَةَ عَلَيْهِمْ، وَإِنْ أَفْتَوْا بِالْمَنْعِ أَنْ
يَبْوؤُوا بِغَضَبِ السُّلْطَانِ وَالْأُمَرَاءِ، فَظَلُّوا يَتَدَافَعُونَ الْإِفْتَاءَ، حَتَّى
صَدَعَ الْإِمَامُ الْعِزُّ بِفَتَايَاهُ الْعَظِيمَةِ، فَسَكَتَ سَائِرُ الْحَاضِرِينَ، وَانْفَضَّ
الْمَجْلِسُ عَلَى ذَلِكَ.

كَانَتْ الْفَتَا صَرِيحَةً بِوُجُوبِ اخْتِذِ أَمْوَالِ الْأُمَرَاءِ وَالسُّلْطَانِ
وَأَمْلاكَهِمْ حَتَّى يَسَاوُوا الْعَامَةَ فِي مَلَابِسِهِمْ وَنَفَقَاتِهِمْ، فَحِينَئِذٍ يَجُوزُ
الْأَخْذُ مِنْ أَمْوَالِ الْعَامَةِ، أَمَا قَبْلَ ذَلِكَ فَلَا يَجُوزُ لَهُمْ ذَلِكَ، حَارَّ
السُّلْطَانُ فِي الْأَمْرِ، لِأَنَّهُ إِنْ سَهَّلَ عَلَيْهِ الْأَخْذَ الْمَالِ مِنَ الشَّعْبِ،
فَلَيْسَ مِنَ الْيَسِيرِ عَلَيْهِ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ أَمْوَالِ الْأُمَرَاءِ دُونَ أَنْ يَحْدُثَ
فِي ذَلِكَ شَغَبًا قَدْ يُوَقِّدُ فِتْنَةً.

فَقَالَ قَطْرٌ إِلَى الشَّيْخِ الْعِزِّ: يَا سَيِّدِي، إِنْ فِي اخْتِذِ أَمْوَالِ الْأُمَرَاءِ
صُعُوبَةٌ، وَشَرْحٌ لَهُ ذَلِكَ، فَلَمْ يَرْضَ الشَّيْخُ بِذَلِكَ وَقَالَ: لَا أَرْجِعُ
فِي فِتْوَايَ لِرَأْيِ مَلِكٍ أَوْ سُلْطَانٍ، وَذَكَرَهُ بِالْعَهْدِ الَّذِي قَطَعَهُ عَلَى
نَفْسِهِ أَنْ يَقُومَ بِالْعَدْلِ، وَيَنْظُرَ فِي مَصْلَحَةِ الْمُسْلِمِينَ، وَأَغْلَظَ فِي
ذَلِكَ حَتَّى لَمْ يَقْبَلْ فِي ذَلِكَ مَنَاقَشَتَهُ حَتَّى لَمْ يَشْكُ الْحَاضِرُونَ أَنْ
السُّلْطَانَ سَيَقْبُضُ عَلَيْهِ، فَمَا كَانَ مِنَ السُّلْطَانِ قَطْرٌ إِلَّا أَنْ أَغْرَوْرَقَتْ

عيناه بالدموع، وقام إلى الشيخ فقبل رأسه قائلاً له: بارك الله لنا فيك، ولمصر فيك، إن الإسلام ليفتخر بعالم مثلك لا يخاف في الحق لومة لائم.

لقد قبل السلطان كلام الشيخ العز ببساطة، وبدأ بنفسه، فباع كل ما يملك، وأمر الوزراء والأمرأء أن يفعلوا ذلك، فانصاع الجميع، وتم تجهيز الجيش المسلم، وتم الانتصار الرائع في عين جالوت.

عبرة:

يا شباب، إن الإنسان الحقيقي هو رجل الموقف والكلمة، هو الرجل الذي يكون عند أي عاصفة ثابت لا يتزلزل، وعند أي موقف ثابت الأركان مبني على أخلاق حسنة، وقيم ومبادئ أخلاقية رفيعة، وهو الرجل الممتع برزانة العقل الممعن بالتفكير قبل البت بأي أمر، وهو الذي لا يتسرع في أموره فيكون حازماً، وهذا ما نجده في سلطان العلماء العز بن عبد السلام رحمه الله، فلقد كان حازماً للأمور فعندما غلب على ظنه أن هناك تقصيراً وخوفاً من الأمرأء قام ليحرضهم على مواجهة التتار فكان النصر حليف للمسلمين.

يا سادة، لقد انتزع سلطان العلماء الخوف والفرع من قلوب المصريين، وبث فيهم روح الجهاد والاستشهاد في سبيل الله، فظهر معدن هذا الشعب العظيم حينما تحلى به النوازل، فانتصار بإيمانه على أعتى قوى الشر على ظهر الأرض، لقد جعل الشيخ

العز رحمة الله شعار هذه المرحلة الحاسمة لله أو الجنة، وليس أي شيء آخر، فمنّ الله على عباده المؤمنين بالنصر يوم عين جالوت، وتدمير أعتى الجيوش بقوة الإيمان واليقين.



السلطان والمسرحية^(١)

كان السلطان الجبل عبد الحميد الثاني رحمه الله يكن حبًا واحترامًا كبيرين للنبي محمد ﷺ، فخلال سنوات حكمه كان حساسًا لأقصى درجة إزاء المنشورات التي تجرح المشاعر الدينية، ويجابها بشكل واضح، وكان يناهضها بنفس الجهد داخل الوطن أو في البلاد الأجنبية على حد سواء، ويتدخل في تلك الأمور ضد أي إنسان كائنًا من كان، وقد كان يهبُ على الفور لمنع أية إيماءة حتى ولو كانت صغيرة تسيء إلى النبي ﷺ أو إلى الإسلام في الأعمال المسرحية التي تعرض على مسارح أوروبا، فلم يكن يتخاذل أبدًا في هذا الشأن.

وقد كانت قوة الدولة العثمانية لا حد لها لا تساع أرضيها، ونفوذ الخلافة المعنوي، ولذا كان السلطان عبد الحميد خان يستخدم هذه القوة بصفته خليفة المسلمين ضد كل نوع من المطبوعات والأنشطة التي تجرح المنتسبين لتلك القوة.

(١) السلطان عبد الحميد الثاني المفترى عليه ** ذكريات السلطان عبد الحميد الثاني ** مذكرات السلطان عبد الحميد ** السلطان عبد الحميد آخر السلاطين الكبار .

يقول محمد ممدوح باشا في هذا الصدد: إن إظهار الاحترام للخلافة داخل وطننا، وفي الدول الأخرى، والاستحياء من الاستخفاف بذلك المقام، وتوقير الحب والترابط والعدل، والتكافل بين الأخوة، لمن المبادئ الأساسية، ولو نظر إلى الخلافة بعين واحدة، لفهم أن أولئك الناظرين لم يروا أسرارها السياسية.

فعلي سبيل المثال، كانت تجرى بروفات عملاً درامياً للكاتب الفرنسي مارك دي بورنير يحمل اسم (محمد) في شكل مسرحية لعرضها، وقد أقنع المسرح الحكومي الفرنسي (كوميدي فرانسه) بضمه إلى قائمة عروضه المسرحية عام ١٨٩٠م، فبالإضافة إلى أنه كان يتم تمثيل شخصية النبي محمد ﷺ في المسرحية، كانت توجد أيضاً مشاهد تسيء إلى شخص النبي الكريم ﷺ، وتحوي مغالطات ومشاهد ضد الدين الإسلامي، وما إن علم السلطان الجبل بدأ الإعداد للمسرحية، والتدريب عليها، وبأن هذه المسرحية المُشينة ستعرض على خشبة المسرح في أقرب وقت، انتفض كالأسد الكاسر مُسَخَّرًا كافة الإمكانيات الدبلوماسية، وأرسل تحذيراً شديد اللهجة إلى فرنسا ذكر فيه:

إذا قمتم بعرض هذه المسرحية التي تقدح في رسول الله ﷺ، فأستخدّم صلاحيات الخليفة التي أتمتع بها، وسأُعرض الهند، وبلاد العرب وكل العالم الإسلامي ضدكم.

لم يكتف السلطان عبد الحميد خان بحظر هذه المسرحية

الساخرة في مسرح الكوميدي الفرنسي، بل منع عرضها على كل المسارح الموجودة في فرنسا.

وقد ذكر السفير الفرنسي في إسطنبول الكونت مونتبيلا بشأن حظر المسرحية: أخبر حضرة السلطان بما ورد في التلغراف الذي تلقّيته الآن بشأن المسرحية المسماة محمد للكاتب الفرنسي مارك دي بورينر التي بدأ عرضها في باريس، بأن الحكومة قد اتخذت في اجتماعها هذا الصباح قرارًا بمنع عرضها، وفيما أرجو إبلاغ حضرة السلطان بنتيجة ما حدث، أقدم قناعتي بأنه لا توجد وسيلة أكثر ملائمة للإبلاغ حضرتمكم هذا الخبر، وأنا واثق أنه بهذا القرار الذي اتخذته الحكومة لتلبية رغبات حضرة السلطان، ستعزز الطلب بدوام أسمى العلاقات القلبية مع الدولة العلية، وأن السلطان سيقدّر ذلك، وتفضلوا بقبول فائق الاحترام.

ولما لم ينل مارك هدفه، فحاول عرض مسرحيته في إنجلترا، واتفق مع إيرفنج أحد الممثلين الإنجليز المشهورين، وكانت قد بدأت الإعدادات اللازمة لعرض المسرحية في لندن على مسرح إليسوم، فتدخل السلطان الجبل مرة أخرى، وجعلهم لا يسمحون بعرضها عام ١٨٩٠م، وأريد لنفس المسرحية أن تعرض بعد ثلاث سنوات في لندن على مسرح آخر، إلا أنه حيل بينهم وبين ذلك أيضًا.

لقد نجح السلطان في منع هذه المسرحية في فرنسا وإنجلترا،

وبالرغم من تلك الانتفاضة لسلطان الدولة العلية التي كانت تُشبه الأسد الجريح، ترى هل كان شعور في العالم الإسلامي آنذاك بأن الخليفة سيتمكن من القيام بهذا الأمر؟ نعم، ليت هذا الشعور كان موجوداً، فعلى الرغم من وضع الدولة العثمانية آنذاك إلا أن زئير الأسد المريض هذا أحدث دويًا هائلًا في فرنسا وإنجلترا، ولم يتجرأ الفرنسيون والإنجليز على عرض تلك المسرحية، وعندما شاع هذا الحدث في أرجاء العالم الإسلامي، بدأت رسائل التهنية والشكر تنهال على الخليفة من سائر بقاع العالم الإسلامي وخاصة من مسلمي الهند، لقد وقف السلطان الجبل أمام تلك المسرحية وغيرها كالجبال الأشم الشامخ.

عبرة:

يا سادة، لا يملك الإنسان أمام هذه المواقف الخالدة التي تقف لها الهام إلا أن يقول: إنها النفوس المؤمنة يوم تجاهد في سبيل الله، لا في سبيل قول، ولا في سبيل نفس، ولا في سبيل وطن، بل في سبيل الله، لتحقيق منهج الله في أرض الله في سبيل الله، لتنفيذ شرع الله على عباد الله، ليس لها لنفسها حظ، بل كلها لله الواحد القهار، لا يخافون لومة لائم، وفيما الخوف من لوم الناس، وقد ضمنوا حب وعبودية رب الناس؟ إنما يخشى الناس ولومهم من يستمد حركاته وسكناته ومقاييسه من أهواء الناس، فهو أرضي طيني دوني.

يا شباب، إن هذا المشهد الرائع ليدلنا على عمق الإيمان في قلوب عمالقة الإسلام، واستحضار لعظمة الله عزو وجل في ترك الخوف من البشر، وإن من النتائج المسلمة في هذا الأمر أن يحتقر الإنسان كل مظاهر الدنيا لأنها لا تساوي شيئاً أمام عظمة الله جلا وعلا، وإنه على قدر وجود الإيمان بالله تعالى في قلب المؤمن واستحضاره لعظمته تكون درجة الإيمان.



ال خليفة واليهودي^(١)

الإسلام هو دين العدالة، وأمة الإسلام هي أمة الحق والعدل، وقد أقام الرسول ﷺ العدل بين الناس، وكان نموذجاً في أعلى درجاته، وأقامه خلفاؤه من بعده، وظل العدل هو شعار سلاطين الإسلام على مر العصور، ولأن العدل دائماً دعامة الأمم الراشدة، ولهذا حرص الإسلام على تأكيد أهميته بين جميع البشر فقد قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ﴾ (النساء: ٥٨).

حديثنا في هذه الصفحات عن نموذج من هؤلاء السلاطين الذين أقاموا دعائم الحق، سلطان تحرى العدل مع رعاياه، وإن كانوا من غير المسلمين، فمن يكون هذا السلطان العبقري العظيم، وما هي قصته مع اليهودي الذي رفض أن يبيع له داره، وماذا فعل به، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، سلطان عظيم أقام دهرًا طاهرًا اللسان،

(١) تواريخ آل عثمان ** روائع في التاريخ العثماني ** صفحات مطويات من تاريخ وحضارة الدولة العثمانية ** الدولة العثمانية ** العثمانيين في تاريخ والحضارة ** جوامع استانبول.

لم ينل أحدًا بمكرهه، كانت أيام كالعافية، والرعية في أمان على أنفسهم وأموالهم وديارهم، لا ينظر إلى ما بأيديهم، ولم يعرف الناس قدره حتى فقد، لم يدخل عليه في طول لولايته خلل، ولا أدخل عليه أحد شيئاً من ذلك، كان من محاسن الوجود في زمانه.

نحن على موعد مع سلطان العالم، الرجل الذي قال عنه المؤرخون الصليبيون عند موته كان أخطر علينا من صلاح الدين نفسه، رجل عظيم، وفاتح كبير، قاد جيوش الإسلام في ثلاث عشرة حملة كبرى، خط القرآن بيده ثمانية مرات، وكان فوق ذلك شديد الحلم، كثير التواضع، وجود بما في يده على الفقراء، يأكل من عمل يده، نحن نلتقي الآن بدرة بني عثمان، وسلطان الأكبر في العالم سليمان بن سليم المكنى بسليمان القانوني رحمه الله.

نحن الآن في عاصمة الدنيا إستانبول، وفي عهد السلطان سليمان القانوني، الذي بلغت الدولة العثمانية أوج مجدها في عهده، وعاشت عصرها الذهبي، كان السلطان يريد أن يبني جامعاً يكون فريداً بين الجوامع، التي بناها أجداده في استانبول، يجب أن يكون جامعاً فخماً، ورائعاً وكبيراً، وفي أجمل موقع في استانبول.

أمر السلطان رجاله بالبحث عن المكان المناسب لهذا الجامع، فتفرق رجال السلطان في أرجاء المدينة لبحث عن أنسب مكان لهذا الجامع، كانت هناك عدة أماكن، ولكن مكاناً معيناً كان أنسبها، وأوسعها، وأجملها.

لكن كانت هناك مشكلة صغيرة، فقد كان هناك كوخ صغير
يهودي في وسط هذا المكان المختار، وكان لا بد من إزالته قبل
المباشرة في بناء الجامع.

فطرقوا باب الكوخ الصغير، فخرج إليهم اليهودي وقال: خيرًا
ما الأمر؟

قالوا: نحن رجال السلطان سليمان، نبحث عن مكان مناسب
لبناء جامع حسب أوامر السلطان.

فقال اليهودي: وما دخلي أنا في هذا الأمر؟ أنا لست مهندسًا،
ولا بناءً.

قالوا: ولكن هذا هو المكان الذي تم اختياره لبناء الجامع،
وكوخك في وسطه، لذا فلا بد من إزالته.

قال اليهودي: هل ستهدمون كوكخي؟

قالوا: بل نشتره منك، فكم تطلب ثمنًا له؟

قال اليهودي: كلا، أنا لا أنوي بيعه.

قالوا: نعطيك مبلغًا مناسبًا تستطيع أن تشتري به بيتًا أفضل من
هذا الكوخ الصغير.

قال اليهودي: كلا، كلا، إنني راض عن كوكخي هذا، صحيح أنه

كوخ صغير، ولكنه يشرف على أجمل منظر كما ترون، يشرف على منظر مياه الخليج.

قالوا: سنعطيك أضعاف سعره، وبيتًا في وسط العاصمة.

قال اليهودي: كلا، أنا لا أنوي بيعه بأي ثمن، ثم إنه قريب من محل عملي.

لم ينفع أي كلام مع هذا اليهودي المعاند، لذا رجعوا إلى السلطان، ولما مثلوا بين يديه قالوا: أيها السلطان العظيم، هناك كوخ ليهودي في وسط العرصة التي تم اختيارها لبناء الجامع، والتي نالت إعجابكم، وحاولنا شراءه منه، ولكنه لم يقبل مع أننا عرضنا عليه مبلغًا كبيرًا ودارًا أخرى فرفض، فإذا صدرت أوامركم السلطانية قمنا بطرد هذا اليهودي، وهدم كوخه.

هز السلطان رأسه علامة النفي، وقال: كلا، ليست من عادتنا فعل مثل ذلك الأمر، ولا يسمح ديننا بظلم أحد، أو ترويعه، يجب أن نجد حلًا مناسبًا للأمر.

وهكذا توقف مشروع بناء الجامع بحثًا عن حل شرعي لهذه الأزمة، وأخيرًا قرر السلطان استشارة شيخ الإسلام في الأمر، فأجابه شيخ الإسلام وقال: حكم الإسلام واضح في هذا الأمر أيها السلطان، لا نستطيع فرض أي جزاء أو عقاب على هذا اليهودي لامتناعه عن البيع، لأن الكوخ ملكه، ولا يجوز أخذه قهْرًا، وإذا

مات فإن أبناءه يستطيعون أيضًا الامتناع عن بيع الكوخ، لأن الشرع يقر انتقال المال من الآباء إلى الأبناء، وباختصار لا يوجد أمامكم سوى سبيل واحد وهو: القيام بإرضاء هذا اليهودي.

فكر السلطان مليًا في الأمر، ثم التفت إلى رجاله قائلاً لهم: سأذهب بنفسي إليه، وسأرجو منه بيع الكوخ لعله يقبل مني.

ذهب السلطان سليمان القانوني بنفسه إلى كوخ اليهودي، وترجل عن جواده، ثم طرق الباب، خرج اليهودي ليرى أمامه سلطان البرّين والبحرين، أعظم حاكم على وجه الأرض، وحوله بعض رجاله، ودُهل الرجل وهو يستمع إلى السلطان، وهو يرجو منه بيع الكوخ، لم يستطع أن يرفض هذه المرة، ولا سيما أن السلطان عرض عليه أضعاف المبلغ المعروض عليه سابقًا من قبل رجاله.

وهكذا تم شراء ذلك الكوخ، وهكذا تم بناء جامع السلمانية الفخم الذي يُعد آية من آيات الفن المعماري الإسلامي.

عبرة:

يا سادة، كان تصرف السلطان في هذا الأمر شاهداً من شواهد العدالة الإسلامية، هذه العدالة التي جاءت رحمة للناس جميعاً، وصدق رب العزة سبحانه: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ (الأنبياء: ١٠٧).

فأين مفكرون الأمم الذين يدعون بأنهم هم أهل العدالة،

لِيَرَوْا أَحْكَامَ عِظَمَاءِ الْإِسْلَامِ الْكَثِيرَةِ الْعَادِلَةِ، وَذَلِكَ لِيَعْلَمُوا أَنَّهُمْ
إِنَّمَا اقْتَبَسُوا مَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعَدَالَةِ مِنْ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ الَّتِي تَأَسَّتْ
بِرَسُولِهَا ﷺ.



وفد نصراني يطلب حكم المسلمين^(١)

لعل السبب الأهم في بقاء الفتوحات العثمانية إلى اليوم، هو التسامح، والرحمة، والمعاملة الإنسانية، التي أبدتها الدولة العثمانية تجاه الشعوب التي فتحت أراضيها، إذ كانت الدولة العلية تسمح لأبناء هذه الشعوب ممارسة طقوسها الدينية، وترعى القيم الإنسانية في هذه الأراضي، وكأنها نقشت سياستها في الفتوحات، استلهاً من مقولة العالم العثماني الشيخ أدب عالي رحمه الله حينما قال:

أحي الإنسان تحيا الدولة، ولأجل التسامح والرحمة التي أبدتها الدولة تجاه غير المسلمين، جاء وفد نصراني كبير إلى السلطان مراد الثاني يطلب منه حكم المسلمين، في مشهد لن ولم يتكرر إلا في تاريخ الإسلام، فما قصة هذا الوفد، وما طلبه من السلطان مراد، وما كان رده عليهم، هذا ما سنعرفه الآن.

اشتهر العثمانيون بالعدل في كل البلاد التي قاموا بفتحها، وفي إحدى هذه الفتوحات، وهو فتح مدينة سالانيك - وهي تقع في دولة

(١) بشاير أهل الإيمان بفتوح آل عثمان ** الدولة العثمانية دولة إسلامية ** روائع من التاريخ العثماني.

اليونان اليوم- وكانت قد فتحت هذه المدينة في عهد السلطان بايزيد الأول، وعندما انهزم السلطان بايزيد الصاعقة في معركة سهل أنقرة، أمام خصمه الطاغية العنيد تيمور لك -أي تيمور الأعرج- انتهز أمراء البندقية هذه الفرصة واحتلوا مدينة سلانيك ١٤٠٤م، بعد ذلك استطاع السلطان مراد الثاني هزيمة البنادقة، واسترد المدينة عام ١٤٣١م.

وعندما كان السلطان مراد في مدينة سلانيك، أعلموه أن وفدًا من أهل مدينة يانيا قد حضر، وهم يرجون المثل بين يديه لأمر هام، تعجب السلطان من هذا الخبر، فماذا يريد أهل المدينة من السلطان، فالبلاد لم تكن تحت حكمه، ولم يكن له أي علاقة بهذه المدينة، وكانت آنذاك تحت حكم دولة إيطاليا.

وكانت مدينة يانيا تحت حكم عائلة إيطالية معروفة في ذلك الوقت، وهي عائلة توكو، وعندما مات كارلو توكو الأول عام ١٤٣٠م، تولى الحكم بعده ابن أخيه كارلو توكو الثاني، ولكن أبناء توكو الأول غير الشرعيين ثاروا وطالبوا بالحكم، بدلًا من ابن عمهم، فبدأ عهد من الاضطراب، والفوضى، والحروب الأهلية، وعانى الشعب الأمرين من هذه الحروب، وعندما سمعوا بأن السلطان مراد الثاني بالقرب منهم في مدينة سلانيك، قرروا إرسال وفد عنهم لمقابلة السلطان.

أمر السلطان مراد رئيس حجابيه بالسماح للوفد بالدخول عليه،

فلما دخل أهل يانبا عليه، قال السلطان لرئيس الوفد بواسطة الترجمان: أهلاً بكم، ماذا أتى بكم إلى هنا؟ وماذا تبغون منا؟ قال رئيس الوفد: أيها السلطان العظيم، جئنا نلتمس منكم العون، فلا تخيب رجاءنا، فقال لهم: وكيف أستطيع معاونتكم.

قال رئيس الوفد: يا مولاي إن أمراءنا يظلموننا، ويستخدموننا كالعبيد، ويغتصبون أموالنا، ثم يسوقوننا للحرب، قال السلطان: وماذا أستطيع أن أفعل لكم؟ إن هذه مشكلة بينكم وبين أمرائكم.

قال رئيس الوفد: نحن أيها السلطان العظيم لسنا بمسلمين، بل نحن نصارى، ولكننا سمعنا كثيراً عن عدالة المسلمين، وأنهم لا يظلمون الرعية، ولا يكرهون أحداً على اعتناق دينهم، وإن لكل ذي حق حقه لديهم، لقد سمعنا هذا من السياح والفلاحين، ومن التجار الذين زاروا مملكتكم، ولذا فإننا نرجو أن تشملنا برعايتكم وبعطفكم، وأن تحكموا بلدنا، لتخلصونا من حكامنا الظالمين.

ثم قدموا له مفتاح المدينة الذهبي، واستجاب السلطان لرجاء أهل مدينة يانبا، وأرسل أحد قواده على رأس جيش إلى هذه المدينة، وتم فتحها بمساعدة أهلها في السنة نفسها عام ١٤٣١ م.

عبرة:

يا شباب، لم تكن الغاية من الفتوحات لدى المسلمين توسيع رقعة الأرض الإسلامية، ونهب ثروات البلاد المفتوح، أو ظلم

الناس، أو فرض الإسلام بالقوة، بل كان هدف المسلمين نقل القيم الإسلامية في كل الأرجاء، وغرس محاسنها في كل القلوب، لذا سعى سلاطين وقادة الإسلام، إلى كسب قلوب الشعوب في الأراضي المفتوحة، ونيل محبتهم ورضاهم، حتى يرضى عنهم رب العباد، فقاموا بإنجاز مشاريع محمودة في تلك الديار الجديد، لخدمة أبناء هذه البلاد، وفتحاً لقلوبهم للإسلام فدخل الناس في دين الله أفواجًا.

يا أيها القاري الكريم، هذه ليست قصة خيالية، مع أنها قصة غريبة، إلا أنها حقيقية وتاريخية، لقد كان المسلمون رمزاً للعدل، والإنصاف، ولقد تكرر هذا الأمر كثيرًا في تاريخ الإسلام، وهذا يدل على عدل الإسلام و المسلمين.



أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني^(١)

لا شك أن أعلى وجوه الفداء وأكثرها خيرًا وأثرًا، هو أن يكون قائد المجاهدين أحرصهم على روح البذل والفداء، حتى يعطي القدوة من نفسه فإذا الذين من ورائه يسارعون إلى مواطن التضحية بلا تردد ولا إبطاء، وتاريخ الإسلام العظيم يعرض علينا الكثير من نماذج القادة الذين كانوا أسوة حسنة لجنودهم في الحرص على صدق الجهاد، وروعة التضحية والبذل والفداء، ومن هؤلاء كان العملاق العظيم، والمجاهد الفدائي حامد الزغبى رحمه الله صاحب ملحمة صمود مدينة مالقة في وجه التحالف الصليبي أحد عشر شهرًا.

لقد كان هذا العملاق من أكبر أبطال المسلمين وحماتهم، وكان رحمه الله لا يحب الابتعاد أبدًا عن الميدان والجهاد، وقد ناضل نضالًا كريماً طوال حياته حتى لقي ربه على ذلك، فتعالوا بنا لنعيش في هذه السطور مع هذه الملحمة الخالدة.

(١) نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب ** أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر ** خلاصة تاريخ الأندلس ** البيان في تاريخ المغرب والأندلس.

كان مالك قشتالة فرناندو قد أجمع على تحقيق خطته لسحق البقية الباقية من دولة الإسلام في الأندلس قبل أن يعود إليها اتحاد الكلمة، فبعث إليها روجًا جديدة من العزم والمقاومة، وكان من الطبيعي أن يوتر البدء بغزو القواعد الشرقية والجنوبية من غرناطة التي يسيطر عليها أبو عبد الله الزغل، لأن الزغل لم يكن يدين بطاعته، وكان يبدي في مقاومته عزمًا لا يلين ولا يخبو فاتجه بقواته إلى قاعدة بلش حصن مدينة مالقة وبعد دفاع عنيف من أهلها سقطت في يده كان ذلك في جمادى الأولى سنة ٨٩٢ هجرية = مايو ١٤٨٧ م.

وعلى أثر سقوطها غادرها معظم أهلها، وتفرقوا في حواضر الإسلام الباقية، وجاز كثير منهم إلى عدوة المغرب، واستولى النصارى على جميع الحصون والقرى المجاورة، واستطاعوا بذلك أن يشرفوا على مدينة مالقة من كل حذب وصوب، وكانت مالقة من أمنع ثغور الأندلس، وقد أضحت بعد سقوط جبل طارق عقد صلتها الأخيرة بعدوة المغرب في حال يرثى لها، وكان فرناندو يحرص على أن يقطع كل وسيلة ناجعة لقدم الإمداد من المغرب الإسلامي وقت الصراع الأخير، وكان الاستيلاء على مالقة يحقق هذه الغاية.

وما كاد النصارى يظفرون بالاستيلاء على بلش والحصون المجاورة، حتى زحفوا على مالقة وطوقوها من البر والبحر بقوات

كثيفة، كان ذلك في أوائل جمادى الثانية عام ٨٩٢ هجرية =
يونيه ١٤٨٧ م، وكانت المدينة تموج بالمدافعين عنها وعلى رأسهم
المجاهد الكبير حامد الزغبى ومعه نخبة مختارة من أكابر الفرسان
من المغاربة والأندلسيين، ومع ذلك قرر أهل البلدة تسليم المدينة
للتاغية لعدم جدوى المقاومة، وقبول دعوة السلطان الخائن أبى
عبد الله الصغير صاحب غرناطة حليف التاغية للتسليم.

لما علم المجاهدون بأمر تسليم المدينة للتاغية طارت عقولهم
عندما سمعوا بما عزم عليه أهل البلدة، واستنفروا من بقي من
أهل المدينة على عهد الأمير الزغل صاحب وادي آش، واستدعى
القائد حامد الزغبى الخواص إلى حضرته فجاءوا جميعاً، فقرروا
المقاومة حتى الموت.

وجاء وفد من التاغية ومعه وفد من أنصار أبى عبد الله الصغير
أصحاب فكرة التسليم، يطلبون من حامد الزغبى التسليم بدون
قتال حقناً للدماء، فقال حامد للرئيس الوافد: اذهب وقل لسيدك:
إنني قد تسلمت مدينة مالقة لأحميها لا لأسلمها.

عند ذلك علم فرناندو أنه لن يستطيع دخول المدينة إلا بعد
قتل حامد الزغبى ومن معه فقدم المدافع، وزحف بالجيش
وقابلته أساطيله من البحر، فأحرق حامد الأرباض، وسير ثلاث
فرق لمصادمة العدو، وذلك أنه لما كان لا بد للإسبان من المرور
بمضيق بين قصر المنارة والجبل، أمر الزغبى فرقة من جيشه

باحتيال المضيق، وأخرى باحتلال الصخرة، وأخرى بالنزول
بالجبهة البحرية.

كانت بداية الحرب في المضيق وكانت الحرب طاحنة بين
الفريقين وتلاحقت النجدات للنصارى، فعظم سوادهم، واشتدت
وطأتهم، لكن المجاهدين ثبتوا في مواقعهم وصدوا جموعهم
فترجعوا تحت ضغط المقاومة الإسلامية، فبدأ فرناندو بضرب
الأسوار بالمدافع، فحدثت حرائق هائلة، ولكن المدينة قاومت
مقاومة شديدة لمتانة أسوارها، ومنعة مواقعها، ولم تؤثر النيران
إلا في برج واحد كبير تداعى أكثره للخراب، فتسلقه الإسبان
فدحرهم المسلمون أول مرة وأهلكوا منهم خلقاً كثيراً، فحملوا
ثانية وصدقوا الحملة فأزاحوا المسلمين، وملكوا الحصن، فجمع
المسلمون وحملوا عليهم، ووضعوا النار في الأخدود فخر من كل
جانب ومات جميع الإسبان داخله.

هنا جاءت الملكة إيزابيلا بجيش عظيم لمساعدة زوجها،
وبعثوا وفداً آخر إلى حامد الزغبى بطلب تسليم المدينة، فترجاه
بعض الخواص بقبول التسليم فرفض حامد العرض، هنا أمر
الطاغية بإطلاق المدافع فأطلقت نيرانها نحو المدينة، وأمر الطاغية
فرناندو الماركيز صاحب حصن قادس بالهجوم على برج قريب
من جبل المنارة، فأطلق النيران بشدة نحو الحصن، وتقدم بالجند
نحو ذلك البرج وطمع في أخذه، فانهال عليه ألف مغربي فذبحو

أجناده، وهزموا من سلم منهم فتلاحق المدد للنصارى، فأعادوا الكرة والتحم الفريقان وهلك منهما خلق كثير، وتولى الصبر مقام المغاربة فكاد الماركيز ينهزم ثانية، وكادت رايته تقع في يد المسلمين لولا أن قائد المجاهدين إبراهيم بن زنادة جرح في معمة القتال، فعاد به الجنود إلى الحصن، لكنهم أرسلوا إليهم رماة السهام، فقتلوا معظم الإسبان وتراجع الإسبان وقد فشا فيهم القتل، وهلك في هذه الواقعة أحد أشهر فرسان النصارى ويدعى أورتاغو دوبرادوا، فكان يومًا عصيبًا على الإسبان.

كان حامد الزغبى لا يكل ولا يمل، وكان في كان مكان يبعث الحماس في نفوس المجاهدين، يجاهد كما يجاهدون، ويعاني كما يعانون، وشرع يرمم المتهدم من أسوار المدينة، حتى إنه عزم على بناء ست سفن حراقات لقصد الهجوم على أسطول الإسبان.

وفي هذا الوقت توافدت جموع المتطوعين من جميع من مدن أوروبا تحت راية الصليب، وقد استجلب الملك والملكة الذخائر والأقوات من جميع مدن إسبانيا، وأمرأ ببناء أبراج من الخشب يسع الواحد منها مائة مقاتل تمشي على دواليب، ولها سلالم لأجل التسلق والنزول، ثم أمر بحفر الخنادق تحت الأرض.

وكان حامد لا يترك للمحاصرين راحة ولا يمهلهم فواقًا، بل يغاديهم النزال ويراوحهم، حتى ملوا وامتلاأت الخيام بالجرحى والمرضى، ثم لم يلبث أهل مالقة أن اكتشفوا الحفر تحت جدران

المدينة، فحفروا بإزائها ونقبوا تحت الأرض فكان المسلمون والنصارى في تلك الدهاليز يتصارعون في بطن الأرض صراعهم فوق ظهرها، إلا أن الظهور كان للمسلمين وقتلوا جميع المهاجمين.

ثم تجمع المحصورون وحملوا من البحر والبر حملة واحدة على العدو، واستمر القتال ست ساعات فلم يهزموا العدو، وعادوا إلى المدينة وكان الجوع قد فشا في مالقة، وانقطع عنها جميع المدد وسدت دونها المسالك، وفنيت الغلال فاشتد الكرب على الناس، وأجمعوا على مراسلة الطاغية، في أمر التسليم بشرط الأمان على النفوس والنفائس، وأنفذوا بالرسالة مع رجل منهم، فشعر به أصحاب حامد فرشقوه بالسهم فأصيب الرجل ثم مات.

ولما رأى أهل وادي آش ما حل بأهل مالقة من الضيق سألوا السلطان الزغل المسير لنجدتهم، فحشد جيشاً، وجهز له ما يلزم وتحرك بقواته نحو مالقة، فلما علم الخائن أبو عبد الله الصغير تحرك عمه الزغل نحو مالقة، تحرك بجيشه لمعارضة جيش عمه في الطريق إثباتاً لأمانته وتأكيده لصداقته لملوك النصارى، ولم تأخذه رافة بأبناء دينه، وعلى حين غفلة من جيش الزغل انقض الخائن بكل شراسة واستطاع أن يهزم الزغل هزيمة نكراء، فنقل الزغل إلى وادي آش، وبعث الخائن بالبشائر النصر إلى فرناندو وإيزابيلا.

كان الجوع قد عض أهل مالقة حتى طلبوا لحم الخيل فلم

يجدوه، فأكلوا الجلود وطبخوا الورق بالزيت، وهلك منهم خلقٌ كثيرٌ، والتجأ جماعة إلى معسكر النصارى مؤثرين الرق على الموت جوعاً، عند ذلك ذهب جماعة من أعيان المدينة إلى حامد الزغبى فوجدوا عنده جماعة من العلماء، فقالوا: إننا نتوسل إليك بالله وبرسوله أن لا تصر على مقاومة عقيمة الجدوى، فإن أسوارنا دون أسوار رندة وقد تهدمت رندة، ورجالنا ليسوا بأشد من رجال لوشة وقد سلمت لوشة، وليس لنا في غرناطة كبير أمل، فإن سلطانها أبا عبد الله تابع لملوك النصارى، وإن الزغل عمه طريد منها شريد في وادي آش، فما ننتظر ونساؤنا وأطفالنا يهلكون أماناً جوعاً، فأجابهم حامد: علينا بعد هجمة أخيرة، فلا تثبطوا عزائمنا عنها.

وفي اليوم التالي خرج رافعاً راية أحد الدرويش ووراءه إبراهيم الزناتي، وجماعة من مغاوير غمارة، وصعد النساء والأولاد على أعالي الأبراج لمشاهدة الواقعة الأخيرة، وزحف المجاهدون نحو معسكر صاحب قلعة رباح ومعسكر صانتياغو فصدق المسلمون الحملة، وهبت الريح بالنصر وخفقت لها راية الدرويش، وحمي الوطيس وتسابقت غمارة إلى رياح الجنة فانكشف الإسبان، وطاردهم المجاهدون بالقتل والأسر، فوقع الرعب في قلوبهم، وتداعوا من كل ناحية للفرار.

وبينما الأمر كذلك إذ خر الدرويش صريعاً بحجر أصابه، وسقطت الراية فتطير المسلمون، ونزل بهم الهلع ورجعوا أدراجهم

فلما رأتهم النساء مدبرين ارتفع عويلهن ونادين بالويل والثبور، وصمد المسلمون للهجوم المضاد لكنهم فشلوا، هنا قام الزغبى يحاول بكل قواته تنظيم الصفوف لكنه فشل، فراجع إلى معقله مع قومه، وانقطع أمل أهل مالقة في النصر، فراسوا الملوك على التسليم، فرضوا منهم على التسليم، ودخلوا مالقة، وبقي الزغبى ممتنعاً في أحد القلاع، إلا أن جماعته جنحوا إلى التسليم من الجوع.

فبعث أصحاب الزغبى إلى الملك بالتسليم، فأجابهم: أنه لا ينالهم إلا ما ينال أهل مالقة، فلما استسلم الزغبى غدر به، وأخذه هو وأصحابه أرقاء، وحينما سأله الطاغية عن سبب مقاومته الشديدة له كل هذه الشهور، أجابه الزغبى: إني أقسمت أن أجاهد في سبيل ديني ووطني، ولو طاو عني جندي ما أسلمت السلاح أبداً، فغضب الطاغية وصب عليه جام غضبه، وعذبه عذاباً شديداً وقتله أمام الناس، ثم غدر الطاغية بأهل مالقة وقتل معظم أهلها.

عبرة:

يا شباب، هكذا يتحفنا تاريخ قادة المسلمين بالروائع الجهادية في المشرق والمغرب، حيث يرى أولئك القادة أن سعادتهم الروحية ليست في القلب في نعيم الدنيا، وإنما هي في إغاثة الملهوفين، وإنقاذ المكروبين، وإعزاز الإسلام والمسلمين، وإذلال للأعداء، لقد رفض الزغبى رحمه الله أن يعيش في القصور، ويترك مدن

المسلمين في يد أعداء الله، فجاهد بكل بسالة حتى لقي ربه جل وعلا على ذلك، لقد كان رحمه شهماً بطلاً في زمن الأنذال، لقد رفض هذا المجاهد كل محاولة الإغراء بالمال لبيع مدن الإسلام، ورفض كل تهديد من الطاغية وزوجته، وسلطانة الخائن أبي عبد الله الصغير.

في هذا الخبر أيضاً إثارة هذا المجاهد البطل الحق على الهوى، وترك هذا العرض الزائل لله تعالى، فعوضه الله خيراً، فرفعه في الدنيا بذكره، وفي الآخرة بالفوز برضوان ربه بإذن الله، وهكذا هم العظماء في كل مراحل التاريخ الإسلامي لا يكون لهم هدف في الحياة إلا الحق ونصرته على أتباع الهوى، ولقد رأينا في هذه الملحمة الجهاد الأسطوري لهذا المجاهد العظيم ومن معه من المجاهدين، وإن هذه الملحمة لتكتب لهم في مكارم الأخلاق.



الإمام العظيم^(١)

إن الكلام عن عظماء الأمة يعمرُّ القلوب، ويصقل النفوس، ويزرع الهمم في الأعماق والقلوب، وتساعد سيرهم على الإخلاص للعلم الخلاق، فهم النور والهداية لمن يسير في طريق إلى ربه، كانوا وما زالوا مصابيح الهدى، ومناورات التقى، من سار على طريقهم فاز في الدنيا والآخرة، وحديثنا في هذه الصفحات عن عالم من علماء الأمة الأفاضل عاش حياته ليصرخ بكلمة الحق، لا يخشى في ذلك سلطاناً أو أميراً، فمن يكون هذا الإمام الجليل، وما هي قصته الرائع مع خليفة المسلمين سليمان بن عبد الملك، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، فقيه من فقهاء الأمة، وجهذ من جهابذة علماء الإسلام، كان من أكابر علماء التابعين رسوخاً في العلم، وعلم من أعلام الأمة الثقات الذين أثروا الدنيا بالعلم والفهم والمعرفة، فقد تميز وتألّق في شتى علوم الدين، كان يفرشُ

(١) مروج الذهب للمسعودي ** تذكرة الحفاظ للذهبي ** الوافي بالوفيات للصفدي ** تهذيب التهذيب للعسقلاني ** موسوعة الأعلام ** سير أعلام النبلاء ** طبقات خليفة بن خياط.

الطمأنينة في أعماق محبي العلم، ويسكب الثقة في أسماعهم.

نحن على موعد مع رجل، خالط القرآن العظيم روحه وقلبه، وأثر فيه جسمًا ونفسًا، وسُلوًا وسميًا، وفهمًا وعلمًا، عاش مع آيات ربه عيشة المحبين، فكان أنسيه في ليله، وسميره في نهاره، وصاحبه في صلواته وخلواته وخطارته.

نحن نلتقي بعالم المدينة، وقاضيه وشيخها، وإمامها الثقة، الرجل الذي كانت حلقة في المسجد النبوي مهوى القلوب والأفئدة، ومحط أنظار العلماء والصلحاء، صاحب السيرة الجميلة التي تشبه أزهار الرياض، الرجل الذي كانت تتدفق الموعظة والحكمة من فمه تدفق الماء الرقاق، إنه التابعي الجليل، والإمام العظيم أبو حازم الأعرج سلمة بن دينار رحمه الله أحد عباقرة الإسلام، الرجل الذي كان من أشد الناس في الحق.

وإني من خلال هذه السطور، سأخذ بيد القارئ، ثم نتجول معه في روض أنفٍ أنيقٍ نكتطف أزاهر جميلة في مجال الصدع بكلمة الحق، وسنشعر إن شاء الله بالمتعة والفائدة، ونحن نجتمع طاقات فواحة من سيرة هذا الرجل العملاق العظيم، وكيف كان يدعو إلى الله، ويصدق بكلمة الحق بلا خوف أو خشية، فتعالوا بنا لنتجول بين صفحات التاريخ لنرى هذا المشهد العجيب لهذا العبقرى العظيم.

دخل أمير المؤمنين سليمان المدينة زائرًا بعد أن قضى مناسك

الحج، فلما حطَّ رحاله فيها، أقبل وجوهُ الناس وذوو الأقدار للسلام عليه والترحيب به، لكن أبو حازم الأعرج لم يكن في عداد من زاروا الخليفة.

فلما فرغ سليمان من استقبال المرحبين به، قال لبعض جلسائه: إن النفوس لتصدأ كما تصدأ المعادن، إذا لم تجد مَنْ يذكرها الفينة بعد الفينة، ويجلو عنها صدأها، فقالوا: نعم، يا أمير المؤمنين، فقال: هل في المدينة رجل أدرك طائفة من صحابة رسول الله ﷺ يذكرنا؟

قالوا: نعم يا أمير المؤمنين، ها هنا أبو حازم الأعرج، فقال سليمان: ومن أبو حازم الأعرج؟ فقالوا سلمة بن دينار عالم المدينة وإمامها، وأحد التابعين الذين أدركوا عددًا من الصحابة الكرام، فقال: ادعوه لنا، وتلطفوا في دعوته، فذهبوا إليه ودعوه، فلما أتاه رحب به، وأدنى مجلسه، وقال له معاتبًا: ما هذا الجفاء يا أبا حازم؟ فقال أبو حازم: وأي جفاء رأيت مني يا أمير المؤمنين؟ قال سليمان: زارني وجوه الناس، ولم ترزني!! فقال: إنما يكون الجفاء بعد المعرفة، وأنت ما عرفتني قبل اليوم، ولا أنا رأيتك، فأبي جفاء وقع مني؟

فالتفت الخليفة إلى الجلساء وقال: أصاب الشيخ في اعتذاره، وأخطأ الخليفة في عتبه عليه، ثم التفت إلى أبي حازم، وقال: إن في النفس شئونةً أحببت أن أفضي بها إليك يا أبا حازم، فقال:

هاتها يا أمير المؤمنين، والله المستعان، فقال الخليفة: يا أبا حازم، ما لنا نكره الموت؟! فقال: لأننا عمّرنا دنيانا، وخرّبنا آخرتنا، فنكره أن تنتقل من العمار إلى الخراب.

فقال الخليفة: صدقت يا أبا حازم ثم أردف قائلاً: يا أبا حازم ما لنا عند الله غداً؟، فقال: اعرض نفسك وعملك على كتاب الله عز وجل تجد ذلك، قال: وأين أجده في كتاب الله عز وجل؟ قال: تجده في قول رب العزة سبحانه: ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ (١٣) وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ﴾ (الانفطار: ١٣، ١٤).

فقال سليمان: إذن فأين رحمة الله بعباده؟، فقال أبو حازم: ﴿إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِّنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأعراف: ٥٦) قال سليمان: قل لي يا أبا حازم، كيف قدومنا على الله تعالى؟ قال: أمّا الْمُحْسِن، فكالغائب يكون قدم على أهله وصحبه وأحبابه، في شوق ولهفة، وأمّا المُسيء، فكالعبد الآبق يُساق إلى مولاه سوقاً.

فبكى الخليفة حتى علا نحيبه، واشتدّ بكاءه، ثم قال: يا أبا حازم كيف لنا أن نصلح؟ قال: تدعون عنكم الصّلف، وتتحلون بالمروءة، فقال الخليفة: وهذا المال، ما السبيل إلى تقوى الله فيه؟ قال: إذا أخذتموه بحقه، ووضعتموه في أهله، وقسمتموه بالسوية، وعدلتم فيه بين الرعية.

فقال سليمان: أخبرني من أفضل الناس؟ قال: أولو المروءة والتقى، فقال سليمان: وما أعدل القوم يا أبا حازم؟ قال: كلمة حق

يقولها المرء عند من يخافه، وعند من يرجوه، قال سليمان: فما أسرع الدعاء إجابة يا أبا حازم؟ قال: دعاء المحسن للمحسنين، قال سليمان: وما أفضل الصدقة؟ فقال: جُهد المقل يضعه في يد البائس الفقير من غير أن يتبعه منٌ ولا أذى.

قال سليمان: من أكيس الناس يا أبا حازم؟ قال: رجل ظفر بطاعة الله تعالى فعمل بها، ثم دل الناس عليها، قال سليمان: ومن أحق الناس؟ قال: رجل انساق مع هوى صاحبه، وصاحبه ظالم، فباع آخرته بدنياه غيره.

وارتفع رصيد الإعجاب بأبي حازم عند الخليفة، فقال له: هل لك أن تصحبنا يا أبا حازم، فتصيب منا، ونصيب منك، فقال أبو حازم: كلا يا أمير المؤمنين، قال سليمان: ولم؟! قال: أخشى أن أركن إليكم قليلاً، فيُذيقني الله ضعف الحياة وضعف الممات.

قال سليمان: ارفع إلينا حاجتك يا أبا حازم، فسكت ولم يجب، فأعاد سليمان قوله: ارفع إلينا حاجتك يا أبا حازم نقضها لك مهما كانت، قال: حاجتي أن تنقذني من النار، وتُدخِلني الجنة، قال سليمان: ذلك ليس من شأني يا أبا حازم، فقال أبو حازم: ما لي من حاجة سواها يا أمير المؤمنين.

قال سليمان: ادع لي يا أبا حازم، قال: اللهم إن كان عبدك سليمان من أوليائك، فيسّرهُ إلى خيرِي الدنيا والآخرة، وإن كان من أعدائك، فأصلحه واهدِه إلى ما تحب وترضى.

فقال رجل من الحاضرين: بئس ما قلت منذ دخلت على أمير المؤمنين، فلقد جعلت خليفة المسلمين من أعداء الله، وأذيت بهذا الكلام، فقال أبو حازم: بل بئس ما قلت أنت، فلقد أخذ الله على العلماء الميثاق بأن يقولوا كلمة الحق، فقال تعالى: ﴿لَشَبَّانَهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾ (آل عمران: ١٨٧).

ثم التفت إلى الخليفة، وقال: يا أمير المؤمنين، إن الذين مضوا قبلنا من الأمم الخالية، ظلُّوا في خير وعافية، ما دام أمراؤهم يأتون علمائهم رغبة فيما عندهم، ثم وُجد قوم من أراذل الناس تعلموا العلم، وأتوا به الأمراء يريدون أن ينالوا به شيئاً من عرض الدنيا، فاستغتبت الأمراء عن العلماء، فتعسوا ونكسوا، وسقطوا من عين الله عز وجل، ولو أن العلماء زهدوا فيما عند الأمراء، لرغب الأمراء في علمهم، ولكنهم رغبوا فيما عند الأمراء، فزهدوا فيهم، وهانوا عليهم.

فقال سليمان: صدقت، زدني من موعظتك يا أبا حازم، فما رأيت أحداً الحكمة أقرب إلى فمه منك، فقال: إن كنت من أهل الاستجابة، فقد قلت لك ما فيه الكفاية، وإن لم تكن من أهلها، فما ينبغي أن أرمي عن قوس ليس لها وتر.

قال سليمان: عزمْتُ عليك أن توصيني يا أبا حازم، فقال: نعم، أوصيك وأوجز، عظم ربك عز وجل ونزّههُ أن يراك حيث نهاك، وأن يفقدك حيث أمرك، ثم سلم وانصرف، فقال له سليمان: جزاك الله خيراً من عالم ناصح.

ما كاد أبو حازم يبلغ بيته، حتى وجد أن أمير المؤمنين قد بعث إليه بَصْرَةَ مُلَّتْ دنانير، وكتب رقعة قال فيها: أنفقها ولك مثلها كثيرٌ عندي، فردّها، وكتب إليه يقول: يا أمير المؤمنين، أعوذ بالله أن يكون سؤالك إياي هَزْلاً، ورَدِّي عليك باطلاً، فوالله ما أَرْضَى ذلك يا أمير المؤمنين لك، فكيف أرضاه لنفسي؟!

يا أمير المؤمنين، إن كانت هذه الدنانير لقاءً حديثي لك، فالميتة ولحم الخنزير في حال الاضطرار أحلٌّ من هذه الدنانير، وإن كانت حقاً لي من بيت مال المسلمين، فهل سويت بيني وبين الناس جميعاً في هذا الحق؟!

عبرة:

يا شباب، يحتاج مبلغو الدعوة من العلماء والدعاة إلى عقيدة قوية، ويقين خالص، لأنهم يعملون على تقويتها في حياة الناس، ولا يُمكن للدعاة أن يصلوا إلى ذلك إلا إذا اتصفوا هم بها أولاً، لأن فاقِد الشيء لا يعطيه، ومن المعلوم أن الدعوة العملية أبلغ تأثيراً من الدعوة النظرية، وما خرج من القلب الصادق يصل إلى قلوب الآخرين.

يا أيها القارئ الكريم، أن العظمة في تاريخنا، هي عظمة هؤلاء الرجال، هؤلاء العلماء الذين علموا ليعملوا، وآمنوا فظهر إيمانهم على أقوالهم وأفعالهم، وحركاتهم وسكناتهم، فكانوا مع الناس في معاشهم، ومع الملوك في مناصبهم، ولكن قلوبهم كانت أبداً مع

الله، لا تعمل إلا له، ولا ترجو إلا إياه، ترى الدنيا ومن عليها في جانب الله أهون من ذرة في الفضاء، فلا تحفل منها بطعام ولا شراب، ولا شهوة نفس، ولا نشوة سلطان، ولا تخاف فيها ملكاً ولا جباراً، لأنها كانت مع الله، فكان الله معها، وهو ملك الملوك، وقاصم الجبارين.



المجاهد الصلب^(١)

من العظماء رجال كانوا قوادًا مجاهدين كانوا جن الحروب، ومردة المعامع، لا يخرجون من معركة إلا إلى معركة أشد منها فتكا، ينتزعون النصر من يد عدوهم الغادر، ويبنون الحياة على أشلاء الموت، لا يحاربون للقتل ولا للتخريب ولا للأذى، ولكن ليدفعوا عن الحق والحضارة، شر من يأبى أن يقوم في الأرض صرح الحضارة والعدل، وأن يرتفع فيها لواء الحق، ومن لم ينجحوا في ذلك فالموت أحب إليهم من الحياة، ومن هؤلاء العظماء نجم من ألمع نجوم الإسلام رجل جعل الجهاد لتحرير القدس هو هدفه الوحيد في الحياة، ولقد من الله عليه بذلك، فمن يكون هذا المجاهد البطل، وما هي قصة حبه العظيم للجهاد، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، سلطان عاقل شجاع، كريم متواضع جواد، محب للناس، مشكور السيرة في ولايته، نقي السريرة، تقي

(١) سيرة صلاح الدين ** مفرج الكروب ** النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة **

الكامل في التاريخ ** البداية والنهاية ** أعلام ومشاهير الإسلام

ورع، بطل مقدام، لا يعرف الخوف إلى قلبه سبيلاً، عاش حياته من أجل قضايا أمته، لم يتراجع لحظة واحدة عن هدفه، وهو تحرير جميع مدن الإسلام من دنس الصليبيين.

نحن على موعد مع، أحد أفاذ الرجال في تاريخ كله، وأحد الكبار من عظماء الإسلام، عملاق نشر راية القرآن التي لم تهزم قط، وضرب بسيف محمد الذي لا ينو أبداً، وأسس للإسلام دولة مجاهدة عظيمة ظلت تحارب الصليبيين حتى النهاية، نحن نلتقي بالمجاهد الفذ الذي تعرف العامة بقصته التي كانت تشغل الناس الليالي الطوال، وجهاده العظيم، إنه محرر بيت المقدس البطل الكردي يوسف نجم الدين أيوب المكني بصلاح الدنيا والدين.

كان الجهاد ضد الصليبيين هو محور الشخصية الإسلامية لصلاح الدين الأيوبي رحمه الله، وها هو ابن شداد رحمه الله يقول: لقد كان الجهاد وحبه، والشغف به، قد استولى على قلبه وسائر جوانحه استيلاء عظيمًا، بحيث ما كان له حديث، إلا فيه، ولا نظر إلا في آله، ولا كان له اهتمام إلا برجاله ولا ميل إلا إلى من يذكره ويحث عليه.

وقد هجر في محبة الجهاد في سبيل الله أهله وأولاده، ووطنه وسكنه وسائر ملاذه، وقنع من الدنيا بالسكون في ظل خيمة تهب بها الرياح يمينة ويسرة، ولقد وقعت عليه الخيمة في ليلة ريحة على

مرج عكا، فلو لم يكن في البرج وإلا قتله، ولا يزيده ذلك إلا رغبة ومصابرة واهتمامًا.

ويحكي لنا ابن شداد رحمه الله عن صلاح الدين أنه سأله عن أشرف الميتات فلما أجابه: الموت في سبيل الله، قال صلاح الدين: غاية ما في الباب أن أموت أشرف الميتات.

وكانت الآمال التي تراود صلاح الدين من وراء جهاده كبيرة، وقد عبر هو نفسه عن هذه الآمال في قوله: في نفسي أنه متى ما يسر الله تعالى فتح بقية الساحل، قسمت البلاد، وأوصيت وودعت، وركبت هذا البحر إلى جزائرهم أتبعهم فيها، حتى لا أبقى على وجه الأرض من يكفر بالله أو أموت دون ذلك.

عبرة:

يا شباب، هذه بعض إشارات إلى مدى تمكن فكرة الجهاد في قلب صلاح الدين، وسيطرتها على عقله وتفكيره، صلاح الدين الذي توفي: ولم يخلف في خزائنه من الذهب والفضة إلا سبعة وأربعين درهماً ناصرية، وديناراً واحداً ذهباً صورياً، ولم يخلف ملكاً ولا داراً ولا عقاراً، ولا بستاناً ولا قرية ولا مزرعة. ويعلق ابن واصل رحمه الله على التركة التي خلفها صلاح الدين بقوله: وهذا من مثل رجل له الديار المصرية والشامية، وبلاد الشرق واليمن، ولم ينقل عن أحد غيره له مثل هذه المملكة لم يوجد في خزائنه إلا هذا القدر اليسير التافه.

فلا غرابة بعد هذا أن يقال عن اليوم الذي فارق فيه هذا الرجل
الحياة الدنيا: وكان يومًا لم يصب المسلمين بمثله منذ فقد الخلفاء
الراشدون.



رامبو التاريخ الإسلامي^(١)

حديثنا الآن عن عملاق ربما لا يعرف اسمه الغالبية العظمى من المسلمين، وذلك لغفلتهم عن أبطالهم وشجعانهم، وانشغالهم بالأكاذيب والأباطيل التي تروجها آلة الأعلام فأصبح قدوة الشباب، ورمز البطولة عندهم الأسطورة، والألماني، وعبد موته، إلى غير ذلك من الأساطير الموهومة التي يُخدع بها الشباب الناشئة من المسلمين، وعملاقنا هذا من أبطال الإسلام، ومن فرسانهم المشهورين بمداومة الغزو، ومواصلة الجهاد في سبيل الله على الجبهة الرومية، فمن يكون هذا المغوار، وما قصة بطولته يوم فتح مدينة هرقلة، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، بطل من الأبطال الأساطير، ومغامر من المغامرين الشجعان، فارس من أعظم الفرسان، عملاق شجاعته كانت مضرب الأمثال، وهب حياته للجهاد والغزو في سبيل الله، كان بطل من أبطال الثغور الإسلامية في العصر العباسي الأول، لم يتراجع عن نصرة دينه يوماً حتى لقي ربه في ساحات الوغى.

(١) تاريخ بغداد ** سير أعلام النبلاء ** المنتظم في تاريخ الأمم والملوك ** العبر في خبر من

غير ** فتوح البلدان ** البداية والنهاية ** أعلام طواهم النسيان.

نحن على موعد مع، مجاهد من المجاهدين الأفاذا الأتقياء
الأنقياء، محب للدين مضح لأجل نصرته، لم يكن يرجو سوى
الشهادة في سبيل الله، وقد من الله عليه بها بعد جهاد بطولي،
نحن نلتقي بواحد من أشرس المقاتلين على مر العصور، بطل
كان يستطيع أن يهزم مائة فارس لوحده، عرف بالباسلة والبطولة
والإقدام، إنه رامبو التاريخ الإسلامي ابن الجزري رحمه الله،
ونحن الآن نتجول بين أروقة التاريخ لتعيش مع مشهد من مشاهد
البطولة العظيمة لهذا البطل الخارق.

لما حصار الخليفة العباسي العظيم هارون الرشيد رحمه الله
مدينة هرقلة - وهي من أعظم مدائن الروم، ومن المدن المقدسة على
حسب زعمائهم - خرج بطل صناديد من أبطال الروم المعدودين،
وأكبر فرسانهم، وطلب الرجل المبارزة من المسلمين أمام باب
المدينة، فلم يخرج إليه أحد من الجيش الإسلامي.

فقال الرومي: ليخرج لي ثلاثة رجال، فلم يخرج إليه أحد، وظل
الرومي كذلك حتى وصل بالعدد إلى عشرين فارس من الفرسان
ليبارزوه، وحدد موعدًا من الغد لذلك، وكان الرشيد وقتها في
خيمته نائمًا، فلما استيقظ، وعلم بأمر الرومي، وعلم بإحجام
صناديد المسلمين وأبطالهم لمبارزة الرجل، غضب غضبًا شديدًا.

وعندها جاء بعض المجاهدين والمتطوعين إلى الرشيد، وقالوا
له: يا أمير المؤمنين أخرج لهذا الرجل رجلًا من عامة المسلمين،

ولا تخرج له قائداً من الجيش، فإذا قتله فت ذلك في عضد الروم، وانهارت معنويتهم، وبذلك تنهار دفاعات المدينة، أما إذا قتله الرومي لم يؤثر ذلك في نفس الجيش الإسلامي لعدم علمهم بشخصية من خرج للمبارزة.

فوافق الرشيد على الاقتراح، وطلب منهم أن يرشحوا رجلاً من المتطوعة لتلك المهمة، فقال القوم ليس لها إلا البطل الجسور ابن الجزري.

ولما جاء الموعد الذي حددها الرومي من قبل، خرج ابن الجزري للمبارزة، فعرفه الرومي لأنه كان من أبطال الإسلام المرابطين دائماً على الثغور، وكان معروفاً لدى الروم، فقال له الرومي: ليس أنت ابن الجزري صاحب الثغور، فقال له: نعم أنا هو، وكان كلاهما من الأبطال الشجعان.

فضلا يتبارزان فترة طويلة، ولا يقدر أحدهما على الآخر، وفجأة أظهر ابن الجزري الفرار من أرض المعركة، وركض نحو الجيش الإسلامي، فدخلت الكآبة والحزن على المسلمين، وعلت صيحات الروم فرحاً من على أسوار المدينة، وفرحوا لذلك فرحاً شديداً، وركض الرومي خلف ابن الجزري ليدركه، ولكن ابن الجزري استدار بفرسه فجأة، في حركة خداع بارعة، ورمى الرومي بخنجر كان في يده فأصاب الرومي في رقبتة.

ثم انقض عليه ابن الجزري عليه كالصاعقة وقتله قبل أن يهوي

من فوق فرسه، فكبر الجيش الإسلامي كله تكبيرًا شديدًا، وما هي إلا ليلة واحدة حتى سقطت المدينة الحصينة من هول الصدمة، وشدة الوقعة، وأخذ أهلها بالفرار.

ولما دخل الجيش الإسلامي المدينة، أمر بإحضار ابن الجزري أمامه، وصب عليه الأموال صبا، ولكنه رفض أن يأخذ منها درهماً واحداً، وقال له: يا أمير المؤمنين بارك الله فيك وفي أموالك، ولكن أنا رجل أقاتل في سبيل الله، ومن يقتل في سبيل ربه يتغي الثواب من الله عز وجل فقط، ولا يأخذ شيئاً لنفسه.

عبرة:

يا شباب، هذا الموقف والمشهد العظيم يوضح لنا أن هؤلاء الأبطال لم يكونوا يجاهدون من أجل دنيا، ولا مال، ولا شهرة، إنما يجاهدون من أجل إعلاء كلمة لا إله إلا الله، لذلك نصرهم الله عز وجل، وكبت عدوهم.

إن الإطالة على سير هؤلاء العمالقة العظماء، تمد المرء بتجارب جليلة، يتعلم منها مرضاة الله ورسوله، وما يصلح أحواله من زاده لمعاده، فهم كالنجوم يهتدي بها الإنسان في طريق سيره إلى ربه جل وعلا، فيعيش الإنسان حياته لله، ويخوض غمار التجارب لربه، فهو يعمل لله، ويعيش مع الله، ويحيا بحب ربه.



البحار المفامر^(١)

أعاد الله أياماً خلت كانت الأمم تهابُ أسماء رجالنا، وكانت الأعداء ترتعد بمجرد ذكر مغوار واحد من مغاويرنا، وليث من ليوث الإسلام، فتاريخنا ظهر فيه الكثير من العمالقة الذين كانوا بمجرد ذكر اسم أحد منهم ترتعد أوروبا الصليبية رعباً، والأمثال في تاريخ تفوق الحصر والوصف، منهم مثلاً محمد بن أبي عامر المنصور، والسلطان الفاتح، والسلطان بيبرس، والسلطان عماد الدين زنكي وغيرهم الكثير والكثير، ولم يختلف مشاهير الإسلام عن الأعلام المنسيين.

وحدثنا في هذه الصفحات عن أحد الأعلام الذين طواهم النسيان، وسقطوا من الذاكرة، رجل من رجالة الدولة العثمانية العمالقة، رجل ترك بصمة واضحة في قيام الدولة العثمانية، فقد كان بحاراً ماهراً بثّ الرعب في أوروبا الصليبية لسنوات، نتيجة جهاده البطولي ضد الصليبيين في البحر المتوسط، فمن يكون هذا البطل، وما هي قصة استشهاده، هذا ما سنعرفه الآن.

(١) التاريخ الإسلامي ** تاريخ الدولة العلية ** ١٠١ من عمالقة آل عثمان ** تاريخ الدولة

العثمانية يلماز أوزتونا ** أعلام طواهم النسيان.

ضيفنا في هذه السطور، رجل ذو خبرة وتجارب في الجهاد البحري، كان سمحاً طيب الأخلاق، كريم السجايا، جم الفاضل، عرياً من الرذائل، محبوباً بين الناس، مهاب الطلعة، ضحوك الوجه، ودود، متواضع، كريم النفس، يألف الناس ويألفونه، لم يتوان يوماً عن التضحية والبذل في سبيل عقيدته، قدم روحه رخيصة في سبيل بارئها.

نحن على موعد مع، ليث من ليوث الدولة العلية، مغوار أربب أوروبا، وقهرهم وأذلهم، كان مجرد ذكر اسمه يثير الذعر والهلع في القلوب، ومع ذلك كان راهباً في الليل، فارساً بالنهار، يطلب الموت، لا الموت يطلبه، نحن نلتقي بالمغوار البطل، البحار العظيم عمر باشا ابن محمود باشا رحمهما الله، فتعالوا بنا لتتعايش قليلاً مع هذا العملاق العظيم الذي كان له دورٌ مهم في رسم صفحات تاريخنا المجيد، وكان له في صفحات التاريخ أنصع الأيام.

كان عمر باشا بحاراً مغامراً يحب ركوب الأهوال، كان شديد الجرأة، شجاعاً مقداماً، جعلته مهارته البطل الشجاع المحبوب والمحترم بين الجميع في منطقة بحر إيجه، وقد استمر هذا المغامر العظيم في رحلاته البحرية من نصر إلى نصر، وكان مجرد ذكر اسمه يثير الرعب في النفوس، ولقد استطاع أن يتغلغل في الجزر اليونانية في شرق البحر المتوسط، وأغار على سواحل البحر الأسود، وذاع صيت شجاعته وبسالته النادرة بين الجميع.

ولما احتل الصليبيون مدينة أزمير، وكانت أزمة كبرى للدولة العثمانية، عاهد عمر باشا نفسه وقال: لن أترك أزمير في أيدي الأعداء، بل سأضحى برأسي في سبيل ذلك، وبدأ الباشا بالضغط على سواحل أزمير، واستطاع أن يحقق عدة انتصارات عسكرية كبرى على التحالف الصليبي، هنا جاءت المساعدات الصليبية عن طريق البابا الذي أعلن حرباً مقدسة على الدولة العلية، وقد جاء الآلاف من المتطوعة تحت راية الصليب بمباركة البابا.

وبرغم النجدة الصليبية الكبرى التي أرسلها البابا، إلا أن الغازي عمر باشا ظل صامداً مقاوماً هذه الجحافل العملاقة، واستطاع أن يحقق عليهم عدة انتصارات، لكنه لم يستطع تحقيق نصر حاسم على التحالف، وقد أراد عمر باشا أن يعقد معاهدة للانسحاب الصليبي من ميناء أزمير، وقد وافق قادة الحملة على ذلك، لولا تدخل البابا.

لم ترق للبابا هذه المعاهدة وصمم على خوض حرب إبادة ضد المسلمين، فما كان من عمر باشا إلا أن استمر في جهاده وتضحيته من أجل تحرير أزمير من الصليبيين، وتوجه مع جنوده نحو قلعة المدينة، وكان يسير في مقدمة الصفوف تعزيزاً لمعنوية الجند، وبينما هو صامداً مستبسلًا في القتال، إذ بسهم غادر يدخل جسده الطاهر ليلحق بركب الشهداء، ودفن إلى جانب أبيه محمود باشا الذي سبقه إلى الشهادة.

عبرة:

لقد كان عمر باشا من أعظم البحار الذين تركوا بصماتهم في التاريخ الإسلامي، فهو البحار الماهر المغامر الذي بثّ الرعب في أوروبا الصليبية لسنوات نتيجة لجهاده البطولي للأساطيل الصليبية في البحر المتوسط، والبحر الأسود، فلم يترك لهم رحمه الله فرصة لضرب المسلمين من الخلف بل كان لهم دائماً بالمرصاد، رحمه الله وأحسن مثواه.

يا سادة، ما كان أجدر أن تلقن جنودنا هذه المواقف التي حفظها لنا الرواة عن الرعيل الأول من المسلمين لتكون حافزاً لهم على التضحية، والفداء والاستبسال في سبيل الدين والعقيدة، وليس هذا بعجيب من المجاهدين اليوم الذين قام آباؤهم وأجدادهم بهذه التضحيات، والصور الفدائية الخالدة التي قصصنا عليكم أحدها، وسنقص عليكم المزيد منها بإذن الله تعالى.



لمحات من حياة الصالحات

المؤمنة عفيفة^(١)

الورع هو خلق فاضل من أخلاق النفس يمتنع به من فعل ما لا يحسن ولا يجل، وهي قوة من قوى النفس التي بها صلاح شأنها وقوام أمرها، حديثنا في هذه السطور امرأة ضربت لنا مثلاً رائعاً في حسن العفاف والورع، والبعد عما نهى الله عنه، تميزت بالفصاحة والبلاغة، وسرعة الفهم، ورقة الأسلوب، وجمال التعبير، وهذا يتجلى لنا من موقفها مع الفاروق عمر رضي الله عنه، فمن تكون هذه المرأة الصالحة، وما قصتها مع الفاروق، هذا ما سنعرفه الآن.

نحن على موعد مع الزهرة الفواحة في بستان الورع والعتاف، لقد سُقيت هذه الزهرة بماء الوحي، ففاح عبيرها وعطرها، فملاً ما بين المشرق والمغرب، إنها زهرةٌ نبتت في شجرة مباركة، رسخت جذورها في الأرض، وارتفعت أغصانها في السماء حتى كادت تعانق الجوزاء، نحن نلتقي بامرأة أنصارية مجهولة الاسم، لكن لها موقف مع الفاروق من أعظم مواقف الورع والزهد.

(١) تاريخ عمر بن الخطاب ** تاريخ الخلفاء ** زاد المعاد ** أخبار عمر ** أوليات الفاروق في السياسة.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يهتم بنساء المسلمين، وبناتهم، وعجائزهم، ويعطي لهنّ حقوقهنّ، ويرفع عنهنّ ما يقع من الظلم عليهن، ويرعى شؤون الأسر التي غاب عنها رجالها في الجهاد، ويحرص على إيصال حقوق الأرامل إليهنّ حتى قال قوله المشهورة: والله لئن سلمني الله لأدعن أرامل العراق لا يحتجن إلى أحد بعدي أبداً.

لقد كان الفاروق عمر رضي الله عنه شغوفاً برعيته، يسهر على راحتهم، ويتفقد أحوالهم، ويسعى في قضاء حوائجهم، ويسمع شكوى من أتى إليه منهم، ويحرص على أن يعرف شكوى من لا يستطيع الوصول إليه للبعد المسافة، أو الحياء أو غير ذلك من الأسباب، وكم من الأمثلة الرائعة تدل على ذلك.

لكن في هذه السطور نكتفي بقصة واحدة من ذلك، فتعالوا بنا لتتجول بين صفحات التاريخ لتتعاشق بقلوبنا مع هذا المشهد الفريد.

كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه إذا أمسى أخذ درته، ثم طاف بالمدينة، فإذا رأى شيئاً يُنكره أنكره، فبينما هو ذات ليلة يُعس كعاده إذ مر بامرأة من نساء العرب مغلقة عليها بابها وهي تنشد.

فسمعها تقول:

تطاول هذا الليل واخضَلَ جانبه
وأرْقني أَلَا خَليل أَلَاعِبُهُ
فوالله لولا الله لا رَبَّ غَيْرُهُ
لَحُرك من هذا السرير جوانبه
مخافة ربي والحياء يصدني
وأكرم بعلى أن تُنال مراكبُهُ
ولكنني أخشى رقيبًا موكَلًا
بأنفسنا لا يفتر الدهر كاتبه

ثم تنفست الصعداء، وقالت: لهان على عمر بن الخطاب ما
لقيت الليلة وحشتي وغيبة زوجي عني، وعمر واقف يسمع كلامها،
فضرب باب الدار، فقالت: من هذا الذي يأتي إلى امرأة مغيبة -أي
غاب زوجها- هذه الساعة؟!

قال: افتحي، فأبت، فلما أكثر عليها قالت: أما والله لو بلغ
أمير المؤمنين لعاقبك، فلما رأى عفافها، قال: افتحي فأنا أمير
المؤمنين، قال: كذبت ما أنت أمير المؤمنين، فرفع بها صوته، وجهر
لها، فعرفت أنه هو، ففتحت له فقال: هيه كيف قلت؟ فأعادت
عليه ما قالت.

فقال: أين زوجك؟ قالت: في بَعْث كذا وكذا، فبعث إلى عامل

ذلك الجند: أن سرح فلان بن فلان، فلما قدم عليه، قال: اذهب إلى أهلك.

ثم دخل على حفصة ابنته فقال: أي بُنية كم تصبر المرأة عن زوجها؟ قالت: شهرًا، واثنين، وثلاثة، وفي الرابع ينفد الصبر، فكتب عمر ألا تحبس الجيوش فوق أربعة أشهر.

يا أيتها الأخت المؤمنة، لتكون لنساؤنا في هذه السيدة قدوة، وأسوة حسنة، وليعملن على أن يكن عفيفات صابرات على فراق الزوج.

عبرة:

يا أيتها الأخوات المؤمنات، هذه المرأة المؤمنة عفيفة تبتغي ما تبتغيه النساء، سهرت ليلها دون نوم أو راحة، وأرقها فراق زوجها، فأنشدت شعرًا صادقًا يمثل ما تعانيه من ألم فراق زوجها وهي لا تدري أن الفاروق يسمع ما تقول - كما يبدو من ظاهر القصة - وأنا لا أستبعد أن تكون متعمدة فيما صنعت من قولها الشعر، حينما قارب عمر البيت لأنه لا يستبعد أن يكون معروفًا لدى الناس أن عمر يعس بالليل، وهذه المرأة وهي تسهر الليالي قد تكون رأته مرة أو مرات قبل ذلك، فاستعدت بشكوى غير موجهة إليه مباشرة، ولكنها تؤدي الغرض.

لقد قرأتهم صورة من الصور الصحيحة للمرأة المسلمة في عهدها

الأول لم يمنعها حياؤها وأنوثتها من بث شكواها لربها أولاً ثم إلى أمير المؤمنين ثانياً، وما كان ورع المرأة المسلمة ليخرق من سياج عفافها شيئاً.

أيتها الأخت الكريمة، انظري كيف أن حرصه ﷺ على رعيته ومراقبته لهم كان السبب في كل خير عاشته الأمة المسلمة في عهده، بل لقد كان ﷺ يُعَلِّمُ الأمة أن الكون كله قد سخره الله لعباده المؤمنين فإن زاغوا وابتعدوا عن طاعة الله فإن الكون كله يتأذى بمعصيتهم وينقلب نقمة عليهم.

يا أيتها الأخت المؤمنة، أنزل الله تعالى الإسلام ليصلح به الحياة، ويصبغها بمنهج الله عز وجل، وأمر سبحانه وتعالى أن تسود تعاليم الإسلام في كافة الجوانب لتشمل الأفراد والجماعات والأمة، وليصير الوجود ربانياً يبدأ من الله، ويعيش على هديه ويرجع إليه.



الفارسة الفدائية^(١)

لم يكن الجهاد في الإسلام مقصوراً على الرجال، ولكنه كان فريضة على الرجال والنساء معاً إذا استدعى الأمر ذلك، وحتمت الضرورة خوضهن المعارك أو وقوفهن خلف من يجاهد، فنصرة الإسلام ضرورة تتطلب حشد كل الطاقات في المعارك الحاسمة التي يخوضها الأبطال في عزة وإباء من أجل حفظ الدين، وحماية الأنفس، وصيانة الأعراض والحرمات، ونحن هنا يطيب لنا أن نتكلم عن امرأة من أشجع النساء كان لها في البطولة شأن عظيم، قد أظهرت في الحرب شجاعة نادرة أذهلت قواد الحرب وفرسان القتال، وأضحت فيها مضرب الأمثال.

ضيفتنا في هذه السطور، فارسة لا يشق لها في البطولة غبار، إذ إنها رمز خالد لبطولة المرأة المؤمنة في صدر الإسلام، فلقد عاشت تجاهد في سبيل الله لا تخشى في الله لومة لائم، كانت في ساحات الوغى تطيح برؤوس الأعداء، وتلقي الرعب في قلوبهم، كانت تفعل بهم الأعاجيب، وتتفوق على أقرانه من الفرسان الشجعان.

(١) فتوح الشام ** الأعلام للزركلي ** معجم البلدان ** مؤمنات لهن عند الله ** سيف الله المسلول ** العبر وديوان المبتدأ والخبر.

نحن على موعد مع صحابية جليلة، وشاعرة متميزة، من ربات الشجاعة والفروسية، وهي من أشجع النساء في عصرها في حمل الرماح، ورمي السهام، وضرب الحسام، وهي أخت الصحابي الجليل ضرار بن الأزور، إنها الصحابية المجاهدة خولة بنت الأزور رضي الله عنها - وهي ليست لها صحبة - .

كانت خولة بنت الأزور امرأة ليست ككل النساء، فلقد تميزت عنهن بالكثير من الصفات والمواصفات، فلقد تربت في البادية العربية مع أبناء قبيلتها بني أسد، ولازمت أخاها ضرارًا البطل المقدام في كل حروبه فكانا دوماً معاً، وشاء الله أن تكون وأخوها ضرار مع الكتائب الطلائعية المتقدمة للجهاد في سبيل الله، وإعلاء كلمة الحق والدين.

فشاركت بكل قوة وبسالة نادرة في المعارك الطاحنة، فكانت بذلك من أشجع النساء على مر العصور في الكر والفر، وفي حمل الرماح ورمي السهام كما ذكرنا، ونحن في هذه السطور نعيش سويًا بقلوبنا مع هذا المشهد البطولي الرائع لهذه المجاهدة العظيمة.

كانت خولة تشارك أخاها ضرار بن الأزور رضي الله عنه في كثير من المعارك الحربية التي خاضها على جبهة العراق أو الشام، وكانت تشاركه آلامه وآماله، وتشير عليه، فقد كانت خبيرة بفنون الحرب، ومواطن الجهاد، ومخادعة العدو، وكانت بارعة في ركوب الخيل واستعمال السلاح، وكانت تتمنى من أعماق قلبها أن تشارك

الرجال في القتال، وتكره أن تكون قعيدة البيت في وقت يحتاجها الميدان فيه.

وقد أسرت لأخيها كثيرًا بما يجيش في صدرها من الرغبة الملحة في أن تكون مساهمة بجهد في مجاهدة العدو بسيفها وقوسها وبكل ما أوتيت من قوة وشجاعة، ولكنه صارحها بخوفه الشديد عليها مما تجره الحرب على الأبطال الصناديد من الرجال فكيف بالنساء؟! وهو يعلم علم اليقين أن النساء شقائق الرجال في كل ميدان، فهن في حاجة إليهم وهم في حاجة إليهن في جميع الميادين.

لقد كانت ﷺ تبث شكواها إلى الله عز وجل حين تشتد على المسلمين ويلات الحروب، وتدعو لهم بالنصر على عدوهم بدعاء بليغ، ولقد أخذت خولة مكانها لتقوم على خدمة المجاهدين، وهي في ذات الوقت ترقب سير المعارك بعين الخبرة المجربة، فلم يكن يرهبها التراجع أو يستخفها التقدم، وإنما كانت دائمًا ثابتة الجنان قوية القلب، إلى جانب أنها كانت كثيرة الحركة، دائمة التنقل، تسرع لري الظامئ، وتواسي من يحتضر، وتسعف المجروح والمصاب، ثم تحمل المئونة والسلاح إلى من يحتاج إليهما.

وقد شهدت خولة في فتح مدينة حمص وفي إحدى المعارك مع الروم البيزنطيين شاء الله أن تقع هي وكثيرات من المجاهدات

في أسر الروم، ووضعن تحت الحراسة حتى تنتهي الموقعة، وبعدها يستولي الأعداء على السبايا والأسيرات، حيث يكون لهم معهن شأن الظافرين.

نظرت خولة حولها في ثورة مكبوتة، وقد ضاقت بها الدنيا عندما رأت أنها في بداية جهادها تقع في أسر الروم، وكرهت أن تستلم لهذا الإحساس الذي اعتراها، ولكنها امرأة عاجزة، والتسليم بالأمر الواقع يعني أنها ومن معها من المؤمنات سيكون سبايا للروم، يحملن العار حيثما حللن، ويكون وصمة على جبين الجهاد والمجاهدين والمجاهدات.

واستعرضت الأمر على شتى الوجوه، فأثرت الموت على أن يمسه أحد من هؤلاء الأعداء، فكان لا بد لها أن تفعل شيئاً، فجمعت صويحباتها وصارحتهن بما دار في خلدائها قائلة لهن: يا بنات الإسلام، أترضين أن تكن لهؤلاء الأعداء، ويكون أولادكن عبيداً لهم؟!

وجدت خولة ﷺ من بينهن من تنصرها وتمهد معها للمغامرة التي أرادتها في الوقت الذي كانت فيه المعركة الحاسمة دائرة على أشدها بين الفريقين، سنحت الفرصة للملائمة التي انتظرتها خولة عندما ذهب أكثر المحاربين الروم إلى ساحة العراك، وضعفت الحراسة المفروضة عليهن، فأوحى إليها هذا الجو أن تقوم بعمل حاسم سريع، فقالت:

يا بنات العم، إن الريح مواتية، وإن فرصة الخلاص لتبدو لنا،
فها قد حان الوقت، وإن الموت لأشرف لنا من فضيحة تلحق بنا
حتى آخر الزمن، علينا أن نحمل حملة صادقة تذهل العدو، فننجو
أو نستشهد في سبيل الله، خذن أعمدة الخيام والأوتاد في أيديكن،
ولنحمل معاً على هؤلاء الحراس، ولنتماسك ولنتكاتف، ولا تكن
بيننا ثغرة ينفذ إلينا منها أحد، اشددن معي، والله معنا، والله أكبر.

وعمل هذا الوعظ الشديد عمله في أنفس المجاهدات، فاقتلعن
الأعمدة والأوتاد، وهجمن في قوة وعنف على حراسهن، الذين
راعهن هذا الهجوم المفاجئ، وأسقط في أيديهم، فولوا مدبرين
أمام هذه الشجاعة النادرة، وعُدن جميعاً إلى معسكر الإسلام بعد
أن تخلصن من الأسر، وقد محون عاره عن أنفسهن، وارتفعت
حناجرهن تردد في إيمان عميق هتافهن الصادق: الله أكبر، الله
أكبر.

عبرة:

يا أيتها الأخوات المؤمنات، أن المرأة كالرجل في عقله
وتدبيره، ووفائه بالعهد وإخلاصه لدينه وأمته، وقدرته على مواجهة
الأمر بالحزم والعزم والحيلة، واتخاذ الوسيلة المثلى في التغلب
على الصعاب وتحقيق المراد، ولهذا جعل الله سبحانه ثوابها مثل
ثوابه في الدنيا والآخرة، فقد قال رب العزة سبحانه: ﴿فَاسْتَجَابَ
لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنْكُمْ مِّنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنُفِي بَعْضُكُمْ
مِّنْ بَعْضٍ﴾ (آل عمران: ١٩٥).

يا أيتها الأخت الكريمة، خولة بنت الأزور ؓ مضت في زمن قديم لنا، تستحق منا نظرة دراسة، نظرة مراجعة، نظرة إعزاز وإكبار وتعظيم، إنها قدوة لبنات العرب والمسلمين في زماننا وعلى مر العصور، قدوة للرجال وقدوة للنساء صغارًا وكبارًا، قدوة في الشجاعة والبسالة والتضحية والفداء، امرأة كانت تدفع عن قضايا دينها وعقيدتها وأمتها عاشت لذلك وبذلت كل ما تملك في سبيل ذلك، لقد كانت ؓ ولا زالت قدوة لبنات دينها.

لقد ضربت خولة بنت الأزور ؓ مثلاً رائعاً في الجهاد في سبيل الله تعالى، والتضحية من أجل هذا الدين، دفاعاً عن الحق الذي اتبعته، وطعمًا في نيل الشهادة، لقد أثبتت ؓ للعالم دور النساء العظيم في تغيير مجرى التاريخ، والتأثير في الأوقات الحاسمة، وكانت دائمًا في ساحات الوغى يشهد لها بالمواقف العظيمة الخالدة، وبطولتها النادرة.



العابدة الكريمة^(١)

إن الإنسان الذي يحب الخير لأخيه المسلم، ويطيب نفسًا ببذل المال عند الحاجة، ويبذل الروح عند الضرورة، يضحي بمصلحته الخاصة في سبيل في الله، وفي سبيل دينه، ويرضى بالتقشف والشطف والحرمان، إذا كان فيه انتصار لحق أو خير، بل يستمرئ المر، ويستعذب العذاب، ويرحب بالموت في سبيل ما يؤمن به من الهدى والحق، فليت شعري أين يوجد هذا الإنسان في عالم البشر ومن أي مدرسة يتخرج؟!

لعمري إن المدرسة الفذة التي تخرج هذا الصنف من البشر هي مدرسة الإيمان، فالإيمان هو الذي يهون على الإنسان شهواته، ومطالب دنياه، فإذا هو يكتفي بما يسد الجوع من الطعام، وما يستر العورة من اللباس، وإذا هو يرضى بالقليل من المال، فإذا هو متواضع في المسكن، بل يهون على الإنسان ماله فينفقه، ومسكنه فيهجره، وأهله فيرحل عنهم، بل يهون عليه حياته نفسها.

(١) سير أعلام النبلاء ** طبقات ابن سعد ** العقد الفريد ** نسب قريش ** الإصابة في تمييز الصحابة.

ضيفتنا في هذه السطور، امرأة من اللواتي سطع نجمهن في سماء العزة، وتحلّين بطاعة والحياء والكرم، فقد كانت من اللواتي بذلن حياتهن وأوقاتهن وأموالهن في سبيل نصرة هذا الدين العظيم، فقد ورثت عن أبيها الكثير والكثير من شمائله المرضية، وملكاته النفسية الهائلة، وجمعت لنفسها ما لم تجمععه فتاة في سنّها، وقامت بأعمال جليلة نادرة، فقد كانت هذه السيدة مثلاً رائعاً للمرأة المسلمة التي تسلحت بالحزم والعزم طول حياتها.

نحن على موعد مع سيدة من اللواتي تربين على الهدى النبوي الندي، واستقينه من منابعه الأولى، فوعين السبيل جيداً، وفهمن دينهن بشكل صحيح، فاستطعن تحقيق المعادلة الصعبة، والفوز بخير الدنيا والآخرة، نحن نلتقي الآن مع أصغر بنات الصديق أم كلثوم رضي الله عنهما.

تزوجت أم كلثوم بنت أبي بكر الصديق ﷺ من الصحابي الجليل طلحة بن عبيد رضي الله عنه، وعاشت أم كلثوم مع زوجها طلحة عيشة المؤمنة العابدة الراضية، وكانت خير زوجة، وخير أم، فقد جمع الله لها الفضائل من كل أطرافها، فكانت زاهدة عابدة كريمة مطيعة لزوجها، رحيمة به.

وكانت ﷺ قد ورثت عن أبيها الكرم، ومن كأبي بكر في الكرم والجود؟ كما نشأت في تربية أختها عائشة رضي الله عنها، وعائشة مشهورة بالجود والكرم، مشهود لها بهذه الفضيلة، ثم إن طلحة

زوج أم كلثوم قد سماه النبي ﷺ طلحة الخير - وطلحة الفياض -
وبين هذه الخصال الحميدة عاشت أم كلثوم تشجع زوجها الحبيب
على المضي في الإنفاق في وجوه الخير.

وشهد شاهدٌ من أهل طلحة لأم كلثوم بهذه الفضيلة، فقد ذكر
موسى بن طلحة أن أباه طلحة ﷺ أتاه مالٌ من حضرموت سبعمائة
ألف، فبات ليلته يتململ.

فقال له أم كلثوم: ما لك يا أبا محمد؟

قال: تفكرتُ منذ الليلة، فقلتُ: ما ظنُّ رجلٍ بربه، يبيت وهذا
المال في بيته؟!!

ف قالت: فأين أنت من بعض أخلائك، فإذا أصبحت فاقسمها.
فقال لها، وقد سُرَّ برأيها، وذهب عنه ما كان يجده: رحمك الله،
إنك موفقةٌ بنت موفق.

فلما أصبح دعا بجفان فقسمها بين المهاجرين والأنصار، فبعث
إلى علي بن أبي طالب منها بجفنة.

ف قالت له أم كلثوم: يا أبا محمد، ما كان لنا في هذا المال
نصيب؟

قال: فأين كنت منذ اليوم؟ فشأنك ما بقي.

قالت أم كلثوم: فكانت صرة فيها نحو ألف درهم.

ولا شك في أن أم كلثوم عليها السلام قد سارعت هي الأخرى بالإنفاق
لتحوز فضيلة الكرم، فبعثت بالدرهم إلى مستحقيها.

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، إن مواقف وقصص نساء صحابة
النبي صلى الله عليه وآله كثيرة ومشرفة، وتعتبر حيث أن لهن تاريخاً حافلاً بالكرام
والبذل والإنفاق في سبيل الله، قد استطعن أن يسطرن التاريخ
الإسلامي بحبر من الإيمان المغسول بماء الذهب، وتعتبر نساء
الصحابة أعظم النساء عبر العصور والأزمان.

وكما يقال: إن المرأة إذا انحرفت، انحرف بانحرافها المجتمع،
وإذا استقامت استقام المجتمع، فليس هناك من يقدر على تطويق
أعظم الرجال إلا النساء، وإن كل رجل عظيم وراءه امرأة عظيمة،
وبالفعل كان نساء الصحابة العمود الفقري لنجاح أزواجهن.



العجوز الباسلة^(١)

لم يكن الرسول القائد ﷺ يمنع النساء من الخروج مع الرجال إلى ساحات الوغى، بل كان يبارك خروجهن وجهادهن بما يستطعن من عمل نافع، فمنهن من كانت تسقي الماء، ومنهن من كانت تداوي المرضى، وتضمد الجراح، ومنهن من يحمين ظهر الجيش ويرددن الفارين من ساحة القتال، ومنهن من يشتركن مع الرجال في القتال، ولم يكن هذا مقتصرًا في العهد النبوي فقط، بل كان كذلك في عهد الخلفاء الراشدين، وما تلاه من العصور، التي كانت شوكة المسلمين فيها قوية، وكان الجهاد فيها أعز مطلب لجميع أفراد المجتمع الإسلامي رجالًا وأطفالًا ونساءً.

ضيفتنا في هذه السطور، امرأة اشتهرت في العصر الراشدي بثبات الجنان، والشجاعة في ميدان القتال، ومنازلة الفرسان المغاوير، كانت طبيعة هذه المرأة أشبه بطبائع الفرسان، كانت جريئة صريحة شجاعة، كانت ولوعًا بالمغالبة والصراع، حريصة

(١) البداية والنهاية ** تاريخ الطبري ** التاريخ الإسلامي مواقف وعبر ** تاريخ الإسلام.

كل الحرص على الغلبة والانتصار، وقد اقتبس أبنائها الأربعة منها روح الفارسة الشجاعة، نحن نلتقي الآن مع امرأة النخعية بطلة يوم القادسية، وإن سكت التاريخ عن اسم هذه الصحابية المقاتلة، لكن التاريخ لم يغفل أن يذكر لها بطولتها العظيمة الخالدة .

لقد تقدم السن بالمرأة النخعية، وهي ترى الدنيا من حولها تكبر وتهلل فرحاً بأخبار انتصارات الجيوش الإسلامية الهائلة خارج الجزيرة العربية، وقد زحفت الجيوش الإسلامية على أعظم دولتين في ذلك الزمان هما: الفرس، والروم، وسجلت في زحفها انتصارات ساحقة، أشبه بالمعجزات التي يتحدث عنها الناس في الأساطير.

وصممت هذه السيدة النخعية العجوز أن تشارك هي وأولادها في هذه الحرب، وخرجت ومعها أبنائها الأربعة إلى الجهاد في أرض العراق، وكانت يومئذ معركة القادسية الطاحنة.

ولما استعرت نار العراك في القادسية وزاد لهيبها، وقد مضى اليوم الأول من أيامها الأربعة، وفي الهزيع الأخير من الليل جمعت العجوز النخعية أبناءها الأربعة توصيهم، فقالت لبنيتها:

إنكم أسلمتم فلم تبدلوا، وهاجرتم فلم تثوبوا -أي لم ترجعوا عن هجرتكم- ولم تنب بكم البلاد -أي لم يستثقلكم الناس- ولم تُقحمكم السنة -أي لم يضعفكم القحط والجوع- ثم جئتم

بأمكم عجزوز كبيرة فوضعتموها بين يدي أهل فارس، انطلقوا
فاشهدوا أول القتال وآخره، فأقبلوا يشتدون.

فلما غابوا عنها رفعت يديها إلى السماء وهي تقول: اللهم ادفع
عن بني، فرجعوا إليها، وقد أحسنوا القتال ولم يجرح منهم رجل
جرحاً.

ويشبه خبر هذه المرأة ما جرى للخنساء رضي الله عنها مع بنيتها الأربعة في
دفعهم إلى الجهاد، فقد زارها بنوها ليلة الهير فقوت من عزائمهم
وحثتهم على التعرض للبأس الشديد من القتال، وكان مما قالت
لهم: فإن أصبحتم غداً إن شاء الله سالمين، فاغدوا إلى قتال عدوكم
مستبصرين، وبالله على أعدائه مستنصرين، فإذا رأيتم الحرب قد
شمرت عن ساقها، واضطربت لظى على ساقها وحللت ناراً على
أرواقها - جوانبها - فيتمموا وطيسها - وسطها - وجالدوا رئيسها
عند احتدام خميسها - جيشها - تظفروا بالغنم والكرامة، في دار
الخلد والمقامة.

وإنها لكلمات بليغة جمعت بين عمق المعنى ومثانة المبنى،
ولا عجب في ذلك فإن الخنساء شاعرة مجيدة، لقد ضربت رضي الله عنها
بهذا السلوك مثلاً عالياً للأُم المؤمنة، فلقد دفعت ببنيها إلى مواطن
الشهادة وهي أحوج ما تكون إليهم لكبر سنهما، ولكنها لرسوخ
إيمانها تشعر بأن ما تنتظره عند الله تعالى في دار كرامته أعظم
وأبقى.

عبرة:

يا أيتها الأخوات المؤمنات، هكذا تكون المؤمنات، فهذه المرأة تحب بنيتها حبًا ملأ جوانحها، ولكن حبها لبنيتها لم يحملها على منع الخير عنهم، فالخير كل الخير في أن يجاهدوا في سبيل الله تعالى لمصلحتهم الخاصة في رفع درجاتهم، ولمصلحة الأمة الإسلامية إذا أضيف إلى مجاهديها أربعة ليوث، يدافعون عن حرمتها وينشرون دين الإسلام في الأرض، ولكن كيف تجمع بين حبها المفرط لبنيتها وحبها الخير لهم ولأمتهم؟

إن السبيل هو ما سلكته من دفع بنيتها إلى الجهاد والحرب الضروس، والتضرع إلى الله تعالى في الوقت نفسه بأن يدفع عن بنيتها ويردهم إليها سالمين، ولقد علم الله سبحانه صدق نيتها في حب الأمرين فجمعهما لها، وهو سبحانه القريب إلى عباده المتقين.

وهكذا فلتكن النساء المؤمنات، فإن لم يبلغن هذا الحد من التضحية التي عند الخنساء، فليكن كالمرأة النخعية التي دفعت ببنيها إلى الجهاد وسألت الله عز وجل أن يحفظهم لها.

ولئن خلد التاريخ ذكر هاتين المرأتين فلكم حوث مضارب النساء في العذيب من نساء مؤمنات مُضحيات مُرييات، وإن ما قدمه من المجاهدين الذين ملأوا ساحات القادسية وغيرها بذلاً

وتضحية، وأصبحوا مُثلاً عالية لمن جاء بعدهم، وإن ما قدمه في
كتبنا هذا من ذلك لدليل على صدق الإيمان وسمو التربية لديهن.
ولئن سكت التاريخ عن تسطير مآثرهن ومآثر كثير من أبطال
الإسلام، فإن ذلك كله مسجل في تاريخ الخلود، وسيجدونه في
كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها.



يا بني اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي^(١)

لقد ضربت النساء - كما ضرب الرجال - في تاريخنا المثل والقدوة العالية في تقواهن لله تعالى، ولو نظرنا في صفحات تاريخنا المجيد لوجدنا لأمهاتنا، ونساء المسلمين مواقف أثبتن فيها أنهن كالجبال في صمودهن وبفعلنهن من أجل الإسلام، والغريب أن البعض يتهم النساء بأنهن لا يفقهن شيئاً، وليس لهم نظرة ولا رأي، وليس من حقهن التدخل في شئون العامة للمسلمين.

وكم في نساء الأمة الإسلامية من عظيمات خلدوا مجداً سطر لهن عبر التاريخ بحكمتهن، وشجاعتهن، وإدراكهن، ووعيهن، وثقافتهن، وفكرهن الراقى، وكما أصابت المحنة رجال المسلمين، كذلك شاركت النساء بنصيب وافر في الدعوة إلى الإسلام، والجهاد في سبيله، وتربية الأبناء، وهذا نموذج يدل على ذلك، عسى أن يكون حافزاً لنساء المسلمين للوصول إلى هذه الدرجة

(١) شذرات الذهب ** سير أعلام النبلاء ** صفة الصفوة ** حلية الأولياء ** ذيل تاريخ

دمشق.

السامية، بالتأسي بهذا النموذج الرائد، نحن مع امرأة عظيمة كانت نموذج للمرأة المربية، فقد ربت واحداً من أعظم علماء الإسلام، فمن تكون هذه المرأة الجليلة، ومن هو ابنها الفقيه العظيم، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفتنا في هذه السطور، امرأة تحلت بالفضائل، وتخلت عن الرذائل، اشتهرت بالحلم والحكمة، وتميزت بالعقل والفهم الذي يوصل إلى الحق ويهدي إلى سواء السبيل، كانت تحسن إلى ابنها، وتجود عليه بالكثير من مالها، لم تدخر وسعاً في إسعاده وإدخال السرور عليه، حتى أصبح علماً من أعظم أعلام الأمة، محدثاً عظيمة من أكابر محدثيها، إنها أم الإمام الجليل سفيان الثوري رحمهما الله تعالى.

لم يمنع الفقر وضيق ذات اليد الإمام سفيان الثوري من طلب العلم حتى أصبح أمير المؤمنين في الحديث، وقد قال فيه الإمام زائدة: الثوري سيد المسلمين، وقال عنه الإمام الأوزاعي رحمهم الله جميعاً: لم يبق من تجتمع عليه الأمة بالرضا، إلا سفيان الثوري، فما هي قصة هذا الإمام العظيم، وما هو دوره في جعله إمام من أئمة المسلمين، نترك هنا المجال للإمام نفسه ليحدثنا عن أمر أمه معه.

يقول سفيان الثوري رحمه الله: لما أردت أن أطلب العلم قلت يا رب لا بد لي من معيشة، ورأيت العلم يندثر، فقلت يجب أن

أجعل حياتي كلها في طلب العلم، ويجب إن أفرغ وقتي لهذا الأمر العظيم، وسألت الله الكفاية - يعني أن يكفيه أمر الرزق -

وكان من كفاية الله له أن قيض له أماً صالحة، قد تكفلت بالإنفاق عليه، يقول قالت لي أُمِّي: يا بني اطلب العلم وأنا أكفيك بمغزلي!!

فقد كانت رحمها الله تعمل بالغزل، وتقدم لولدها نفقة الكتب والتعلم، ليتفرغ هو للعلم، بل والأكثر من ذلك أنها كانت كثيرًا ما تتخوله بالموعظة والنصيحة لتحضه على تحصيل العلم.

فكان مما قالت له ذات مرة: يا بني إذا كتبت عشرة أحرف فانظر هل ترى في نفسك زيادة في خشيتك، وحلمك، ووقارك، فإن لم تر ذلك، فاعلم أنها تضرك ولا تنفعك.

وهكذا تقبل الله من الإمام وكانت أمه كفاية الله له، فلم يكن من غرابة بعد أن يتبوأ سفيان الثوري السيادة في العلم والإمامة في الدين، وكيف لا، وقد ترعرع في كنف مثل هذه الأم الصالحة، وتغذي من فضائلها وتقواها.

عبرة:

يا أيتها الأخوات المؤمنات، مثل هؤلاء العظيمات من صنع مجد الإسلام، وسمت بهن عظمته، وصدعت بقوتهن قوته، وعنهن ذاعت مكارمه، ورسخت قوائمه، وإذا قلبت صفحات تاريخنا

الإسلامي، فلا تكاد تقف على عظيم ممن ذلت لهم نواصي الأمم، ودانت لهم الممالك، وطبق ذكركم في الخافقين إلا وهو ينزع بعرقه وخلقه إلى أم عظيمة، وكيف لا يكون ذلك والأم المسلمة قد اجتمع لها من وسائل التربية ما لم يجتمع لأخرى ممن سواها؟

مما جعلها أعرف خلق الله بتكوين الرجال، والتأثير فيهم، والنفوذ إلى قلوبهم، وثبتت دعائم الخلق العظيم بين جوانحهم، وفي مسارب دمائهم، فهذا الإمام الجليل سفيان الثوري رحمه الله، قامت أمه رحمها الله بأمره، وقد شب في كنفها، ونشأ على طبعها، وتخلق بسجاياها، فوصل إلى أن أصبح من أهم علماء الأمة عبر العصور، وأمير المؤمنين في الحديث.

يا أيتها الأخوات الكريمات، هذا موقف لهذه السيدة العظيمة، تتجلى فيه الثقة بالله عز وجل ورحمته، وأنه سبحانه لا يمكن أبداً أن يخذل عبده أو أمته إذا ادلهمت الخطوب، وتجمعت الكروب، ذلك لأنهن يتعاملن مع رب العالمين الذي يعلم السر والعلانية، يعلم سرائر المؤمنين وما تحتوي عليه من محبته وتعظيمه.

والله لن تقوم أمة من هزيمتها وهي تحتقر نساءها، فزوجتك التي عودتها على الذل والهوان لن تنجب لك إلا ذليلاً، وأختك التي تضربها في الغداة والعشي لن تربّي إلا إمعة، وأمك التي لا تحترمها لن تدعو لك إلا بالهزيمة والخذلان، وابنتك التي تمنعها

من العلم لن تكون إلا تافهة تضاف إلى التافهات في هذه الأمة،
فالله الله في النساء، فهن أساس البناء الصحيح، وهن أساس القيام.



قاهرة الروس^(١)

مهلاً مهلاً أيّها التاريخ قف قليلاً قف عند محطة عظيمة، قف لتُخبر صنّاع الجريمة، قف وحدثهم عن فتاتنا الكريمة أخبر حُشود الروس أن رجالهم أذلّتهم امرأة لنا جريئة، وُلدت من صُلب الإسلام، وتربت في دولة الكرام، ولما رأَت الظلم كان حتماً عليها الانتقام، هي امرأة من دولة آل عثمان، ضربت أروع الأمثلة في البطولة والتضحية والفداء، بالفأس أثبتت لدينها الولاء، بدم الروس كتبت لأخيها قصةَ الوفاء، فمن تكون هذه المرأة المجاهدة البطلة التي قاهرت جحافل القوات الروسية، وما هي قصته جهادها، وقصة أخيها الشهيد، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفتنا في هذه السطور، رمز من رموز الشجاعة النادرة، والبطولة الفذة، ومثل رائع من أمثلة التضحية والفداء، وهي لسان صدق للحق المر، وميزان حق للشجاعة في أسمى صورها وأرقى معانيها، قامت بأعمال بطولية نادرة سجلها لها التاريخ في أنصع

(١) ١٠١ من عمالقة آل عثمان ** تاريخ الدولة العثمانية لإسماعيل سرهنك ** العثمانيون والروس ** الدولة العثمانية يلماز أوزتونا.

صفحاته، وأفاد منها المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، نحن على موعد مع، امرأة باسلة سجل لها التاريخ بطولاتها بحروف من ذهب، في أنصع صحائف التاريخ الحديث، إنها المجاهدة العثمانية نينه خاتون رحمها الله.

كانت نينه خاتون رحمها الله تعيش في حي من أحياء مدينة أرضروم -شمال شرق تركيا- في الدولة العثمانية يُعرف باسم العزيزية، وكان هذا الحي يقع بالقرب من أحد الحصون الهامة التي كانت تُدافع عن المدينة ضد جحافل الجيوش الروسية، وفي ليلة السابع من نوفمبر عام ١٨٧٧ م، قام الجيش الروسي بالاستيلاء على حصن العزيزية بعد أن قتل كل الحامية العثمانية التي استبسلت في القتال دفاعًا عن هذا الحصن.

وكان لدى بطلتنا نينه خاتون شقيقٌ يُدعى حسن توفي مُتأثرًا بجراح شديدة دفاعًا عن هذا الحصن، وفي الصباح عندما وصل إلى نينه خبر استيلاء الروس على حصن العزيزية قبلت شقيقها الشهيد، وأقسمت أن تتأثر لكن لرب ودين، فتركت وراءها في المنزل ابنتها الصغيرة ذات الأشهر الثلاثة ودموعها تمتزج بدموع ابنتها التي ستفارقها، وانضمت إلى الأهالي الذين قرروا لقاء العدو جهادًا في سبيل الله لحماية بلدهم ودولتهم.

اصطحبت نينه خاتون معها بندقية شقيقها الشهيد بالإضافة إلى فأس صغيرة، ومع أن الهجمات التي قام بها المدنيون العثمانيون

ومعظمهم من النساء وكبار السن المسلحين بالفؤوس ومعدات الزراعة إلا أنها كانت في عيون الجيش الروسي أقوى من جيوش الدنيا، حيث زحف الأهالي بسلاحهم البسيط ليوажوها الترسانة الروسية وفي مقدمتهم نينه خاتون التي أخذت تركض حتى سبقت الأهالي في الهجوم، في نظر الأعداء هي فتاة تحمل معها فأساً وبندقية فقط، لكنها ترى أن الله معها ضد الظلم والاحتلال.

تجهز الجيش الروسي وهو يرتجف فهو لا يقابل جيشاً ولا أسلحة ثقيلة، إنه يُقابل قلوباً كالجبال الراسيات تحمل الإيمان واليقين، بدأ القتال، وقُتل مئآت من المدنيين العثمانيين برصاص الاحتلال الروسي، ولكن غلب الإصرار والحق في النهاية، واستطاع الأهالي العثمانيون دخول الحصون بعد أن كسروا أبوابها الحديدية، وأسفر القتال الذي دار بالأيدي والفؤوس والسكاكين عن مقتل نحو ٢٠٠٠ جندي روسي وهرب بقية الجنود الروس.

وعندما عُثر على المجاهدة نينه خاتون كانت فاقدة الوعي ومصابة، وكانت يداها المخضبتان بالدماء لا تزال تقبضان بشدة على فأسها، وكانت نينه خاتون باعتراف الجميع هي الأكثر بطولة في هذه المعركة الشرسة، فأصبحت رمزاً للشجاعة ليس في بلدها فقط بل في العالم أجمع.

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، لم تكن نينه خاتون هي المرأة

الأولى في تاريخ أمتنا تُسطر الأمجاد، بل إن النساء كُنَّ في خدمة الأمة منذ أن بزغ فجر الإسلام قبل أربعة عشر قرن، فخديجة وأسماء وعائشة والسميراء وأم عمار وأُم سليم من أروع الأمثلة على المرأة المسلمة، كُنَّ في خدمة الإسلام دومًا، وهكذا مع مرور الحقب الزمنية نجد الكثير والكثير من النساء يرحلن ويتركن خلفهن بصمة في التاريخ، لعل نساءنا اليوم يقرأن التاريخ ويقتدين بمن سبقهن من النساء الباسلات الطاهرات.

وبعد يا أخوات الإسلام، يجب عليكم أن تتعلموا من هؤلاء القدوات الذين زينوا سماء تاريخنا، وكن كالنجمات في كبد السماء، لقد كنفي الإسلام القدوة والمثل الأعلى، فلهذا يجب علينا نقرأ سير العظيمات في تاريخنا فهنا قدمنا للإسلام كما قدم العظماء من الرجال.



المؤمنة الملهمة^(١)

لقد كانت هذه السيدة هي أساس قيام الأمة بعد سنوات من الهزيمة والانحدار، ولقد كان بناء أمة بأسرها يبدأ امرأة واحدة، بل كانت هزيمة أعتى قوة إجرامية على مر التاريخ الإنساني تبدأ بتلك المرأة المؤمنة، وهزيمة أعظم جبار عرفه تاريخ البشرية، بدأت بامرأة فقيرة تسكن في بيت صغير على ضفاف النيل، وهنا يأتي دور المرأة المسلمة في صناعة النصر، فالمرأة هي التي أراد الله من خلالها أن يمن على الذين استضعفوا في الأرض ويجعلهم أئمة.

هذه المرأة المؤمنة العظيمة هي وابنها من غيروا مجرى التاريخ الإنساني، فهي أم لشخص من أعظم شخصيات التاريخ، ونبي من أعظم الأنبياء، فمن تكون هذه المؤمنة الملهمة، ومن يكون ابنها العظيم، وما هي قصتهما مع أكبر طاغية في تاريخ، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفتنا في هذه السطور، امرأة من أعظم نساء التاريخ، سليمة

(١) تفسير الطبري ** تفسير ابن كثير ** قصص الأنبياء ** مؤمنات لهن عند شأن **
المستفاد من قصص القرآن ** ظلال القرآن.

القلب، شفافة الروح عرفت ربها حق المعرفة: فألهمها رشدها، وآتاها تقواها، وأكرمها غاية الإكرام، وحفظ لها وليدها عند عدوها، ثم رده إليها فكان قرة عين لها، وجعله نبياً مرسلًا، وأنزل عليه التوراة هدى ونورًا، نحن على موعد مع، الأم الرزان الصابرة يوكابد بنت هاند أم موسى ﷺ، فهيا بنا لتتجول بين أروقة التاريخ لنرى هذا المشهد العظيم.

جاء على عرش مصر فراعنة ييغضون بني إسرائيل بغضًا شديدًا - لقد اعتبر بعض ملوك مصر بني إسرائيل أحفاد نبي الله يوسف بن إسرائيل عليهما السلام قد تعاونوا مع الاحتلال الهكسوسي لمصر حينما قبل يوسف عليه السلام منصب الوزير لعزيز مصر - حتى جاء على عرش مصر طاغية جبار متكبر لا يرى فوقه أحدًا - قيل هو رمسيس الثاني، وقيل غيره - كان لا يؤمن بالله، وكان مغرورًا بملكه وقصوره، ودعا الناس إلى عبادته والسجود له، وأطاعه أغلب الناس في ذلك.

وفي أحد الأيام رأى فرعون في منامه أنه سيولد في بني إسرائيل مولودٌ سيدمر حكمه ويزيل سلطانه، فجن جنونه، وأمر هذا الطاغية السفاح الشرطة بقتل كل مواليد بني إسرائيل من الذكور، وانتشرت الشرطة في كل شوارع مصر يفتشون ويبحثون، فإذا علموا مولودًا ولد في بني إسرائيل أخذوه وذبحوه كما تذبح النعجة.

وذبح ألوف من الأطفال أمام آبائهم وأمهاتهم، وكان اليوم الذي

يولد فيه مولود في بني إسرائيل يوماً عسيراً. لقد أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من هذا الغلام فما نفعه ذلك، إذ أراد الله عز وجل أن يقع ما كان فرعون يخافه ويحذره، وولد ذلك المولود الذي قدر الله أن يكون سبب هلاك فرعون على يديه، بل يكون هذا الغلام الذي احترز من وجوده فرعون، وقتل بسببه ألوفاً من الولدان إنما منشؤه ومرباه في قصر فرعون.

كانت أم موسى قد ولدت موسى عليه السلام، ولكنها خافت على مولودها، وكيف لا تخاف والطاغية لهم بالمرصاد؟ وكيف لا تخاف وقد اختطفت الشرطة عشرات من الأطفال من حجر الأمهات في أسرتها؟

فماذا تصنع الأم المسكينة؟ وأين تخفي موسى من عيون الشرطة، هنالك أغاث الله الأم المسكينة وألهمها أن تضعه في صندوق وتلقيه في النيل.

فقد قال رب العزة سبحانه: ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفَتْ عَلَيْهِ فَالْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧) فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨) وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قَرَّتْ عَيْنِي لِی وَلَکَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (٩) وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ

قُصِّيه فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ
 الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ
 وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢) فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ
 أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿ (القصص: ٧ -
 (١٣).

لقد أوحى الله إليها وحي الإهام، أو أرسل إليها ملكاً يكلمها
 وهي لا تراه، أو أراها ذلك في المنام أن ترضع وليدها، ما دامت
 آمنة عليه، فإذا خافت عليه ألقته في اليم، وهي مطمئنة عليه من
 أي خطر يهدده، غير آسفة على فراقه، فإنه سبحانه سيعيده إليها
 سالمًا لم يمسه سوء، وبشرها بأنه سيكبر في حجرها، ويبلغ مبلغ
 الرجال، ثم يجعله نبيًا مرسلًا.

فظلت ترضعه مدة، فلما أدركها الخطر، ورأت زبانية فرعون
 مقبلين عليها، أعدت له من فورها تابوتًا محكمًا وألقته فيه، كما
 أمرها ربها عز وجل وقذفته في اليم بعد ما ربطته، وقذف النيل
 التابوت إلى قصر فرعون، فأرسلت امرأته آسية بنت مزاحم عليها السلام
 الخدم في طلبه .

وجاء الخدم بالتابوت إليها، فلما فتحته، أبصرت وليدًا بهي
 الطلعة جميل الصورة، مستنير الوجه، ففرحت به فرحًا شديدًا.

فلما جاء فرعون وأبصره، غضب من وجوده في بيته، وقد رأى

أنه ليس من بني جلدته، وأمر بذبحه على مرأى منه، فاستوهبته منه
آسية، ونهت عن قتله، وقالت لفرعون: دعه حيًا، ليكون قرّة عين
لي ولك، نسعد برؤيته، وننعم بوجوده معنا في بيتنا، وعسى أن
ينفعنا في تدبير شؤون الملك، أو نتخذه ولدًا ننسبه إلينا ونفخر به
بين أهلينا وذريتنا، فاستجاب لها بعد أخذ ورد.

أما أم موسى فإنها قد أصبح قلبها خاليًا من كل شيء إلا من
وليدها، ولقد كادت تفقد وعيها وتُظْهر أنه وليدها، وتستغيث بمن
يأيتها به، ويستخلصه باللين أو بالشدة من أيدي أولئك الفجار،
الذين خلت قلوبهم من الرحمة، وتجردوا من كل صفات الإنسانية
الخيرية، غير أن الله عز وجل ثبت قلبها، وقوى عزمها على الصبر
والاحتساب، وذكرها بما وعدّها به، فالتزمت جانب الحكمة،
وأخذت بالأسباب، واستعانت بالله على تحقيق المطلب، كما
هو شأن المتوكّلين، فأرسلت أخته لتبصر حاله في قصر فرعون
من بعيد، خوفًا عليها من بطشهم، ولكي لا يشكوا في أمرها،
فيحملوها بالقوة على الاعتراف بأنه أخوها، فيقتلوه ويقتلوها.

فانطلقت تتبّع أثره، لتعلم خبره عن بعد، بحيث اتخذت لها
جانبًا من جوانب القصر بعيدًا عن الشك والتهمة، فبصرت به،
وعرفت أن امرأة فرعون جاءت له بمرضعات كثيرات، فحرمهن
الله عليه فلم يتناول ثدي واحدة منهن.

وهنا تدخلت تنصح لهم فقالت: هل أدلكم على أهل بيت

يحسنون كفالتة ويكرمون مثواه، ويقومون بشأنه كله خير قيام. فقبلوا منها هذا النصح بعد أن استوثقوا من صدقها، وأيقنوا أنها لا تعرف الوليد وليس لها به صلة، فدلتهم على أمه، فأرسلوا إليها، وهم لا يشعرون بأنها أمه، وقدموا لها الوليد لترضعه، فتناول ثديها وامتنعه بسهولة ويسر، ففرحوا بذلك فرحاً شديداً.

وقالت آسية امرأة فرعون لها: اسكني معنا في هذا القصر المنيف، لترضعي هذا الوليد الوضيء فاعتذرت بأنها لا تستطيع أن تعيش معهم في القصر، ولها زوج وأولاد، وطلبت منهم أن تصحبه إلى بيتها فأجابوها إلى طلبها وأرسلوه معها، وأغدقوا عليها وأوسعوا لها العطاء، وعاش موسى عليه السلام مع أمه في أمن ورخاء، حتى شب عن الطوق وبلغ أشده واستوى عوده، فقرت به عينها صغيراً وكبيراً، ونعمت بصحبته حتى لقيت ربها عز وجل.

عبرة:

يا أيتها الأخوات المؤمنات، إن هذا المرأة الصالحة والأم الرؤوم، مثل صادق لكل امرأة تريد أن تستلهم رشدًا من ربها عز وجل، وتتلقى منه الأوامر والنواهي بالقبول والطاعة، وتتسلح بالثقة بفضله وحسن التوكل عليه، وتتوقع منه جل شأنه الرحمة في كل وقت، وتعلم علم اليقين أنه أرحم بها من نفسها على نفسها، وتتجمل بالصبر على المكاره، فإن المكاره منح في صورة محن، فتشكره عليها ولا تتبرم منها، فهي كالدواء للداء، قد يكون مرًا في الظاهر، لكنه نافع للداء على كل حال.

فأم موسى رحمها الله مرت بظروف صعبة، فتلقّتها بالرضا، واستعانت بربها على تخطيها بسلام، فمرت بها تلك الظروف مرور الكرام، وتحقق لها وعد الله بنجاة وليدها من خطر لا يتوقع أحد له منه نجاة، وردّه إليها في عزة وكرامة، وكفله جل شأنه بعنايته ورعايته، وألقى عليه محبة منه في قلب كل من رآه، وهذا جزاء من تزكى وتطهر، وصبر وشكر، وأسلم أمره كله لخالقه ومولاه.

يا أيتها الأخوات الكريمات، إن سنن الله الكونية نافذة وعلى أهل الإيمان ألا يتأخروا في الأخذ بالأسباب المتاحة، فهذا مبلغ جهد أم موسى في حماية موسى الرضيع، والذي تولى حمايته ونصره في الحقيقة هو الله عز وجل ذو الجلال والإكرام، وكان يمكن أن تحصل الحماية والرعاية دون أسباب، ولكن الله من سنته إذا أراد شيئاً هياً له أسبابه، فألقى الله في قلب امرأة فرعون محبة موسى وكان سبباً في نجاته من الذبح، لقد مكن الله تعالى حب موسى عليه السلام من قلب زوجة فرعون وأعطاه من القدرة على الجدل والنقاش بحيث أقنعت فرعون بتركه.



الأم المثالية^(١)

يزخر التاريخ الإسلامي بنماذج مشرفة وأمّهات عظيمات، استطعن أن يضعن أثرهن ويصنعن رجالاً بحق، هؤلاء الأمّهات كان لهن دور فعال في بناء رجال وشخصيات عظيمة حفرت أسماءها عبر العصور، وتركت علامات فارقة في عدة مجالات مختلفة، وحديثنا في هذه الصفحات عن امرأة ضربت المثل الجيد، والقُدوة الحسنة في التربية والتنشئة كما يجب أن تكون، فهي لم تكن أمّاً صنعت رجلاً فحسب، بل صنعت عالماً جليلاً لم يعرف التاريخ له مثيلاً، فمن تكون هذه الأم المثالية، وما هي قصة ابنها الذي هو واحد من أعظم علماء الإسلام، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفتنا في هذه السطور، امرأة عظيمة من العصر الإسلامي الزاهي، كان لها أكبر الأثر في تربية عالم عظيم كان مدرسة في الفقه والحديث والسيرة، تخرج على يديه أعظم علماء الأمة مثل: مثل مالك بن أنس، وأبي حنيفة النعمان، ويحيى بن سعيد،

(١) تذكرة الحفاظ ** تاريخ بغداد ** صور من حياة التابعين ** وفيات الأعيان ** تاريخ الطبري ** حلية الأولياء ** صفة الصفوة ** ميزان الاعتدال.

وسفيان الثوري، وعبد الرحمن الأوزاعي، والليث بن سعد وغيرهم
ﷺ أجمعين، فيا لها من امرأة سعيدة فقد تخرج على يدى ابنها
أعظم أئمة الإسلام، وقد تربى هو في مدرسة هذه المرأة الرزان.

نحن على موعد مع، سيدة رزان لم تكن ذات شهرة واسعة في
عالم النساء، لكن خصها الله عز وجل بنعمة الإيمان، والقُدوة
الحسنة في تربية أولادها، ولئن كانت الأم مدرسة كما يقال فما
أجل مدرسة هذه السيدة التي تربى في حجرها واحد من أعظم أئمة
المسلمين، هو شيخ الأئمة ربعة الرأي رحمه الله، نحن في هذه
السطور مع أم ربعة الرأي رحمهما الله، فتعالوا بنا لنستمع بهذه
القصة الرائع لهذه السيدة العظيمة.

بعد فتح المسلمين منطقة سجستان عاد الفتى فروخ إلى المدينة
المنورة بعد موت مولاه وسيد الصحابي الجليل الربيع بن زياد
رضي الله عنه، وقد عزم على الزوج، فابتاع دارًا من دور المدينة،
واختار امرأة راجحة العقل، كاملة الفضل، صحيحة الدين، لقي
فروخ في صحبة زوجته هذه من هناءة العيش، وطيب العشرة،
ونضارة الحياة فوق ما كان يرجو ويأمل.

ولكن تلك الدار العامرة على كل ما توافر لها من المزايا، وتلك
الزوجة الصالحة على ما حباها الله من كريم السمائل، وجيل
الخصائل، لم يستطيعا أن يتغلبا على حنين الفارس المؤمن إلى
خوض المعارك، وولعه باستئناف الجهاد في سبيل الله، فكان كلما

ترددت في المدينة أخبار انتصارات الجيوش الإسلامية الغازية في سبيل الله تأججت أشواقه إلى الجهاد، واشتد حنينه إلى الاستشهاد.

وفي ذات يوم عاد إلى بيته وقد عقد العزم على الانضواء تحت لواء راية المجاهدين، وأعلن عزمه هذا لزوجته، فقالت له: يا أبا عبد الرحمن، لمن تتركني، وتترك هذا الجنين الذي أحمله بين جوانحي؟ فأنت رجل غريب عن المدينة، لا أهل لك فيها ولا عشيرة، فقال: أتركك لرب العزة سبحانه، ثم إني خلفت لك ثلاثين ألف دينار فصوصيها وأنفقي منها على نفسك ووليدك بالمعروف حتى أعود، أو يرزقني ربي الشهادة التي أتمناها، ثم ودعها ومضى إلى غايته.

وضعت السيدة الرزان حملها بعد رحيل زوجها ببضعة أشهر، فإذا هو غلام ففرحت به فرحًا عظيمًا كاد ينسيها فراق أبيه، وأطلقت عليه ربيعة، بدت على الغلام الصغير علامات النجابة منذ نعومة أظفاره، وظهرت أمارات الذكاء في أفعاله وأقواله، فأسلمته أمه إلى المعلمين، وأوصتهم بأن يحسنوا تعليمه، واستدعت له المؤدبين وحضتهم على أن يحكموا تأديبه، فما لبث كثيرًا حتى أتقن الكتابة والقراءة، ثم حفظ كتاب الله، وقد أغدقت أم ربيعة على معلمي ولدها ومؤدبيه المال والجوائز إغداً، فكانت كلما رآته يزداد علمًا، تزيدهم برًا وإكرامًا، وكانت تتربع عودة أبيه الغائب، وتجتهد في أن تجعله قرّة عين لها، لكن فروخًا طالت غيبته، وظنت أنه نال الشهادة التي تمنّاها، فاحتسبته عند الله.

مضى ربيعة في الطريق التي اختطها أمه له غير وانٍ ولا مقصر، وأقبل على حلقات العلم التي كان يزخر بها مسجد المدينة كما يقبل الظماء على الموارد العذاب، ولزم البقية الباقية من الصحابة الكرام، وعلي رأسهم أنس بن مالك، وغيره من علماء العصر، حتى أصبح أكثر أهل المدينة علمًا.

وفي ذات عشية جاء إلى المدينة فروخ بعد غياب ثلاثين عامًا، وقد وجد نفسه أمام داره، فأعجلته الفرحة عن الاستئذان على أهلها، ودخل من الباب، وأوغل في صحن الدار، فسمع ابنه ربيعة بصوت أحد في الدار، فرأى رجلًا متوشحًا سيفه متقلدًا رمحه، يقتحم عليه في الليل داره.

فنزّل إليه ربيعة وهو لا يعرفه، وقال له: أنتستربجنح الليل يا عدو الله، وتقتحم منزلي، وتهجم على حريمي؟ واندفع نحوه، وتواثب كل من الرجلين على صاحبه، وعلت جلبتهما، وارتفع ضجيجهما، وتدفق الجيران على البيت من كل صوب، فأحاطوا بفروخ، وأعانوا جارهم ربيعة عليه، فأمسك به وقال: والله لا أطلقك يا عدو الله، إلا عند الوالي.

فقال فروخ: ما أنا بعدو الله، ولم ارتكب ذنبًا، فهذا هو بيتي، وجدت بابه مفتوحًا فدخلته، ثم التفت إلى الناس وقال: يا قوم اسمعوا مني أنا فروخ، وهذا بيتي شريته بمالي لزوجتي.

لم يبق في الجيران أحد يعرف فروخ الذي غدا منذ ثلاثين

عامًا مجاهدًا في سبيل ربه؟ وكانت والدته صاحب الدار نائمة، فاستيقظت على الضجيج، وأطلت من نافذة عليتها، فرأت زوجها فروخ، فقالت: دعه يا ربعة، إنه أبوك، انصرفوا عنه يا قوم، بارك ربي فيكم، فما كادت كلماتها تلامس الآذان حتى أقبل فروخ على ربعة وجعل يضمه ويعانقه.

جلس فروخ إلى زوجته، وطفق يحدثها عن أحواله، ويكشف لها عن أسباب انقطاع أخباره، ولكنها كانت في شغل شاغل عن كثير مما يقول، فلقد نغص عليها فرحتها بلقائه، خوفها من غضبه على إضاعة كل ما أودعه لديها من مال على ربعة.

ولما أذن المؤذن لصلاة الفجر، مضى فروخ مسرعًا نحو الباب وهو يقول: أين ربعة؟ فقالوا: سبقك إلى المسجد، بلغ فروخ المسجد وصلى، ولما هم بمغادرة المسجد، وجد باحته قد غصت على رحبها بمجلس من مجالس العلم لم يشهد له نظيرًا من قبل، ورأى الناس قد تحلقوا حول شيخ المجلس حلقة إثر حلقة، حتى لم يتركوا في الساحة موطئًا لقدم، وحاول فروخ أن يتبين صورة الشيخ فلم يفلح لموقعه منه، وبعده عنه.

وما هو إلا قليل حتى ختم الشيخ مجلسه ونهض واقفًا، فهب الناس نحوه وتزاحموا عليه، وأحاطوا به، واندفعوا وراءه إلى خارج المسجد، هنا التفت فروخ إلى رجل كان يجلس بجانبه وقال: قل لي من الشيخ؟ فقال الرجل باستغراب: أولست من أهل المدينة؟

قال فروخ: بلى، فقال الرجل: وهل في المدينة رجلٌ واحدٌ لا يعرف الشيخ؟ فقال فروخ: اعذرني إذا كنت لا أعرفه، فلقد أمضيت نحوًا ثلاثين عامًا بعيدًا عن المدينة.

فقال الرجل: هذا سيد فقهاء المدينة، وعلم من أعلام المسلمين، ومحدث المدينة، وإمامها، ثم أتبع الرجل يقول: وإن مجلسًا يضم كما رأيت مالك بن أنس، وأبا حنيفة النعمان، ويحيى بن سعيد، وسفيان الثوري، وعبد الرحمن الأوزاعي، والليث بن سعد وغيرهم من علماء المسلمين.

فقال فروخ: ولكنك لم تذكر لي اسمه، فقال الرجل: إنه ربيعة الرأي، فقال فروخ: ربيعة الرأي، قال الرجل: إن اسمه ربيعة، لكن علماء المدينة دعوه ربيعة الرأي لأنهم كانوا إذا لم يجدوا لقضية نصًا في كتاب الله أو حديث رسول الله ﷺ لجؤوا إليه، فيجتهد في الأمر، وإن اسم أبيه فروخ، عند ذلك تحدت من عيني فروخ دمتان كبيرتان لم يعرف لهما الرجل سببًا.

ومضى فروخ إلى بيته، فلما رآته أم ربيعة والدموع تملأ عينيه قالت: ما بك يا أبا ربيعة؟ قال: ما بي إلا الخير، لقد رأيت ولدنا ربيعة في مقام من العلم والشرف والمجد ما رأيته لأحد من قبل.

فاغتنتم أم ربيعة الفرصة وقالت: أيما أحب إليك، ثلاثون ألف دينار أم هذا الذي بلغه ولدك من العلم؟، فقال: بل ورب الكعبة هذا أحب إلي، وآثر عندي من مال الدنيا كله، فقالت: لقد

أنفقت ما تركته عندي عليه، فهل طابت نفسك بما فعلت؟ فقال:
ورب فروخ نعم، وجزيت عني وعنه وعن المسلمين خير الجزاء.

عبرة:

يا أيتها الأخوات المؤمنات، هذا الموقف الرائع الذي حدث
بين ربعة الرأي ووالده فروخ، كان وراءه أم صالحة بذلت قصارى
جهدها لكي تصنع بحق رجلاً، على الرغم من غياب أبيه لفترة
طويلة من الزمن، فاستطاعت أن تغتني المال الذي تركه زوجها معها
وتحوله إلى ثروة حقيقة تجسدت في هذا العالم الرباني الجليل.

يا أيتها الأخوات الكريمات، لتكن لنسائنا في هذه السيدة
العظيمة قدوة وأسوة حسنة، وليعملن على أن يكن ربات بيوت
بكل ما في الكلمة من معنى، وعلى تنشئة أبنائهن على أخلاق
الإسلام الرفيعة، وليُعلمن أولادهن من الصغر أن للإسلام حقوقاً
على المسلم، وأن طلب العلم في سبيل الله غاية الغايات.



امرأة أيقظت أمة^(١)

لما اكتسح الإعصار الصليبي ممالك الإسلام، واحتلوا مدينة أنطاكية العريقة بعد حصار دام سبعة شهور، قام الصليبيون بذبح أهلها جميعاً، وكانت مأساة كبرى على المسلمين، وفي وسط كل تلك التفاصيل المحبطة تطل علينا قصة فتاة دمشقية تركت أكبر الأثر في نفس كل من تعرف على ملابسات موقفها الإيماني تجاه ما كانت الأمة تواجهه من مأساة، وامثالها لأوامر الله عز وجل، وانتمائها للإسلام، على النقيض من الذين يتقاعسون عن ذلك، وفقاً لما ورد عنهم في القرآن الكريم إذ يقول سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَتَأْقُلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ﴾ (التوبة: ٣٨).

من خلال الآية الكريمة يوجه الله سبحانه وتعالى اللوم الشديد للمؤمنين لعدم امتثالهم للأمر الإلهي بالخروج لنصرة دين الله، والجهاد في سبيله، وإنما التصقوا بالأرض ورضوا بعيشتهم على ما

(١) امرأة الزمان ** قصص من التاريخ ** فجر أمة صلاح الدين الأيوبي ** بطولات من التاريخ.

كانت عليه من ذل وظلم وضياح، فمن هي هذه الفتاة الدمشقية، وما هي قصة قص شعرها، وكيف كان لها أثر كبير في حركة الجهاد ضد الغزاة المحليين، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفتنا في هذه السطور، امرأة ضربت مثلاً للمؤمنين جميعاً رجالاً ونساءً، لكي تكون قدوة لمن أراد أن يحقق لنفسه شعب الإيمان كلها، ومكارم الأخلاق في أسمى درجاتها، فهي بإيمانها القوي، وهمتها العالية، وحكمتها البالغة، سطرت لنفسها اسماً في الخالدين، وكتبة لدينها ووطنها أعظم تضحيات الكبير في تاريخ.

نحن على موعد مع، فتاة كانت مثلاً صادقاً في العقيدة التي رسخت في أعماق قلبها، وخلت من كل محنة ترد عليها، واستهانت في التمسك بها بكل ما لقيته في سبيل نصرتها من ويلات وتضحيات وصعاب، فتاة كانت مثلاً عظيماً في البطولة والفداء التي ليس لها مثل، نحن نلتقي بالفتاة الدمشقية ميسون رحمها الله تعالى.

تعد ميسون الدمشقية إحدى المؤمنات اللاتي لم تلتصقن بالأرض، فقد كان لتك الفتاة الدمشقية أربعة أشقاء كانوا ضمن مجموعة من المجاهدين الذين خرجوا من دمشق ضمن الجيش المكلف بحماية أنطاكية واستشهدوا كلهم عن بكرة أبيهم أثناء القتال.

ذهب الناس لتغزية ميسون في أشقائها الأربعة، وكان أبوها

وأما قد توفيا قبل ذلك بقليل، وبالتالي أصبحت الفتاة بلا عائل، وعندما أجهشت النساء في البكاء، كان لدى ميسون رسالة أبي ضميرها إلا وأن تبلغها لذوات جنسها، فوقفت لتقول لهن: يا أخوات الإسلام، إن كنتن قد جئتن لتعزيتي في أشقائي فارحلن، وإن كان بكاءؤكن وعزاؤكن على ضياع الأمة، وبلاد الإسلام ففكرن معي فيما يمكننا أن نقدمه لأمتنا ولأهلنا وديارنا!!

لم يكن لدى ميسون المال الذي تستطيع أن تتبرع به للمجاهدين، ومع ذلك فلم تردد لحظة واحدة في تقديم أغلى ما عند المرأة من زينة، فقد قامت ميسون بقص شعرها، وقالت للنساء: نحن معشر النساء لا قبل لنا على الحرب، ولا الخروج للجهاد، ولكن ما زال بوسعنا توفير الحبال التي يستخدمها المجاهدون لربط الخيول، وطلبت ميسون من الحاضرات أن يقدمن ما هو في استطاعتهن، فأقدم الكثير من النساء على قص شعورهن.

وهكذا تكون المرأة المسلمة قد قصت شعرها على سبيل إتيان ما هو بوسعها لرفعة شأن دينها، وتكون بذلك مثلاً لكل منا لتقديم كل ما يملك لنصرة دينه.

ثم ذهب ميسون للإمام المسجد الأموي في دمشق وهو المؤرخ سبط ابن الجوزي، وقالت له: ليس باستطاعتنا نحن نساء الإسلام أن نقدم أكثر من ذلك فانظر ما بوسع الرجال أن يقدموا.

وما كان من ابن الجوزي إلا أن خطب خطبة في جامع دمشق،

قال فيها: يا أيها الرجال، هل أنتم أحياء أم صرتم أمواتا؟ أرض المسلمين قد سلبت بعد أن دفع صحابة رسول الله ﷺ دماءهم ثمنًا لها، أو تضيع الأرض، وينتهك الدين، و تستباح الأعراض؟

فإن ضاعت الأرض فباسم الإسلام أدعوكم، فإن لم تقوموا باسم الإسلام فباسم الإنسانية أدعوكم، فإن لم تقوموا باسم الإنسانية فليكن باسم العروبة إذن بالله عليكم، لقد تحركت النسوة وقدمن شعورهن حبالًا لكم فتحركوا حتى تكون النهضة والعودة والأوبة إلى دين الله!!

عبرة:

يا أيتها الأخوات الكريمات، إن اقتفاء الموقف الإيماني للفتاة الدمشقية ميسون، تلح علينا الحاجة لمراجعة أنفسنا بغرض الإقبال على عمل صغيرًا كان أو كبيرًا، يكون من شأنه المساعدة في نهوض الأمة، وليكن ذلك العمل في محيط الأسرة، أو المجتمع، فالمهم أن يصب في صالح المسلمين، ورغم صعوبة المهمة إلا أن الأمل معقود على أن ينجح الكثير منا كما نجحت ميسون في مساعدة الأمة ولو بشيء بسيط، فبقدر ما كانت وحدة الأمة مهمة بقدر ما كان أي جهد فردي على بساطته له تأثيره في الوصول إلى الوحدة المنشودة.

يا أيتها الأخت المؤمنة، لقد قدمت هذه الفتاة الشابة لديها ما يعجز عنه الصناديد من الرجال الأبطال، فقد كانت هي المحرك

الأول لاستنهاض الهمم والعزائم من أجل نُصرة الأوطان، لقد جعلت هذه الفتاة تحريك الجموع لاسترداد بلاد الإسلام عملها الأول في الحياة، فنجحت في تحريك الجموع لمواجهة الغزاة المحلّتين، واستطاعوا بعد معارك ضارية، وقتال مرير، استرداد بلاد الإسلام من هذا العدو الغاشم، وكانت نساء الإسلام دائماً هن المحرك الأول لنُصرة الدين.



لمحات من حياة القضاء

أنت تتكبر على الله^(١)

ازدان تاريخ القضاء في الإسلام ببداية من مواقف قضاة العدل، وبروائع من انصياح خاصة المسلمين، وعامتهم لشرع الله ونزولهم عند أحكامه، وكان لضيفنا القاضي العظيم مواقف في العدل لا تنسى، فعندما يقرأ الإنسان هذه المواقف يظن نفسه أنه أمام أساطير تحكى، ولكن الأساطير لا تحدث في حياتنا الدنيا، وهذه الوقائع حدثت بالفعل، فمن هو هذا القاضي الذي رفض شهادة هارون الرشيد في إحدى القضايا، ولماذا فعل ذلك، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، قاضٍ من أعظم قضاة الإسلام، هو أول من تولى منصب قاضي القضاة في الإسلام، لقد كان هذا القاضي العظيم مشهور بالاستقامة، والتمسك بالهدى النبوي، لذلك شهد له بالصفاء والنقاء من الأصفياء والأولياء ممن عاصره، وممن سبقهم، وشهد له كذلك بالفضل القاضي والداني.

(١) البداية والنهاية ** شذرات الذهب في أخبار من ذهب ** العبر في خبر من عبر ** تاريخ بغداد ** تاريخ الإسلام.

نحن على موعد مع، القاضي الجهد الحصيف، صاحب السيرة
الماتعة النافعة، والمسيرة الطويلة في خدمة الإسلام والمسلمين، إنه
شيخ من أكابر شيوخ بغداد، والتلميذ النجيب في مدرسة الإمام أبي
حنيفة رحمه الله، نحن نلتقي بالإمام المجتهد، العلامة المحدث،
قاضي القضاة، أبو يوسف يعقوب بن إبراهيم بن حبيب رحمه الله
الذي يعرف تاريخه الخاصة والعامة، فشخصيته من الشخصيات
الشهيرة في كل مكان وزمان.

ونحن في هذه السطور نخط بأيدينا مشهداً من أعظم مشاهد
التاريخ، للقاضي العظيم أبي يوسف الذي يرد شهادة أمير المؤمنين
هارون الرشيد في أحد القضايا، لأن الخليفة يترك الصلاة في
الجماعة مع عامة المسلمين، فتعالوا بنا لتجول بين أروقة التاريخ
لنتعاش بقلوبنا وأرواحنا مع هذا المشهد الرباني الفريد.

من خلال النظر في إحدى القضايا أمام القاضي العظيم أبي
يوسف رحمه الله، كان أحد أمراء البيت العباسي شاهداً فيها، فلما
دخل الأمير العباسي للإدلاء بشهادته، نظر إليه القاضي أبو يوسف،
ولم يقبل شهادته، وقال له: لا تقبل شهادتك، فخرج من هذا
المكان، خرج الوزير، وعلامات عدم الرضا ظاهرة على وجهه،
والناس تنظر إليه.

توجه الأمير العباسي بشكل فوري لقصر الرشيد، وقص على
مسامعه ما جرى له بالمحكمة وكيفية طرده أمام الناس، إلا أن

ال خليفة لم يستدع القاضي أبا يوسف لينظر في الأمر، لأن أمراء الإسلام أعطوا هبة، واستقلالية للقضاء.

لكن أمير المؤمنين هارون الرشيد صبر حتى يأتي القاضي أبو يوسف إلى الديوان كعادته لزيارة أمير المؤمنين، والتباحث معه بأمور الرعية، وشئون الدولة، وما كان من الرشيد إلا أن عاتب قاضي القضاة أبا يوسف بلطف حول طرد الوزير من المحكمة، وعدم القبول لشهادته؟ فقال: لم رددت شهادته يا سيدي؟

كانت إجابة القاضي أبو يوسف على الرشيد حاضرة وسريعة حيث خاطبه قائلاً: يا أمير المؤمنين، لقد سمعته يخاطبك ذات يوم قائلاً: أنا عبد أمير المؤمنين، فإن كان صادقاً، فلا شهادة للعبد، وإن كان كاذباً، فلا شهادة للكاذب.

فقال الرشيد: إن شهدت في قضية، فهل تقبل شهادتي؟! قال أبو يوسف: لا، قال الرشيد: ولم؟ قال: لأنك تتكبر على الله فلا تخرج إلى الجماعة، ولا تصلي مع عامة المسلمين، وهذا تكبر على الله، ولا يليق بالعبد هذا، فتاب الرشيد عن ذلك، واتخذ مسجداً للعامة على بابه، وكان يخرج إليه عند كل صلاة.

عبرة:

يا شباب، لقد أبدى هارون الرشيد ارتياحاً حيال حجة أبي يوسف بقوله وشكره، وأثنى على عدله وجرأته، فهو قال رأيه

بصراحة في أحد المقررين من الخليفة، وكذلك قال رأيه في عدم قبول شهادة الخليفة نفسه، فرحم الله الخليفة هارون الرشيد لعدم تدخله في أمر القضاء، وخضوعه للحق، ورحم الله القاضي أبا يوسف لعدله وجرأته في وجه الخليفة والأمراء.

يا سادة، من يقرأ هذا الموقف يعلم كيف وصل تاريخنا إلى هذا الرقي الفريد، وهذا السمو العجيب، ففي ساحة العدل والحرية كل في المجتمع سواء لا فارق بين وزير وغفير، بين غني وفقير، بين خليفة ورجل مساكين، لهذا قامت للإسلام على مدار أكثر من ألف عام حضارة ومجد عظيم قلما يعرف تاريخ البشر مثله، ونحن لا ندعي أن هذا التاريخ تاريخ لملائكة ليس به أخطاء، وبه رجال لا يعصون ربهم ويفعلون ما يؤمرون، حاشا لله لم نقل هذا يوماً، بل هو مجرد تاريخ بشري به أخطاء بعضها كان عصيًّا على الأمة، وسبب كوراث على الأمة عظيمة، لكنه أفضل تاريخ للبشر بدون جدال.



وضعت هذا السيف لأقتلك^(١)

برزت شخصيات كثيرة من تاريخنا العظيم، وتألفت في سماء العظام تطاول عنان السحاب، ولمعت في سجل الخالدين، وبقيت في ذاكرة المحبين تشع بما قدمته للدين الله من جلائل الأعمال ولطائف الأقوال، وفضائل الخصال، ومن الرجال البارزين، والأذكياء النهابين الذين تداركتهم العناية الإلهية، ولا حظتهم عيون السعادة الأبدية، وجعلتهم خدماً لدين أفضل البرية، وصار لهم العز الممدود، والخير المعقود، قاضٍ عظيم من قضاة الإسلام، عرف عنه الحزم والعزم والقوة في الحق، فمن يكون هذا القاضي، وما هو موقفه الغريب مع أمير بلاد السند، ولماذا أراد قتله، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، قاضٍ عظيم من أعظم قضاة الإسلام في بلاد الهند، كان رجلاً جريئاً لا يتكلم إلا بالحق، لا يخشى بطش سلطان ولا ملك، عاش حياته إعلاءً لكلمة الحق والعدل

(١) المختار المصون من أعلام القرون ** البداية والنهاية ** الكامل في التاريخ ** ترطيب الأفواه بذكر من يظلمهم الله.

ومات على ذلك، نحن على موعد مع صاحب المواقف الجريئة، والشجاع النادرة في إقرار العدل، الرجل الذي أضحت جرائته في الحق مضرب الأمثال في كل زمان ومكان.

نحن نلتقي بالرجل صاحب المواقف الأخلاقية الجريئة الرنانة القاضي الفاضل شكر الله السندي رحمه الله، قاضي بلاد السند العظيم، ونحن في هذه السطور نتعاشق بقلوبنا وأرواحنا مع هذا القاضي العادل مع مشهد رائع من مشاهد العدل حكم فيه على ابن سلطان بلاد السند في إحدى القضايا، فتعالوا بنا لنتجول بين أروقة التاريخ لنرى هذا المشهد الماتع.

كان القاضي شكر الله السندي تولى القضاء في تته في بلاد السند سنة ٩٢٧ هجرية أيام السلطان شاهي بيك، وكان القاضي شكر الله لا يخاف أحد من الناس، ولا يخشى أحدًا إلا الله، وفي يوم من الأيام دخل أحد تاجر بلاد السند على القاضي شكر الله السندي، وقال له: يا سيدي القاضي لي مظلمة عند الأمير شاه حسين ابن السلطان شاهي بيك أمير بلاد السند، فقال له القاضي شكر الله: اذكر مظلمتك.

فذكر الرجل وقال: يا سيدي كان الأمير شاه حسين قد اشترى أفراسًا مني، ولم يدفع لي الثمن، وفي الموعد المحدد، ذهبت إليه فماطل في دافع الثمن، فرفعت إليك القضية لتحكم لي بالحق عليه.

فأمر القاضي أن يحضر السلطان وابنه الأمير لينظر في القضية، فلما جاء السلطان وابنه، أمر القاضي الأمير شاه حسين أن يقوم حيث يقوم التاجر، فأخذ ساعة يسمع من هذا وذاك، وسمع كذلك من الشهود، وأقر الأمير حق التاجر.

قضى القاضي شكر الله السندي لصالح التاجر على الأمير، فأرضى السلطان التاجر، ودفع له ما له من مال، وقام بتعويضه على التأخير.

ثم قام القاضي من مقامه وقدم إلى السلطان على جرى العادة فقعد السلطان عنده وأراه خنجرًا كان معه، وقال له: جئت به لأقتلك لو عدلت عن الحق خوفًا مني، فأخرج القاضي السيف من تحت وسادته، وقال له: وضعت هذا السيف لأقتلك لو جاوزت عن حدك في إحقاق الحق.

وكان السلطان شاهي بيك هو من طلب من ابنه مطلة التاجر حتى يعلم ماذا يفعل القاضي في القضية، وهل يخضع للحق، أما إنه يجمل السلطان الذي ولاه أمر القضاء.

عبرة:

يا شباب، هذا مشهد من مشاهد العدل في العصر الإسلامي الذهبي حينما كان للمسلمين قضاة لا يخشون إلا الله، رجال خافوا الله تعالى وعرفوا قوته، فتساوى عندهم البشر أجمعون الملك مثل

أدنى الناس من الشعب، لقد حكموا بالعدل الذي كان دائماً شعار لهم، فكانوا بذلك سادة العالم، حتى قال أحدهم يخطب السحاب: أمطري حيث شئت فسوف يأتينا خراجك.

وهي مقولة خالدة للخليفة العباسي هارون الرشيد الذي كان يخاطب السحاب في السماء، وفي المقولة تعبير عن التمكين والثقة والأمل، ذلك انه أينما أمطرت، فسوف تمطر في أرض يحكمها الرشيد، وتفيض فيه الخيرات، وبالتالي سيأتيه منها الخراج والفائدة للعامة الناس، وهكذا يكون العدل هو سبب في سيادة الأمم، بالعدل قائمة الإسلام حضارة عظيمة لم يعرف لها البشر نظيراً، وبالظلم انهارت هذه الحضارة وأصبحنا في ذيل الأمم!!



القاضي العظيم^(١)

ظهر في تاريخ أمتنا الإسلامية على مر الأزمان والعصور، كوكبة ميمونة من أعيان العلماء، وأعلام النبلاء، وأفراد الأصفياء، يزينون جيد الدهر، وينفعون الناس في كل عصر ومصر، ظهر هؤلاء الصفوة على مسرح الأحداث فكان لهم أكبر الأثر في تغيير صفحات التاريخ، فقد ظهرت فيهم السماحة، والشجاعة، والصدقية، والأمانة، والحياء، وغير ذلك من الهمم المنيفة، والأحوال الشريفة، فهذه الأمة أمة ولادة، تنجب العظماء والفضلاء، وتنجب صفوة البشر.

وحديثنا هنا عن واحد من ألمع شخصيات التاريخ الأندلسي، رجلٌ من أعظم علماء الأندلس عرف بمواقفه الجريئة، وقوته في الحق، قد تساوى عنده الكبير والصغير في ذلك، وقف أمام أعظم سلاطين الإسلام في الأندلس حتى رده إلى الحق، فمن يكون هذا الشيخ الجليل، وما هي قصته مع عبد الرحمن الناصر، هذا ما سنعرفه الآن.

(١) تاريخ علماء الأندلس ** جذوة المقتبس ** الصلة لابن بشكوال ** سير أعلام النبلاء **
نفع الطيب في غصن الأندلس الرطيب.

ضيفنا في هذه السطور، عالمٌ فذٌ من علماء الإسلام وخيارهم، وعلمٌ شامخ من أعيان علماء الأندلس، برزت عبقرتيه العلمية في المواقف المهمة، وسما في سماء صافية لا غبار فيها في الفقه مع ثلة مباركة من أكابر علماء الإسلام في الأندلس، فقد كان رحمه الله على رأس علماء الأندلس في عهدها الذهبي.

نحن على موعد مع، قاضٍ عظيم، كان قاضي الجماعة في الأندلس، وهو مثل قاضي القضاة في بلاد المشرق الإسلامي، وكان خطيبها الأول، وكان عالمها الأكبر، كان يقف مع الحق مثل الجبال الراسيات، صليبا في الأحكام، قوى النفس، نحن نلتقي بأعظم قضاة الأندلس عبر العصور، القاضي الشجاع المنذر بن سعيد البلوطي، لقد كان رحمه الله علما من أعلام الصادحين بالحق الذين ينهون عن المنكر، ويأمرون بالمعروف، وله في ذلك مواقف ناصعة تتعطر بها صفحات التاريخ، وتزدان بها مجالس القضاء في الإسلام.

ونحن في هذه السطور مع مشهد مائع، ندلف من خلاله إلى بستان غني بالجهر بالحق من بساتين ابن سعيد رحمه الله، فتعالوا بنا لنعيش بقلوبنا مع هذا المشهد العظيم بين أعظم خلفاء الأندلس عبد الرحمن الناصر وبين أعظم قضاة الأندلس المنذر بن سعيد رحمهما الله.

كان المنذر بن سعيد مثالا للنزاهة في القضاء وله مع الناصر

غرائب رائعة، فقد ألزمه الحق مرات عدة، وهو من هو في سلطانه، فقد كان الملوك جميعًا لعهد شريين وغريين منفردين بأحكامهم، لا معقب وراءهم ولا نقض لما يبرمون، ومع ما لهم من السطوة العارمة، والبطش القاهر، فقد وقف المنذر أمام الناصر ليؤيد الحق وحده، ويتخذ خشية الله عز وجل سلاحًا يقل دونه كل سلاح، مهما رجعت عليه العواقب مما ينتظر أن تتمخض عنه.

وكان الناصر دقيق النظر، صحيح البصر برجاله، فهو يعلم المداهن المحابي، والمتظاهر بالحق سمعة ورياء، والمعتصم بالحق ابتغاء مرضاة ربه، ومن ثم فقد كان ينزل على حكم المنذر، واثقًا من نزاهته وخلوص حكمه من الشوائب، إذا كان لنا أن نفخر بمن يجاهرون بالحق من القضاة رهبة أو خشية فإننا نعجب أيضًا بمن يستمعون القول فيتبعون أحسنه من الخلفاء والملوك.

كان للخليفة عبد الرحمن الناصر حظية من نسائه ملكت قلبه، فهم بها، وكلف برغباته، فبنى لها قصرًا جميلًا، ثم عنَّ له أن يوسع في شرفاتها ومقاصيره، فأراد أن يشتري دارًا مجاورة وكانت لبعض الأيتام، وعرض بعض المال لذلك، فقال الوصي: إنه لا ينفذ البيع إلا بإذن القاضي المنذر بن سعيد، إذ أن الأيتام في حجره ورعايته، فهو قاضي الجماعة في قرطبة، وأولى الناس بالتصرف والانقياد.

فبعث الخليفة إلى القاضي يسأله إنفاذ البيع، فقال المنذر لرسول الخليفة: إن البيع على الأيتام لا يصح إلا لحالات منها: الحاجة

الملحة، أو الضعف الشديد، أو الرغبة في مال من غبطة مرتجاة، وليس للأيتام حاجة لنقد، ولا بالدار ضعف فتزال، وأما الغبطة فهذا مكانها، فإن أعطاهم أمير المؤمنين كثيرًا، أنفذت البيع وإلا فلا.

فأرسل الخليفة الناصر خبراء قدروا الثمن فلم يعجب القاضي المنذر، فأباه، وأظهر الخليفة العدول عنها والزهد فيها، وخاف المنذر أن يأخذها جبرًا، فأمر بهدم الدار وبيع أنقاضها، فبيعت وحدها بأكثر مما عرضه الخليفة في الشراء، فعز ذلك على الناصر، واستدعى المنذر بن سعيد وناقشه في هدم المنزل!!

ولما دخل المنذر على الناصر في المدينة الملكية الزهراء، قال الناصر: لماذا هدمت الدار يا أبا الحكم، فقال له المنذر في جراءة حميدة: لقد أخذت في هدمها بقول رب العزة سبحانه: ﴿أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدْتُ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَاءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْبًا﴾ (الكهف: ٧٩).

لقد بعث الأنقاض بأكثر مما قدرت للدار، وبقيت الأرض للأيتام، فالآن اشتراها بما تراه لها من الثمن، فتدبر الخليفة الأمر قليلًا، وأدرك صدق النية لدى القاضي، وعلم إخلاصه في إتباع الحق، فقال: يا أبا الحكم، نحن أولى بالانقياد إلى العدالة، وجزاك الله خيرًا يا منذر عن العدل والإسلام.

عبرة:

يا أيها السادة، إذا أردتم أن تعرفوا من أين جاءت هذه الهيبة في الصدور، وهذه الجلالة في النفوس، وهذه المنزلة عند الخليفة وعند الناس خاصة وعامة، فاعلموا أنها ما جاءت إلا من إخلاصه لله، وخوفه منه، وعبادته لله، واتصاله به، إن من خاف الله خافه كل شيء، ومن كان مع الله جعل الخلق كلهم معه، ومن أطاب طعمه ومشربه استجاب الله دعاءه.

يا سادة، هذا موقف كريم من قاض عادل، وملك منصف، بأمثال هذه المواقف الجريئة اعتر الإسلام، وبلغ في قرن واحد ما لم تبلغه الدولة الرومانية في ثمانية قرون، بل إن المنذر قد رصد نفسه ناقدًا لأعمال الخليفة، فهو لا يكتفي بإقامة العدل في القضاء وحده، بل تتبع أعمال الناصر، حسنها وسيئها في رأيه، فإذا لم يطمئن لعمل ما جاهر بمحاربته على رؤوس الأشهاد، واتخذ من منبر الجمعة مذياعًا يصدع بالمعروف وينهى عن المنكر، مهما كانت النتائج، وحسبه أن يسكن ضميره القلق، فلا يشعر بوخر يؤنبه على السكوت والإغضاء.



يجب قطع يدك أيها السلطان^(١)

لا شك أن العدالة من أسمى الغايات التي سعى الإنسان إلى تحقيقها منذ القدم، وإن الدين الإسلامي نزل لترسيخ العدالة، وإرساء قواعد الأمن والاستقرار بين الناس، ثم إن مقولة "الظلم لا يدوم" تؤكد على أن الأمم التي عمرت طويلاً، هي التي أرست دعائم العدل، والعدالة بقوة بين أبناء مجتمعاتها، لا فرق بين حاكم ومحكوم، ولا بين غني وفقير، الحكمة أن يحس الناس جميعاً أنهم كلهم عباد الله، فالقانون الإسلامي لا يستثنى السلطان من العقوبة، أو أمير، أو قائد، أو وزير، فالناس أصلهم من نفس واحدة، وهم أبناء آدم وحواء، فجميع الناس هم أخوة في الإنسانية لا فرق لأحد على أحد إلا بالتقوى.

وجميع دول الإسلام عبر التاريخ قامت على العدل، والمساواة بين البشر، ولا نخطئ إن أدخلنا الدولة العثمانية على رأس الأمم والدول التي ساهمت بقوة في دعم ثقافة القانون، ونشر قيم العدالة

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ** روائع من التاريخ العثماني ** الحياة العدلية في عهد الفاتح * العثمانيين في تاريخ والحضارة ** إنباء الغمر بأبناء العمر.

النيلة المرتبطة بالمنظومة القيمة للحضارة الإسلامية، ونحن مع قاض عملاق أمر بقطع يد السلطان الفاتح، فمن هذا القاضي الجليل، وما هو سبب حكمه التاريخي بقطع يد واحد من أعظم سلاطين الإسلام، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، الإمام الكبير القدوة، عالم من الذين يقتدى بهم في الأقوال والأفعال، شمس من شمس الإسلام، أسد مغوار يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، لا يخشى في الله لومة لائم، واعظ استانبول وشيخاها الزكي الكبير، الإمام القدوة الحجة الفقيه، صاحب الإسهامات المتألقة في القصص والحكمة والمناجاة، والإرشاد التربوي البهي، الشيخ الذي أمر بقطع يد السلطان الفاتح، القاضي العظيم صاري خضر جلبي رحمه الله.

لقد أمر السلطان محمد الفاتح ببناء أحد الجوامع في مدينة إستنبول، وكلف أحد المهندسين الروم واسمه "إبسلاتي" بالإشراف على بناء هذا الجامع، فقلد كان هذا الرومي معماريًا بارعًا، وكان من بين أوامر السلطان أن تكون أعمدة هذا الجامع من المرمر الذي جاء به السلطان من عدة دول، وأن تكون هذه الأعمدة مرتفعة ليبدو الجامع فخماً، وحدد هذا الارتفاع لهذا المعماري الرومي.

ولكن المعماري الرومي لسبب من الأسباب أمر بقص هذه الأعمدة، وتقصير طولها دون أن يخبر السلطان الفاتح، أو يستشير

في ذلك، وعندما سمع السلطان الفاتح بذلك استشاط غضبًا، إذ أن هذه الأعمدة التي جلبت للجامع لم تعد ذات فائدة في نظره، وفي ثورة غضبه، أمر بقطع يد هذا المهندس، وندم السلطان على فعلته هذه لكن بعد فوات الوقت.

ولم يسكت هذا المعماري عن هذا الظلم الذي لحق به من السلطان، وذهب المهندس الرومي إلى قاضي عاصمة الخلافة، وكان في هذا الوقت الشيخ صاري خضر جلبي الذي كان معروف بقوته في الحق، والذي كان صيت عدالته قد ذاع وانتشر في جميع أنحاء الإمبراطورية، اشتكى المهندس الرومي ما لحقه بها من السلطان الفاتح من ظلم.

لم يتردد القاضي لحظة واحدة في قبول هذه الشكوى، ضد أقوى رجل في الأرض في هذا الوقت، بل أرسل من فوره رسوًلاً إلى السلطان يستدعيه للمثول أمامه في المحكمة، لوجود شكوى ضده من أحد الرعايا، حتى لو كان غير مسلم، فالكل سواء في دولة العدل والإسلام.

لم يتردد السلطان ولو لحظة واحدة في قبول دعوة القاضي، فالحق والعدل يجب أن يكونا على الجميع، حتى فوق رأس السلطان نفسه.

في اليوم المحدد ذهب السلطان على فور إلى مكان الذي يوجد فيه القاضي، ولما حضر السلطان بين يد القاضي توجه للجلوس على

المقعد، قال له القاضي: لا يجوز لك الجلوس يا سيدي السلطان، بل عليك الوقوف بجانب خصمك، وقف السلطان الفاتح أمام خصمه الرومي، ولم يغضب مما فعله القاضي بجعله يقف بجوار خصمه وهو السلطان.

تكلم المهندس الرومي في أول للأمر، وشرح ما وقع عليه من ظلم من جانب السلطان الفاتح، ثم تكلم السلطان الفاتح وقال: ما قاله المهندس، وأيد كلامه، فلما انتهى السلطان من الكلام بدا القاضي ينظر في القضية، ثم بعد فترة قصير تكلم القاضي، وقال: حسب الأوامر الشرعية يجب قطع يدك أيها السلطان قصاصًا لك مما فعلته بهذا الرجل.

صعق المهندس الرومي من قول القاضي، فهو لم يصدق الحكم الذي نطق به القاضي، فهذا السلطان الفاتح، وما أدراك ما السلطان الفاتح الذي أذل أوروبا، هذا الرجل الذي كانت أوروبا ترتجف منه رعبًا، وهو سيد البلاد طولها وعرضها، فكيف بقاضٍ يصدر عليه مثل هذا الحكم.

فارتجف المهندس دهشة مما سمع، والذي ما كان يدور بخلد، أو بخياله من قريب ولا بعيد، فقد كان أقصى ما يتوقع أن يحكم له القاضي بتعويض مالي فقط، أما أن يحكم القاضي بقطع يد السلطان فهذا الذي لم يتوقعه قط.

فقال المهندس بصوت ذهل، وبعبارات متعثرة: أيها القاضي

أنى أتنازل عن دعواى ضد السلطان، فقد كان كل ىرجوه منه، هو الحكم له بتعوىض مالى فقط، أما قطع ىد السلطان فلا، فهو لم ىستفید شىئاً بقطع ىد السلطان.

فحكم له القاضى بعشر قطع نقدىة فى كل ىوم فى حىاته، تعوىضاً عن الضرر البالغ الذى وقع علیه، ولكان السلطان الفاتح قرر أن یعطىه كل ىوم عشرين قطعة نقدىة عن كل ىوم تعبیراً عن ندمه لما فعله، وفرحه لخلاصه من حكم القصاص.

عبرة:

یا شباب، هذا هو الإسلام واقع حى متحرك یتلاً فى دنىا البشر، وتلك هى أروع صورة للإسلام فى تاریخ الزمان وعلى مدار اللىالى والأىام، فمن أراد أن ىرى صورة العبودىة الحقیقىة لله تعالى، فلینظر فى حىاة هؤلاء العظماء الكرام، والأئمة الأعلام، الذین اصطفاهم رب الكون وأعز بهم الإسلام، أولئك هم النجوم فى سماء العزة والخلود، أولئك الذین صابروا وصبروا حتى تم أمر الحق والعدل.

رحم الله الشىخ القاضى صارى خضر جلبى فقد صنع مجداً كبرىً، وإن هذا الموقف ىبقى علامة مهمة على الكثير من مواقف العدل التى شهدتها الأمة المسلمة على طول العصور الإسلامىة.



شهادتك لا يمكن قبولها أيها السلطان^(١)

لقد جاءت دوحة الإسلام برجال وقضاة أفذاذ، قوالين للحق، أمارين بالمعروف، لا يعصون الخالق في طاعة المخلوق، وهؤلاء هم الذين تحتاج الأمة الإسلامية إلى أمثالهم، إذ الأمة لا تحتاج إلى شيء من الأخلاق احتياجها إلى الجرأة في الحق، والشدة في العدل، والمساواة بين الناس، وعدم التفرقة بين الكبير والصغير، وعدم الإغضاء على تعدي حدود الله رهبة من السلطان.

هؤلاء الرجال الذين تحيا بهم الأمم، وتشرق بهم الأيام، وتعلو بهم قداسة الحق، فتطيب بهم الأيام، وتسعد بهم الحياة، وفي تاريخنا العريق رجال كانوا كالجبال الرواسي في إحقاق الحق، منهم قاض عظيم من قضاة الدولة العثمانية رد شهادة واحد من أعظم سلاطين بني عثمان بايزيد الصاعقة، فمن يكون هذا القاضي الذي رد شهادة السلطان بايزيد، ولماذا رفض شهادته في قضية من

(١) إنباء الغمر بأبناء العمر ** الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ** حديقة السلاطين ** روائع من التاريخ العثماني، النسب الكبير.

القضايا، وما هي الأسباب التي أدت لرفض شهادته، وما هو رد فعل السلطان، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، علم من مشاهير علماء الإسلام وأكابرهم، ممن تنشرح الصدور بذكرهم، ومطالعة سيرهم، هو فريد زمانه، أمير الأتقياء في بورصة، سيرته نافعة معطاء، تزين الكتاب بأعظم المواقف، كان شديد الكره لأهل البدع والأهواء، عُرف بقوته في الحق، عده الكثير من المؤرخين من الجهابذة العظام في تاريخ الدولة العثمانية.

نحن على موعد مع، شيخ الأئمة الثقات، وأستاذ العلماء الربانيين، رجل من أهل الفضل العاملين، حياته وأحواله تنشرح لها صدور المحبين، وتأخذهم إلى ينابيع الصفاء والهناء، إنه الشيخ الإمام، والقاضي الكبير شمس الدين فناري رحمه الله، ونحن الآن نطوف بين صفحات التاريخ لنتعرف على موقفه العظيم في رد شهادة السلطان بايزيد.

نحن الآن في مدينة بورصة عاصمة العثمانيين في ذلك الوقت، في عهد السلطان بايزيد بن مراد، الفاتح الكبير، فاتح بلاد البلغار، والبورصنة، وسلانيك، وألبانيا، هذا السلطان الذي سجل انتصاراً ساحقاً على الجيوش الصليبية، التي دعا إلى حشدها البابا بونيغا الرابع، لطرد المسلمين من أوروبا، وكانت قد اشتركت خمس عشرة دولة أوروبية في هذه الحملة الكبرى، وعلى رأسهم انجلترا،

وفرنسا، والمجر أقوى دول أوروبا في ذلك الوقت، وكانت معركة دامية عنيفة، وهي أقوى معارك العصور الوسطى، وهي معركة نيكوبوليس التي وقعت سنة ١٣٩٦ م.

هذا السلطان الصاعقة اقتضى حضوره للإدلاء بشهادة في أمر من الأمور أمام القاضي شمس الدين فناري رحمه الله، دخل السلطان المحكمة، ووقف أمام القاضي، وقد عقد يديه أمامه، كأى شاهد اعتيادي.

رفع القاضي بصره إلى السلطان، وأخذ يتطلع إليه بنظرات محتدة، قبل أن يقول له: إن شهادتك لا يمكن قبولها أيها السلطان، ذلك لأنك لا تؤدي صلواتك في جماعة، والشخص الذي لا يؤدي صلاته في جماعة، دون عذر شرعي، يمكن أن يكذب في شهادته.

نزلت كلمات القاضي شمس الدين نزول الصاعقة على رؤوس الحاضرين في المحكمة، كان هذا اتهامًا كبيرًا، بل إهانة كبير للسلطان بايزيد، تسمر الحاضرون في أماكنهم، وقد أمسكوا بأنفسهم ينتظرون أن يطير رأس القاضي بإشارة واحدة من السلطان.

ولكن السلطان لم يقل شيئًا، بل استدار وخرج من المحكمة بكل هدوء، ثم أصدر السلطان في نفس اليوم أمرًا ببناء جامع ملاصق لقصره، وعندما تم تشييد الجامع بدأ السلطان يؤدي صلواته فيه جماعة.

عبرة:

يا شباب، في هذا الموقف دلالة رائعة على مكانة العلماء في هذا الزمان والتي نفتقد عطرها ورحيقها هذه الأيام، بل لا نرى منها سوى السموم، لظهور طائفة من المستأكلين نظرًا لسكوت أرباب العلم الحقيقيين، إضافة إلى خذلناهم للأمة في كثير من المواقف التي ما كان لهم يسكتوا عنها، ويكتموا الحق وهم يعلمون.

يا سادة، عندما كان المسلمون يملكون أمثال هؤلاء العلماء، ملكوا أمثال هؤلاء السلاطين، ولهذا كانت أمة الإسلام في زيادة دائمًا أكثر من ألف عام، بالعدل تحيا الأمم، وتسود القيم، وتكون في صدارة، لأن الإنسان بها عزيز، الضعيف يأخذ حقه من القوى، لا يخشى بطشًا أو سجنًا، ولكن حينما يختفي العدل، ويصبح الظلم شعار أي دولة تكون النهاية قريب جدًا، لأنها عند ذلك لا تصبح دولة، بل هي عبارة غابة يأكل القوى فيها الضعيف.



عطسة تنصف مظلوماً^(١)

بعد مجيء الإسلام، وبعد أن مكن الله لهذا الدين، كان لازماً وحتماً أن يكون لهذا الدين نظام اجتماعي عادل يحتكم إليه المجتمع، ويحتمي به من بطش الظالمين والمعتدين، فكان ثمرة الإسلام أن تغلغل العدل في نفوسهم فأظهروه في أحكامهم، وفقهوا واقع الناس وملابسات الحوادث فأسهموا في إعادة الحقوق إلى أصحابها في أقرب وقت، فهم نماذج مضيئة لقضاة اليوم من أبناء الإسلام في أي مكان، وعليهم الأخذ بسنتهم والاقتراء بأحكامهم، ليتحقق العدل على أيديهم، ويسود الأمن والأمان للناس في وجودهم، وتسعد الدنيا بهم، ويعيش الناس سوية تحت راية العدل والعدالة، وحديثنا هنا قاض عظيم، رفض أن يشمت هارون الرشيد في مجلسه، فمن يكون هذا القاضي العظيم، وما هي قصته العظيمة مع الرشيد، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، عالمٌ زاهد، من الثقات الميامين، ومن خيار الأخيار، جمعت فيه خصال الخير، وحصائل المكارم،

(١) البداية والنهاية ** تاريخ بغداد ** مختصر تاريخ دمشق.

اجتذب إعجاب الناس، وراق في عيونهم ونفوسهم، قاضٍ فاضل، كان أبرز ما يميزه الشجاعة والعدل والثقة، لم يسع قط وراء الشهرة، بل عمل ليرضي الكبير المتعال.

نحن على موعد مع، فقيه عالم بأمور دينه، أشهر قضاة العراق، خاصة مدينة بغداد، حيث تميز بشجاعته، وعدله، وإعلائه لكلمة الحق، كما كان أحد تلاميذ الإمام أبي حنيفة النعمان، وأحد أعظم رجال الفقه والقضاء، نحن نلتقي بالقاضي العادل العظيم عافية بن يزيد رحمه الله، ونحن في هذه السطور نطوف معاً بين صفحات التاريخ، لنرى له مشهداً من أعظم مشاهد العدل والإنصاف.

عن عبد الملك بن قريب الأصمعي قال: كنت يوماً عند أمير المؤمنين هارون الرشيد، فرفع إليه في قاضٍ كان قد جعله على القضاء، يُقال له عافية، فكثر عليه، فأمر بإحضاره، فأحضر إلى مجلس أمير المؤمنين.

وكان في المجلس جمعٌ كثير من الوزراء ورجال الدولة، والتجار، فجعل أمير المؤمنين يخاطبه، ويوقفه على ما رُفع فيه من شكاوٍ، فطال المجلس، ثم إن أمير المؤمنين عطس، فشمتته من كان في المجلس جميعاً، ما عدا القاضي عافية، فإنه لم يُشمتته.

فقال له الرشيد: ما لك لا تشمتني كما فعل القوم؟

قال له عافية: لأنك يا أمير المؤمنين لم تحمد الله، فلذلك لم

أُشْمِتَكَ، فهذا النبي ﷺ عطس عنده رجلان، فشمت أحدهما، ولم يُشْمِت الآخر، فقال: يا رسول الله، ما لك شمتَ ذاك، ولم تشمتني؟، فقال: إن هذا حمد الله، فشمتناه، وأنت لم تحمده، فلم أُشْمِتَكَ.

فقال له الرشيد: ارجع إلى عملك، إنك لم تسامح في عطسة تسامح في غيرها، وصرفه منصوفاً.

عبرة:

يا شباب، لقد رأينا في هذا المشهد العظيم عظمة الإسلام، وعظمة رجاله علماء كانوا أو سلاطين، رجل قاض تم الافتراء عليه من خصومه عند خليفة المسلمين، ويأتي القاضي إلى المجلس لسمع شكواهم، وما قيل ضده، وطال المجلس حتى يعطس أمير المؤمنين فشتمته من كان في المجلس جميعاً رياءً للخليفة، فالرشيد لم يحمد الله، فلم يُشْمِت الرجل الذي بعد قليل من الممكن أن يأمر الخليفة بقتله، أو سجنه، أو نفيه للوشايات التي ذكرت ضده، ومع ذلك الرجل لم يخطر في باله تشميه الخليفة رياءً لمنصبه، أو حتى ليعفو، أو يخفف الخليفة عنه، فالقاضي لا يسامح في الحق أبداً حتى لو كانت حياته هي الثمن، وعرف بذلك الرشيد أن هذه شكاو ضد الرجل ما هي إلا مجرد وشايات من الخصوم، فعفا عنه، بل وأنصف القاضي، وأنزل العقوبة بمن ظلم القاضي.



قضاتي تردني إلى الحق^(١)

بعد مجيء الإسلام، وبعد أن مكن الله لهذا الدين، كان لازماً وحتماً أن يكون لهذا الدين نظام اجتماعي عادل يحتكم إليه أفراد المجتمع، ويحتمي به الضعفاء من بطش الظالمين والمعتدين، فكان ثمرة الإسلام العدل الذي تغلغل في نفوس قضاة عظماء فأظهروه في أحكامهم، وفقهوا واقع الناس وملابسات الحوادث فأسهموا في إعادة الحقوق إلى أصحابها في أقرب وقت.

فهم نماذج مضيئة لقضاة اليوم من أبناء الإسلام في أي مكان، وعليهم الأخذ بسننهم والاقتراء بأحكامهم، ليتحقق العدل على أيديهم، ويسود الأمن والأمان للناس في وجودهم، وتسعد الدنيا بهم، ومن هؤلاء العظماء الذين سعد الناس بعدلهم وقوتهم في الحق، قاض عظيم لا يخشى في الله لومة لائم، رجل واقف أمام الخليفة الذي بناء مجد بني العباس أبي جعفر المنصور، ورفض أن يخضع لسلطوته وجبروته حتى يؤدي الحق إلى أهله، فمن يكون

(١) تاريخ الخلفاء للسيوطي ** البداية والنهاية ** رفع الإصر ** تاريخ بغداد ** البداية والنهاية.

هذا القاضي العظيم، وما هي قصته مع أبي جعفر المنصور، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، قاضٍ عظيم، جم الفضائل، عارٍ من الرذائل، كثير المكارم، عفيف عن المحارم، ظاهر الرياسة، خليق بالنفاسة، يتقرب إلى الناس بالود، فيه مروءة وشهامة، إمام علامة، كثير الفضل والإفضال، كثير التودّد إلى العلماء والصالحين، أثنى عليه المؤرخون بعدله وفضله، نحن نلتقي بقاضي البصرة العظيم سوار بن عبد الله البصري رحمه الله، هذا الرجل الذي يُعد من ألمع الشخصيات الإسلامية في القرن الثاني الهجري، ونحن نتعايش هنا مع موقف من مواقف العدل لهذا القاضي الجبل، كما جاءت في كتب السير والتراجم.

كتب الخلفية أبو جعفر المنصور إلى قاضي البصرة سوار بن عبد الله، وقال له: في إحدى القضايا أمامه، فقال له انظر إلى الأرض التي تخاصم فيها - وكانت بين أحد قادة الجيش العباسي ضد أحد التجار- ثم ادفعها إلى القائد، ولو كانت البيئة والحق مع تاجر.

فكتب إليه سوار القاضي: أن البيئة مع التاجر، وليست مع قائد الجيش، فوالذي نفسي بيده، لست أخرجها من يده إلا بيئة.

فكتب إليه الخليفة المنصور، وقال له: والله الذي لا إله إلا هو، لتدفعنها إلى القائد بدون بيئة.

فكتب إليه القاضي وقال: والله الذي لا إله إلا هو لا أخرجها من التاجر إلى القائد إلا بحق، ولو كان هذا الأمر الخليفة، فلا أغضب ربي من أجلك.

فلما جاءت الرسالة رجع الخليفة إلى الحق، وقال: والله يا سوار قد ملأتها عدلاً، والحمد لله صار قضاتي تردني إلى الحق، فلك الحمد يا ربي أن في دولتي مثل هؤلاء الرجال، بهذا تُعمر الأمم، وتبنى الدول، وعلي هذا قامت السموات والأرض.

يا إخوة، لقد رأينا في هذه السطور مشهد من مشاهد الحق الذي طافح بها تاريخنا، وزينة صفحات التاريخ بأجمل وأرق صور العدل والحق، ولقد استطاع رجال أمتنا العظام عبر الأزمان من نشر العدل والحق في ربوع الأرض، ولهذا سادت القيم والمبادئ، وأصبحت الحضارة الإسلامية هي أسمى ما يصل إليه البشر من سمو.

عبرة:

يا شباب، حتى في أشد العصور ظلمة كان هناك قضاة يخشون الله تعالى ويراعون العدل، وكانت كلمة الحق تخرج من أفواههم تزلزل قلوب الطغاة، كان أولئك القضاة المتقون دليلاً حياً على وجود نور الخير في القلوب مهما تكاثفت الظلمة، كانوا برهاناً على أن العدالة الإسلامية هي الحل لإصلاح المجتمع أي مجتمع.

وهذه النوعية من القضاة ممكن وجودها في كل عصر مهما
بلغ ظلم العصر، ومهما بلغ طغيان المستبد، وتلك النوعية تقبل
بمنصب القضاء لتحاول ما استطاعت أن تنشر ضوء شمعة لتتير
ظلمة الظلم والاستبداد والجور.



اذكر مظلمتك^(١)

في تاريخنا المجيد الكثير من الرجال العظماء الذين نفتدي ونتأسى بحياتهم، وحديثنا في هذه الصفحات عن شخصية تستحق أن تكون قدوة ومنهجًا في العزيمة والبطولة والفداء والعدل، ونحن في واقعنا العملي كم نحن بحاجة لتذكر سيرة هذا المجاهد البطل وأمثاله من العمالقة، وإلى أخذ الدروس من تاريخ حياته فنغار على الدين والأوطان، ونعمل بكل ما نستطيع من قوة لنهضته وجعل أمتنا في ريادة مرة أخرى، عن طريق التضحية والبذل بكل ما هو غال ونفيس من أجل الحرية والكرامة، فمن يكون هذا الحاكم الأسطوري، وما قصة تحري العدل حتى مع أقرب الرجال إليه، هذا ما سنعرفه الآن.

ضيفنا في هذه السطور، أمير خير، سمح السجايا، كريم الأخلاق، لم ينل أحدًا بسوء، بل كان يقابل السيئة بالحسنة، مشهورًا بالتقوى والصلاح وحب الخير، مد يد المعونة للضعفاء

(١) نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب ** البيان في المغرب والأندلس ** تاريخ قضاة الأندلس ** الكامل في التاريخ.

والمحتاجين، عفيف عن المحارم، ظاهر الرياسة، حري بالسياسة، خليق بالنفاسة، يتقرب إلى الناس بالود، فيه مروءة وشهامة، بينه وبين المفاهر قرابة ولحمة، وله نظم وأدب، ورغبة في إذاعة الخير، كان لا يقبل شفاعة في أحد من المذنبين، قويًا في إنصاف المظلومين، القوي عنده ضعيف حتى يأخذ الحق منه، والضعيف عنده قوي حتى يأخذ الحق له.

نحن على مع، الرجل الذي حير الألباب، وتعلقت به القلوب، رجل لم تهزم له راية، ولم يفجع بجيش قط، كان ذا عظم ومهابة في القلوب، لا يخشى عدوًّا أبدًا، ولم يتراجع عن إحقاق الحق يومًا، وإنصاف الناس حتى من نفسه، نحن نلتقي بكرة عظماء الأندلس، وأعظم رجالها قاطبة المنصور محمد بن أبي عامر المعافري رحمه الله.

في يوم من أيام العصر الذهبي للأندلس، جاء رجل من العامة إلى قصر الزاهرة حيث يجلس محمد بن أبي عامر المنصور أعظم حكام الأندلس، فنادى عليه، وقال: يا ناصر الحق، إن لي مظلمة عند ذلك الوصيف الذي عند رأسك، وأشار إلى الفتى قائد الحرس العامري، وكان صديقًا شخصيًا للمنصور.

ثم قال الرجل: قد دعوته إلى قاضي الجماعة، فلم يأت، فقال له المنصور: أو القاضي عبد الرحمن بن فطيس بهذا العجز والمهانة، وكنا نظنه أمضى وأقوى في الحق من ذلك؟

فقال المنصور: اذكر مظلمتك يا هذا، فذكر الرجل معاملة كانت جارية بينهما فقطعها من غير نصف -أي أخذ حق الرجل بدون حق- فقال المنصور: ما أعظم بليتنا بهذه الحاشية وهؤلاء القادة، ثم نظر إلى قائده، وقد ذهل عقله، فقال المنصور لأحد الجنود: اخلع الدرقة عنه، وأنزله صاغراً، وساو بخصمك في مقامه حتى يرفعك الحق أو يضعك، ففعل، ومثل بين يديه.

ثم نادى المنصور صاحب شرطته، وقال له: خذ بيد هذا الفاسق الظالم وقدمه مع خصمه إلى صاحب المظالم لينفذ عليه حكم قاضي الجماعة بأغلظ ما يوجبه الحق من سجن أو غيره، ففعل ذلك.

فلما حكم القاضي للرجل، عاد إلى مجلس المنصور شاكرًا، فقال له المنصور: قد انتصفت أنت، اذهب لسبيلك، وبقي انتصافي أنا ممن تهاون بمنزلتي وظلم الناس بسبب قرابه مني، فعزل قائد الحرس عن الخدمة، بل نفاه من الأندلس بعد أن أخذ ماله إلى بيت مال المسلمين.

عبرة:

يا شباب، لقد رأينا في هذه السطور صورة واضحة لما كان عليه الحاكم المسلم في العصور الزاهية في نُصرة الحق، وإرساء دعائم العدالة بين الناس، فلذلك ارتفعت القيم والمبادئ بين الناس، وساد الحب والمودة بين الحاكم والرعية، فالناس كانوا دائماً

جميعاً تحت حماية وظلال العدالة لا يخشون بطشاً، أو إرهاباً، أو طغياناً، لقد سطر رجال تاريخنا الكثير والكثير من صور احترام الحقوق بين الناس فكل سوء تحت مظانة العدل والعدالة.



سأدفعُ لك التعويض^(١)

في تاريخنا العظيم رجالٌ لا يخافون في الله لومة لائم، فلا يغريهم منصبٌ عن قول الحق، ولا يشغلهم كرسيٌّ عن خدمة الدين رجالٌ أخلصوا لله وحده، عرفوا معنى العبودية الخالصة التي لا تعثرها الشوائب، كرسوا حياتهم لخدمة الدين، فكان لزامًا على الناس احترامهم وتقديرهم، كانوا جبلاً نذروا حياتهم للأمة فصدقوا ما عاهدوا الله عليه فكان حقًا على التاريخ أن يُسجل أعمالهم في سجل الخالدين، وأن يسطر أسماءهم بحروف من ذهب.

ضيفنا في هذه السطور، ما هو بقائد فاتح، ولا سلطان حاكم، ولا قائد مجاهد، ولا وزير عامل، وإنما به وبأمثاله اكتملت الدولة بكل جوانبها، عملاً قُنا هذا مرب للأجيال عالمٌ جليل، وشيخ فاضل، وقاضٍ عادل، عاش حياته لمولاه ربه رغم أن الدنيا فُتحت له على مصراعٍ عينا، إنه الشيخ الجليل الملا فناري، ونحن في هذه السطور نعيش سويًا مع موقف رائع لهذا القاضي العادل، فتعالوا بنا لنتجول بين صفحات التاريخ لنرى هذا المشهد الماتع.

(١) إنباء الغمر بأنباء العمر ** ١٠١ من عمالقة آل عثمان ** العثمانيون في تاريخ والحضارة

** الدولة العثمانية المفتري عليها ** بشاير أهل الإيمان.

لما كان الشيخ الملا فناري قاضيًا على مدينة بورصة العثمانية قبل أن يتولى منصب شيخ الإسلام في الدولة العثمانية – ومنصب شيخ الإسلام هو أعلى منصب ديني في الدولة العثمانية، وكان شيخ الإسلام بمقدرته عزل السلطان العثماني من منصبه إذا خلف الشرع، وحدث ذلك أكثر من مرة– جاءه رجل اشترى حصاناً من شخص آخر.

واكتشف هذا الرجل أن الحصان الذي اشتراه مريض، فأراد إرجاعه واسترداد ثمنه لكن البائع أبى ذلك، فذهب إلى المحكمة لمقابلة القاضي ليشكو التاجر، لكنه لم يجده، فعاد الرجل إلى البيت، وفي الليل مات الحصان.

وفي اليوم التالي ذهب الرجل لمقابلة القاضي مرة أخرى فوجده وأخبره بأمر الحصان وبأنه تعرض للغش وسأله ماذا يتوجب عليه فعله؟

فقال الملا فناري: أنا من سأدفعُ لك التعويض.

فقال الرجل بدهشة: ولم تدفع أنت يا سيدي، ولا ذنب لك بالموضوع!!

فأجاب الملا فناري: هكذا يبدو لك، ولكن ذنبي عظيم فلو جثنتي وكنتُ على رأس عملي حينها لتدخلت في الأمر وقضيت لك، وأمرت بإرجاع الحصان، واسترداد مالك، ولكن لا سبيل

لذلك الآن وقد مات الحصان، وبسبب هذا الغياب سأدفع لك التعويض أنا حتى لا أعود لذلك مرة أخرى وأترك عملي.

عبرة:

يا سادة، القضاء هو مقياس الخير في الأمم، وهذه ناحية من أوسع نواحي العظمة في التاريخ الإسلامي، ولم يكن القاضي موظفًا، فالموظفون حتى الأمراء منهم والوزراء، أعوان للملك أو للرئيس، أما القضاة فكانوا هم بمثابة صوت الشعوب، وإحقاق الحق، وإرساء العدالة، انظروا إلى تاريخ القضاة الذين استطاعوا في عصر كان الحكم فيه في الدنيا حكمًا مطلقًا، وكانت حياة الناس معلقة بكلمة ينطق بها الحاكم، استطاع القضاة في هذا العصر أن يجعلوا لأنفسهم منزلة، وأن تكون لهم بكفائاتهم وبأخلاقهم حصانة دونها حصانة القضاة اليوم التي ضمنها لهم القانون، فلا حكم إلا بالعدل والتقوى، فالقضاة كانوا دائمًا النجوم التي يهتدي به الناس في نصرة الحق، ولقد رأينا ذلك واضحًا في صفحات التاريخ.



العدل الذي يمشي على الأرض^(١)

لم يرفع دين من الأديان قيمة العلم والعلماء كالإسلام، فالعلماء هم حصن الأمة الأول في مواجهة أي خطر داخلي أو خارجي، والحضارة الإسلامية حضارة عظيمة قائمة على أساس تبجيل العلماء، وتعظيم العلم، ولقد رأينا في مختلف الدول الإسلامية قيمة العلماء عند السلاطين العظام، فإنه لم تقم دولة أي دولة إلا على احترام العلماء، وكانت الدولة العثمانية في المقدمة دائماً في تقدير العلماء، وهذا المشهد العظيم دليل قوي على ذلك.

ضيفنا في هذه السطور، سلطان محب للعلم والعلماء، لذلك اهتم ببناء المدارس والمعاهد في جميع أرجاء دولته، بذل جهوداً كبيرة في نشر العلم، وأدخل بعض الإصلاحات في التعليم وأشرف على تهذيب المنهاج وتطويرها، لم يسمع بعالم من العلماء إلا جاء به إلى دولته، كان دائماً يحترم العلماء، يأخذ بمشوراتهم ولا يخالف رأيهم، نحن على موعد مع السلطان العظيم محمد الفاتح رحمه الله.

(١) الشقائق النعمانية في علماء الدولة العثمانية ** الضوء اللمع ** السلطان الفاتح للرشيدي ** الدولة العثمانية لصلابي ** السلطان الفاتح للسرغاني.

أرسل السلطان محمد الفاتح رحمه الله مجموعة من سكان شبه جزيرة القرم إلى القسطنطينية، وكان من بينهم رجلٌ من أهل العلم والورع هو القاضي أحمد جلبي، ولَمَّا مُثِّل بين يدي السلطان الفاتح.

قال له الفاتح في تأثر عجيب: إنني أقدر أهل العلم والعلماء، وقد أخطأنا في حقك أيها القاضي الموقر، فانظر بأي شيء نعوضك عن ترويعك وإحضارك إلى هنا كالأسرى، وكان يجب علينا تقديرك لمكانتك ولعلو منزلتك!!

فقال القاضي: إنني لا أطلب شيئاً، ويكفيني حسن استقبالك لي أيها السلطان العظيم!!

فنظر الفاتح إلى الوزير محمود باشا قائلاً: أكرم وفادة هذا القاضي، فهو العدل الذي يمشي على الأرض، وامنحه الجبة والقفطان المطرزين بالذهب والفضة، وعين له سنوياً ريع أرض يعيش منه هو وأسرته في رغد ورفاهية، فجديرٌ به وبأسرته أن يعيشوا في كرم وستر.

تهلل وجه القاضي أحمد جلبي وأراد أن يُقبل يدي السلطان الفاتح، فامتنع الفاتح، وقال له: إن منزلتك أيها القاضي عظيمة في نفوسنا، ونرجو من الله أن يوفقنا في رد كرامتك واعتبارك.

صار القاضي يدعو للفاتح بالعمر المديد، وبأن يوفقه في خدمة

الإسلام والمسلمين، وأمر السلطان الفاتح الوزير محمود باشا بتجهيز سفينة تُعيد هذا القاضي إلى بلاده مُعزّزاً مكرماً.

عبرة:

يا شباب، في هذا الموقف دلالة رائعة على مكانة العلماء في هذا الزمان والتي نفتقد عطرها ورحيقها هذه الأيام، بل لا نرى منها سوى السموم، لظهور طائفة من المستأكلين نظراً لسكوت أرباب العلم الحقيقيين، إضافة إلى خذلانهم للأمة في كثير من المواقف التي ما كان لهم يسكتوا عنها، ويكتموا الحق وهم يعلمون.

يا سادة، عندما كان المسلمون يملكون أمثال هؤلاء العلماء، ملكوا أمثال هؤلاء السلاطين، فنحن لم نر في تاريخنا سلطاناً عظيماً إلا وبجانبه عالم رباني مشهود له، فلذلك كانت حضارة الإسلام الزاهية هي قمة الراقى البشري، فلم ترأ أو تسمع بحضارة كانت قائمة على تعظيم قدر العلماء كحضارة الإسلام.



